الصحيح

من سيرة النبي الأعظم (ص)

العلامة المحقق
السيد جعفر مرتضى العاملي

الجزء السادس

دار الهادي دار السيرة









الصحيح

من سيرة النبي الأعظم (ص)



الصحيح

من سيرة النبي الأعظم (ص)

العلامة المحقق
السيد جعفر مرتضى العاملي

الجزء السادس

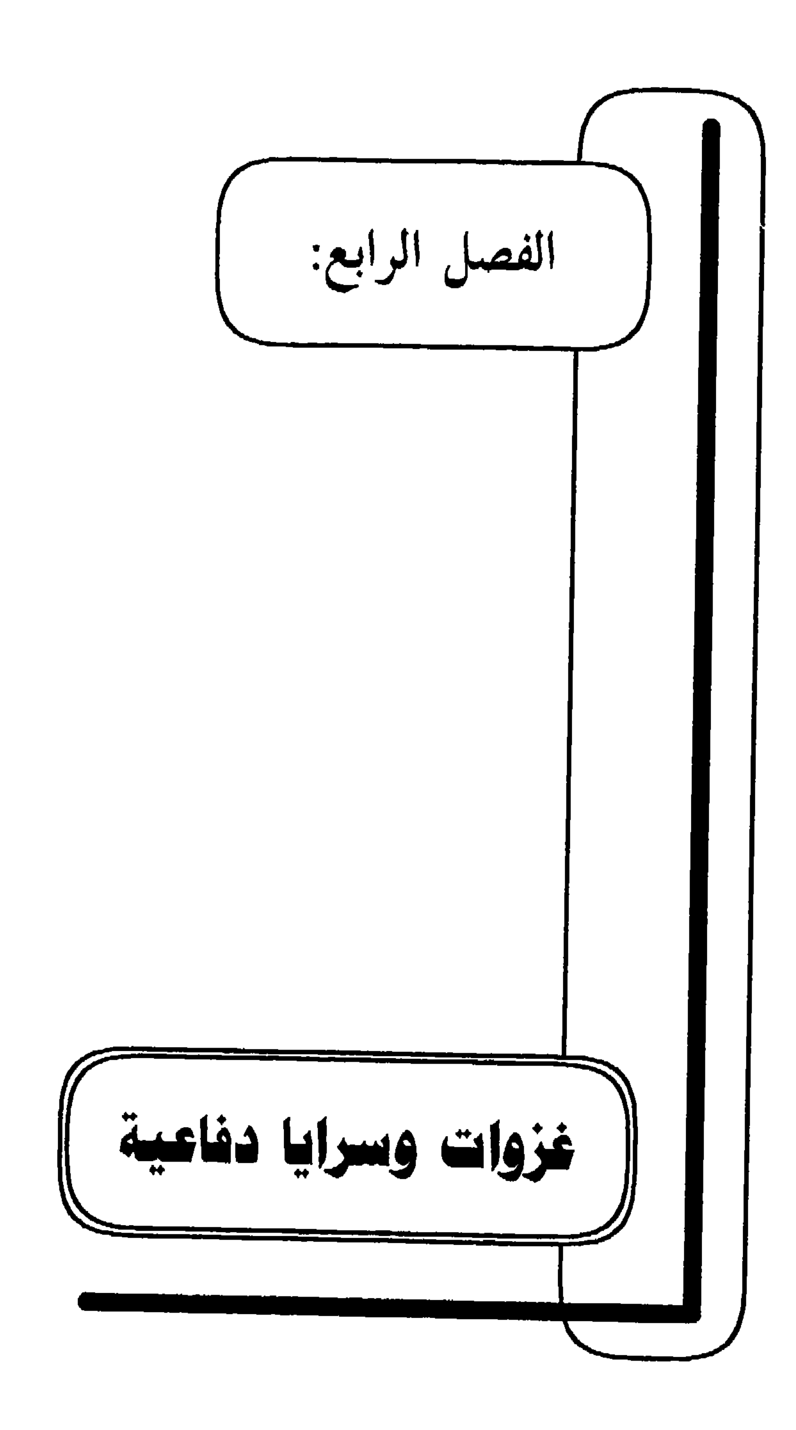
الطبعة الرابعة
١٩٩٥م - ١٤١٥هـ

دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع

تلفون وفاكس: ٨٣٤٢٦٥ - ٣١٧٤٢٥ - تلكس: MCS٢٠٧٧٧-٢٢٥٩٧ بلاغ.
ص.ب: ٢٥/٢٨٦ غبيري - بيروت - لبنان.



دار السيرة - بيروت لبنان - ص.ب: ٢٥/٤٩



الفصل الرابع:

غزوات وسرايا دفاعية



الفصل الرابع: سرايا وغزوات دفاعية ٧

غزوات وسرايا :

هناك سرايا وغزوات حصلت بين المسلمين و المشركين، وأخرى كانت بين المسلمين واليهود. ونحن نشير هنا إلى كلا النوعين، فنقول:

أما بالنسبة لما كان بين المسلمين وغير اليهود، فنشير إلى:

غزوات لبني سليم وغطفان :

١ ـ **يقول المؤرخون**: إن النبي (ص) غزا بنفسه بني سليم بعد بدر بسبع ليالٍ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، أو سباع بن عرفطة؛ فلما بلغ ماء من مياههم يقال له: الكدر، أقام (ص) هناك ثلاث ليالٍ، ثم رجع إلى المدينة، ولم يلق كيداً، وكان يحمل لواءه أمير المؤمنين «عليه السلام»، وكان اللواء أبيض اللون.

ويبدو أن هذه هي نفس الغزوة التي يقال لها: «غزوة قرقرة الكدر». وسببها أنه قد بلغه (ص): أن جمعاً من بني سليم وغطفان بقرقرة الكدر (والظاهر أنهم كانوا ينوون غزو المدينة) فسار إليهم في مائتين من أصحابه. فغنم منهم خمسمائة بعير، فخمّسها، وقسم الباقي على أصحابه. ووقع غلام اسمه يسار في سهمه؛ فأسلم، ورآه النبي (ص) يصلي، فأعتقه. وقال الواقدي: إن قرقرة الكدر كانت في المحرم سنة ثلاث[1].

---

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢١١ / ٢١٢، وراجع ص ٢٠٥ ومصادر ذلك كثيرة فراجع =

٢ ـ ويقول الدمياطي: إن غزوة بني سليم هي نفس غزوة بحران، حيث بلغه: أن جمعاً كثيراً من بني سليم كانوا في بحران؛ فخرج إليهم في ثلاثمائة من أصحابه، لست خلون من جمادى الأولى سنة ثلاث، ولم يظهر وجهاً للسير؛ فرجع ولم يلق كيداً[1].

غزوة السويق :

وبعد رجوعه (ص) من غزوة قرقرة الكدر، أي في ذي الحجة من السنة الثانية أو الثالثة: كانت غزوة السويق، فبعد أن أصيبت قريش في بدر حلف أبو سفيان: أن لا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً (ص) وقال:

كرُّوا على يثرب وجمعهم ... فإن ما جمعوا لكم نفل
إن يك يوم القليب كان لهم ... فإن ما بعده لكم دول
آليت لا أقرب النساء ولا ... يمس رأسي وجلدي الغسل
حتى تبيدوا قبائل الأوس ... والخزرج إن الفؤاد يشتعل

فخرج في مائتي راكب من قريش ليبر بيمينه؛ وليثبت للناس: أن قريشاً لا تزال قادرة على التحرك، وأيضاً ليشد قلوب المهزومين في بدر.

فلما كان على بريد من المدينة (والبريد إثنا عشر ميلاً) نزل هناك، فاتصل ببعض بني النضيرمن اليهود، ثم أرسل بعض أصحابه إلى بعض نواحي المدينة؛ فحرقوا بعض النخل، ووجدوا رجلين فقتلوهما، وهما: معبد بن عمرو وحليف له، ثم انصرفوا راجعين؛ فنذر الناس بهم؛ فخرج

= كتب السيرة والتاريخ.

(١) راجع في هذه السرية: تاريخ الخميس ج ١ ص ٤١٦، والسيرة النبوية لدحلان (بهامش الحلبية) ج ٢ ص ١٨، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢١٣، والمواهب اللدنية ج ١ ص ٩١، والمغازي للواقدي ج ١ ص ١٩٦/ ١٩٧.

(ص) في طلبهم لخمس خلون من ذي الحجة، وجعل أبو سفيان وأصحابه يلقون بجرب السويق[١] تخففاً للهرب؛ فجعل المسلمون يأخذونه، ولم يدركهم المسلمون، فعادوا إلى المدينة بعد خمسة أيام[٢].

قال العلّامة الحسني: «وانقلب فرار أبي سفيان عليه خزياً وعاراً، بعد أن كان يظن أن غزوته هذه ترفع من شأنه، وتعيد إلى قريش شيئاً من مكانتها[٣]».

غزوة ذي أمر:

وفي أول سنة ثلاث، أو لإثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الأول، كانت غزوة ذي أمر، ولربما تكون هي غزوة غطفان. جمع فيها دعثور بن محارب في ذي أمر، جمعاً من بني ثعلبة بن محارب لحرب الرسول، أو ليصيبوا من أطراف المدينة، فخرج الرسول (ص) إليهم، وأصاب أصحابه (ص) رجلاً يقال له: جبار (أو حباب)؛ فأسلم، ودلّهم على الطريق إليهم؛ فسمعوا بمسير الرسول (ص)؛ فهربوا في رؤوس الجبال[٤].

ويذكر هنا: أنه أصاب الرسول (ص) مطر كثير؛ فنزع (ص) ثوبيه، ونشرهما على شجرة، واضطجع بمرأى من المشركين. واشتغل المسلمون في شؤونهم، فنزل إليه دعثور (زعيم المشركين الغطفانيين) حتى وقف على رأسه، ثم قال: من يمنعك مني اليوم؟ فقال (ص): الله.

---

(١) السويق: قمح أو شعير يغلى ثم يطحن ليسفّ إما بماء، أو عسل، أو لبن.

(٢) راجع فيما تقدم: تاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ١٧٥ ـ ١٧٧، وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤١٠ و ٤١١، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢١١ وغير ذلك.

(٣) سيرة المصطفى ص ٣٨٢.

(٤) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢١٢، والمغازي للواقدي ج ١ ص ١٩٤، والمواهب اللدنية ج ١ ص ٩١.

ودفع جبريل في صدره، فوقع على ظهره، ووقع السيف من يده، فأخذ النبي (ص) السيف، وقال له: من يمنعك مني؟ قال: لا أحد، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله. فأعطاه (ص) سيفه؛ فرجع إلى قومه، وجعل يدعوهم للإسلام. ونزلت هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم، إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم﴾[1] الآية.

ولعل هذه هي نفس غزوة ذي القصة، التي يقال: إنها في المحرم سنة ٣ هـ. كما يظهر من المقارنة بينهما.

سريّة القردة:

وفي جمادى الأولى، في السنة الثالثة، كانت غزوة القردة، وكان أميرها زيد بن حارثة، في أول إمارة له. وذلك: أن نعيم بن مسعود قدم المدينة مشركاً، فشرب الخمر مع بعض أصحابه، وذلك قبل تحريم الخمر (مع أننا قد قلنا فيما سبق: أن الخمر كانت قد حرمت في مكة)، وأخبرهم بالعير[2].

وذلك: أن قريشاً قالت: «قد عوّر علينا محمد متجرنا، وهو على طريقنا».

وقال أبو سفيان، وصفوان بن أمية: إن أقمنا بمكة أكلنا رؤوس

---

(١) سورة المائدة الآية رقم: ١١، وراجع في قضية دعثور تاريخ الخميس ج ١ ص ٤١٥، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢١٣، والسيرة النبوية لدحلان (بهامش الحلبية) ج ٢ ص ١٨، والمواهب اللدنية ج ١ ص ٩١، والبداية والنهاية ج ٤ ص ٢، والمغازي للواقدي ج ١ ص ١٩٥، ودلائل النبوة للبيهقي ط دار الكتب العلمية ج ٣ ص ١٦٨ و ١٦٩.

(٢) البداية والنهاية ج ٤ ص ٥، والمغازي للواقدي ج ١ ص ١٩٨.

أموالنا .

فاتفقوا بعد بدر على العدول عن طريقهم المعتاد إلى الشام، وسلوك طريق العراق، فخرج جماعة فيهم صفوان، وأبو سفيان في تجارة أكثرها من الفضة. فبعث (ص) إليهم زيداً، فلقيهم على ماء يقال له: «القردة»؛ فأصاب العير وما فيها؛ وأعجزه الرجال، ورجع بالغنيمة إلى الرسول (ص)، فخمّسها، فبلغ الخمس عشرين ألفاً، وقسم الباقي للسرية[١].

وقفات مع ما تقدم :

ألف : الأعمى، والقضاء:

بالنسبة لإستخلاف ابن أم مكتوم على المدينة في غزوة بني سليم، وغيرها: نشير إلى ما ذكره البعض من أن رواية أبي داود تقول: إنه إنما استخلفه على الصلاة؛ لأنه ضرير، لا يجوز له الحكم بين الناس في القضايا والأحكام؛ لأنه لا يدرك الأشخاص، ولا يثبت الأعيان، ولا يدري لمن الحكم، وعلى من يحكم[٢].

ولكننا لا نرتضي هذا الكلام، وذلك لما يلي:

١ ـ إن تولّي ابن أم مكتوم للمدينة لا يعني إصداره الأحكام وتولّيه منصب القضاء، لأن من الممكن حلّ مشاكل الناس بطريقة الصلح بين المتخاصمين، أو على أن يكون قاضي تحكيم يرضى بحكمه الخصمان،

---

(١) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤١٦، والبداية والنهاية ج ٤ ص ٥، والمغازي للواقدي ج ١ ص ١٩٨، والكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٤٥، وتاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ١٨٢.

(٢) راجع: السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٠٥.

خصوصاً بملاحظة قصر فترة غيابه (ص) عن المدينة في سفراته تلك، أو بأن يوكل من له صلاحية القضاء بين الناس، ويكون هو الوالي العام الحافظ للنظام، والمنفذ لتلك الأحكام.

٢ ـ إن القول بأن المراد من تولّي ابن أم مكتوم المدينة من قبل النبي (ص) هو تولّيه خصوص الصلاة بعيد جداً، وهو لا ينسجم مع إطلاق عباراتهم، مثل قولهم: «إستخلفه على المدينة» أو «ولاّه المدينة» أو نحو ذلك، خصوصاً إذا لاحظنا: أنه (ص) قد استخلفه عليها إثنتي عشرة مرة، أو أكثر.

٣ ـ إن الإستدلال على عدم جواز تولّي الأعمى للقضاء بما ذكر، مدفوع بأن طريق معرفة الأشخاص والأعيان لا ينحصر بالنظر والرؤية؛ فيمكنه إثبات ذلك بالشهود، أو بالإقرار، أو بغير ذلك من وسائل. وليكن نفس توليته (ص) لابن أم مكتوم (لو ثبت كون القضاء داخلاً في ولايته) إثنتي عشرة مرة، دليلاً على جواز تولّي الأعمى للقضاء.

ب : من أهداف تلك السرايا والغزوات:

إن العرب قد رأوا: أن النبي الذي خرج بالأمس إلى المدينة لاجئاً، لا قوة له، قد أصبح هو وأصحابه يقفون في وجه قريش، ويُجْلون اليهود ـ كما سنرى ـ، ويرسلون السرايا تتهدد المسالك، ويقتلون، ويأسرون.

وعرفوا: أن ثمة قوة يجب أن يحسب لها حسابها، ولابد من التفكير ملياً قبل الإقدام على أي عمل تجاهها في المنطقة. ولكن الغرور كان يستولي على بعض تلك القبائل، إلى حدّ التفكير في الدخول في حرب مع النبي (ص)، على حدّ تعبير البعض[1].

---

(١) سيرة المصطفى ص ٣٨٣.

فكان (ص) يبادر إلى الهجوم، بمجرد أن يعرف: أنهم قد جمعوا واستعدوا له، أو أنهم يستعدون للإغارة على أطراف المدينة، أو بعد حصول الإغارة والإفساد منهم، الأمر الذي يدلنا على أن تلك الغزوات والسرايا كانت وقائية بالدرجة الأولى، وتستهدف أموراً:

١ ـ إفشال مؤامرات الأعداء، وردّ كيدهم إلى نحورهم.

٢ ـ إن ذلك منه (ص) كان يمثل حرباً نفسية للمشركين؛ إذ ما غزي قوم في عقر دارهم إلا ذلّوا، خصوصاً إذا كان إنكسارهم بعد التعبئة الكاملة والشاملة منهم لحرب هذه الفئة بالذات.

فإذا كانت هزيمتهم على يده (ص)، وفي عقر دارهم، وفي أوج قدرتهم واستعدادهم؛ فسوف تتحطم معنوياتهم، ويجعلهم ذلك في المستقبل مضطرين لأن يتريثوا كثيراً، قبل أن يقرروا أي موقف لهم تجاهه. وهذا مصداق آخر لكونه «صلى الله عليه وآله وسلم» قد نصر بالرعب.

٣ ـ ثم هناك الصدى والتأثير الإعلامي في المنطقة، وعلى قريش بالذات؛ فإذا انهزم المشركون في المنطقة وقريش روحياً ونفسياً، فإن هزيمتهم العسكرية سوف تكون أسهل وأيسر، وقد سئل أمير المؤمنين «عليه السلام»: بأي شيء غلبت الأقران؟

فقال: «ما لقيت رجلاً إلا أعانني على نفسه».

قال الرضي: يومىء بذلك إلى تمكن هيبته في القلوب[1].

ج: العتق، والصلاة:

يلاحظ: أن الرسول الأعظم «صلى الله عليه وآله وسلم» قد أعتق

---

(١) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده، قسم الحكم، رقم ٣١٨.

الغلام يساراً، حيث رآه يصلي. وقد رأينا في الحديث أن الإمام السجاد «عليه السلام» كان يعتق مواليه بعد أن يذكرهم بذنوبهم[١]. كما أنه قد أعتق غلاماً له، لأنه أكل كسرة خبز كان قد أعطاه إياها، حين وجدها ملقاة[٢].

ورأينا أيضاً أن الإمام الحسن (ع) رأى غلاماً يطعم كلباً، فاشتراه من سيده، وأعتقه[٣].

وعن أبي البلاد، قال: قرأت عتق أبي عبد الله «عليه السلام»: هذا ما أعتق جعفر بن محمد، أعتق فلاناً غلامه لوجه الله، لا يريد منه جزاءً ولا شكوراً، على أن يقيم الصلاة، ويؤدي الزكاة، ويحج البيت، ويصوم شهر رمضان، ويتولى أولياء الله، ويتبرأ من أعداء الله. شهد فلان، وفلان، وفلان[٤].

ولعل سرّ عتقهم (ع) لهم في هذه المناسبات، ولا سيما في مناسبة الصلاة يعود إلى: أن العتق في مناسبة كهذه يهدف إلى ربطهم بالصلاة، ودفعهم إلى الإلتزام بها، ولا سيما حينما تطرح كقضية حاسمة في أسعد لحظات حياتهم، اللحظات التي ينالون فيها حريتهم، التي هي في الحقيقة عنوان هويتهم ووجودهم. وهذا ما سوف يدفعهم لاكتشاف واقع وحقيقة الصلاة، ثم التفاعل معها بشكل جدي وعميق، ولتكون من ثمّ سبباً في تكاملهم الإنساني، وسعيهم إلى الإلتزام بسائر التعاليم الأخلاقية والإنسانية الإسلامية.

---

(١) البحار ج ٤٦ ص ١٠٣، وإقبال الأعمال.

(٢) تاريخ جرجان ص ٤١٨.

(٣) البحار ج ٤٤ ص ١٩٤، ومناقب آل أبي طالب ج ٤ ص ٧٥.

(٤) مستدرك سفينة البحار ج ٧ ص ٧٨، والبحار ج ٤٧ ص ٤٤.

كما أن ذلك يجعل هذا الإنسان يرى في شخصية النبي (ص) مثلاً جديداً للإنسان الهادف، الذي يعيش من أجل هدفه، ويفنى فيه بكل ما لهذه الكلمة من معنى. ويعرفه: أنه لا يهدف إلى استعباد أحد، ولا يمكن أن يكون ذلك هدفاً له، وإنما هدفه الأسمى هو إعلاء كلمة الله تعالى فقط، وفقط. كل ذلك تحت شعار: أن من يصبح عبداً لله بحق، فهو جدير بالحرية حقاً.

وكذلك الحال كان بالنسبة لما قدمناه عن الإمام الحسن، والإمام السجاد عليهما الصلاة والسلام، وقد أشرت إلى هذا الموضوع في مقال مستقل، فمن أراده فليراجعه[1].

د: التورية بالغزوات:

لقد رأينا أيضاً: أنه (ص) في غزوة بحران لم يظهر وجهاً للسير، وذلك لا يختص بهذه الغزوة! إذ قد كان من عادته (ص): أنه إذا أراد غزوة ورّى بغيرها[2].

ومعنى ذلك: هو أنه (ص) أراد تفويت الفرصة على عيون العدو وجواسيسه، إن كان له ثمة عيون وجواسيس، وعلى المنافقين الذين يوادّون من حادّ الله ورسوله، وكذلك على اليهود الذين كانوا لا يألون جهداً، ولا يدّخرون وسعاً في مساعدة أعدائه ضدّه، ولا أقل من أنهم كانوا يهتمون في أن يفوته أعداؤه، ولا يتمكن من الظفر بهم.

وأسلوب إخفاء أمره (ص) في فتح مكة كان رائعاً جداً. ولسوف

---

(١) البحث هو بعنوان: «الإمام السجاد باعث الإسلام من جديد» في كتابنا: «دراسات وبحوث في التاريخ والإسلام ج ١ ص ٧٧.

(٢) المصنف ج ٥ ص ٣٩٨، والمنتقى لإبن تيمية ج ٢ ص ٧٦٥.

يأتي التعرض له في موضعه من هذا الكتاب، إن شاء الله تعالى.

هـ : قريش في مواجهة الأخطار:

إن سرية زيد بن حارثة للاستيلاء على قوافل قريش قد جاءت في سياق السياسة القاضية بالمحاصرة الإقتصادية لقريش وباسترجاع الأموال التي تمالأ المشركون على حرمان المسلمين منها؛ حيث اضطروهم إلى ترك أوطانهم، وديارهم، وأموالهم، والهجرة إلى موضع يجدون فيه الحرية، والأمن.

وقد سمعنا كلام صفوان، وأبي سفيان، الذي يوضح لنا: أن قريشاً قد أصبحت تعتبر حربها مع النبي والمسلمين حرباً مصيرية، ومعركتها معه معركة حياة أو موت.

ولم يكن ذلك ليخفى على النبي (ص)، فكان دائماً على استعداد لكل طارىء، ويتتبع كل تحركات العدو بدقة متناهية، وقد طوّقهم من جميع الجهات تقريباً.

ويكفي أن نذكر هنا قول صفوان بن أمية لقريش:

«إن محمداً وأصحابه قد عوروا علينا متجرنا؛ فما ندري كيف نصنع بأصحابه. وهم لا يبرحون الساحل. وأهل الساحل قد وادعوهم؛ فما ندري أين نسكن. وإن أقمنا في دارنا هذه أكلنا رؤوس أموالنا، فلم يكن لنا بقاء. وحياتنا بمكة تقوم على التجارة إلى الشام في الصيف، وإلى الحبشة في الشتاء»[1].

و : مناقشة قضية دعثور:

وأما قصة دعثور مع الرسول الأعظم «صلى الله عليه وآله وسلم»؛

---

(١) مغازي الواقدي ج ١ ص ١٩٧.

فإننا وإن كنا لا نستبعد وقوعها. . . ولكن قولهم: إن آية: ﴿إذ همّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم﴾ إلخ[1] قد نزلت في هذه المناسبة. لا يصح. وذلك:

أولاً : إنه إذا كان المراد: أن الآية قد نزلت مباشرة حين وقوع قضية دعثور، كما هو ظاهر التفريع بالفاء. فيرد عليه أن الآية في سورة المائدة، وهي قد نزلت في أواخر حياته (ص) مرة واحدة. وغزوة ذي أمر كانت ـ كما يقولون ـ في أوائل السنة الثالثة للهجرة.

ومن غير المعقول: أن يحتفظ (ص) بآيات تبقى معلقة في الهواء ـ إلى عدة سنوات ـ، ثم يجعلها في سورة نزلت حديثاً.

وثانياً : إن الآية تذكر:

١ ـ أن «قوماً» قد همّوا بأن يبسطوا أيديهم إلى المسلمين، ودعثور شخص واحد، ولم نعهد إطلاق كلمة «قوم» على الواحد.

وقول البعض: إن قوله تعالى: ﴿لا يسخر قوم من قوم﴾، يشمل سخرية فرد من فرد.

لا يصح؛ لأنه إنما يشمله بالملاك، لا بالظهور اللفظي، والآية التي نحن بصددها إنما هي إخبار عن حادث وقع، وليس فيها شمول ملاكي، كما هو ظاهر.

إلا أن يقال: إن نسبة ذلك إلى القوم باعتبار رضاهم بفعل دعثور هذا وهو كما ترى.

٢ ـ ومن جهة أخرى فإنها قد عبّرت عن النبي (ص) بضمير الجمع، ولم نعهد التعبير عن الرجل الواحد بضمير الجمع إلا في مقام التعظيم،

---

(١) سورة المائدة الآية رقم: ١١.

وبضرب من التجوز. وهو هنا يمتنّ على المسلمين جميعاً بأن الله قد صرف عنهم من همّوا ببسط أيديهم إليهم، ولو كان المقصود هو النبي فقط، فلماذا يعبر عنه بضمائر الجمع؟

وقد يجاب عن ذلك: بأن ذهابه (ص)، وفقده، يكون سبباً لذهابهم وتشتّتهم، وضعفهم، وبسط اليد إليه بسط لها إليهم؛ لأنه قائدهم، وبه قوام اجتماعهم.

إلا أن يقال: إن ذلك خلاف المفهوم من الآية، وفيه نوع من التجوز والإدّعاء؛ فلا يعتمد عليه إلا بدليل.

وثالثاً: قال العلامة الحسني: «وموضع التساؤل في هذه القصة: أن النبي (ص) هل كان ينفرد عن أصحابه في غزواته؟! وهل يتركه أصحابه وحيداً في تلك الفلاة، والمشركون على مقربة منهم؟! وهب أنه ذهب إلى الشجرة ليجفف ثيابه من المطر، ولكن كيف تركه ذلك الجيش المؤلف من (٤٥٠) مقاتلاً؟ وخفي عليهم ذلك الرجل الذي تحدّر من الجبل لإغتياله، وهو بعيد عن أصحابه إلخ؟ . . .»[1].

ويمكن المناقشة في هذا بأن النبي (ص) قد تخلّف عن الجيش الراجع من غزوة بدر ليمرض علياً «عليه السلام» كما تقدم في موضعه.

إلا أن يقال: إنه في بدر قد تخلّف في موضع أمن، لا في موضع مخافة.

وأما الإيراد على ذلك بأن النبي (ص) قد تخلّف في بعض غزواته، ليسابق زوجته عائشة[2] فهو لا يصح، لأننا نعتقد أنها مجرد قصص مختلقة

(١) سيرة المصطفى ص ٣٨٤.

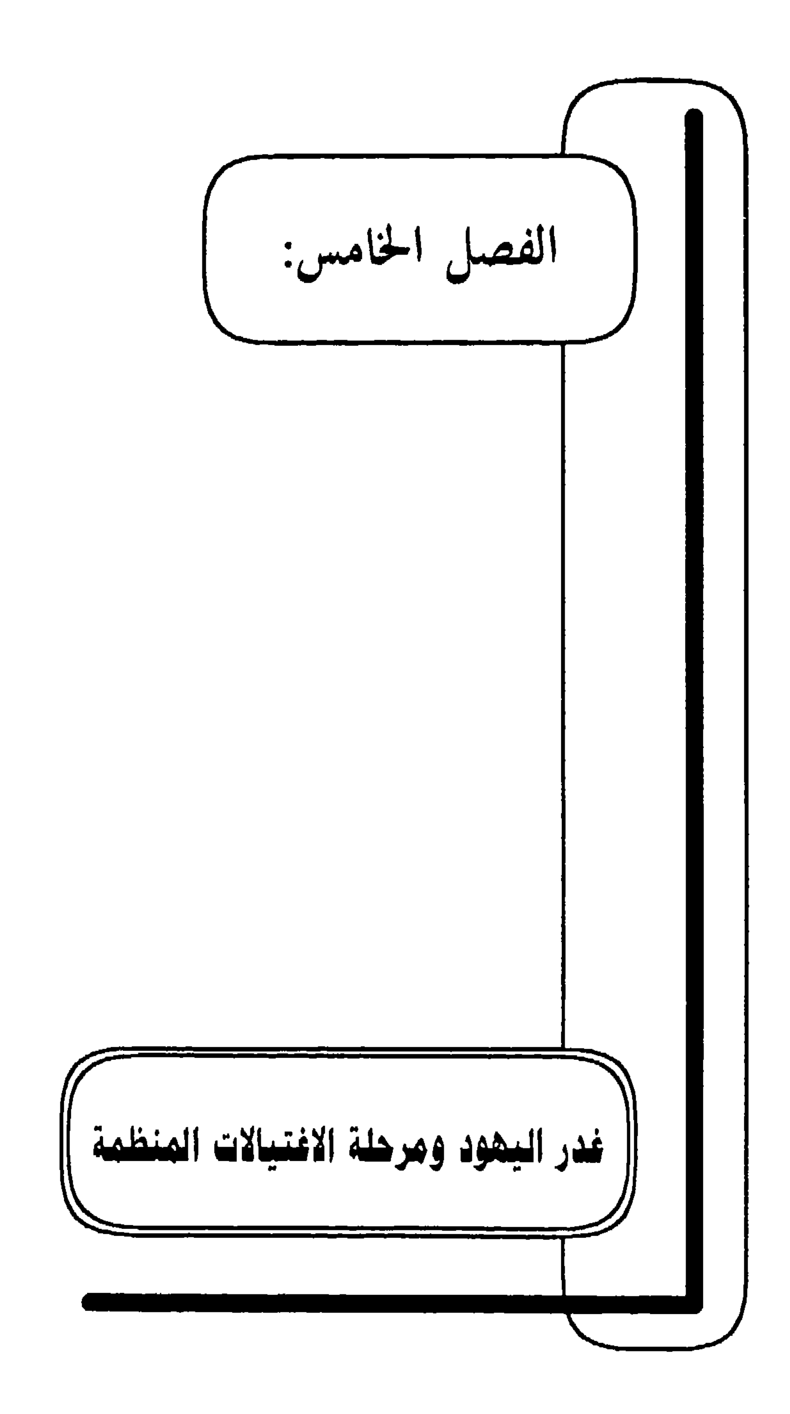
(٢) راجع: صفة الصفوة ج ١ ص ١٧٦ عن أحمد، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٩٠، ومغازي الواقدي ج ٢ ص ٤٢٧، وسنن أبي داود ج ٣ ص ٣٠ وعن النسائي وابن ماجة.

وخيالية، لا أساس لها من الصحة كماسيأتي .

وخلاصة الأمر: إن تخلّف النبي عن جيشه إلى مكان قريب، ليجفف ثوبه، مع الإحساس بالأمن، ليس بالأمر المستهجن، ولا النادر الوقوع. لا سيما إذا كان يريد حاجة يطلب فيها الستر عن أعين الناس. وقد كان أفراد الجيش ينفصلون عن الجيش قليلاً لقضاء بعض حاجاتهم.

ولعل الآية قد نزلت فيمن يهم الرواة إبعاد التهمة عنهم، فلفّقوا هذه المناسبة لإبعاد الشبهة عمن يحبون.





الفصل الخامس:

غدر اليهود ومرحلة الاغتيالات المنظمة



مع عقائد اليهود و آثارها:

قبـل أن نبدأ بـالحـديث عن العمليـات العسكـريـة التي جـرت بين المسلمين واليهـود فيما بين بـدر وأحد، نـود أن نشير بـاختصـار إلى بعض عقـائد اليهـود، ثم إلى بعض ما يـرتبط بمواقفهم وخـططهـم، ومؤامـراتهم على الإسلام، وعلى المسلمين، فنقول:

١ ـ عنصـرية اليهـود: اليهود شعب عنصـري، مؤمن بتفوق عنصـره على البشـر كافـة. والناس عنـدهم لا قيمة لهم ولا اعتبـار، وإنمـا خلقـوا لخـدمـة الإسـرائيليين وحسب. فكـل النـاس إذن يجب أن يكـونـوا في خدمتهم، وتحت سلطتهم، كما يقول لهم تلمودهم.

فقد جاء في التلمود ما ملخصه: أن الإسرائيلي معتبـر عند الله أكثـر من الملائكة. وأن اليهودي جزء من الله. ومن ضرب يهوديـاً فكأنـه ضرب العزة الإلهية. والشعب المختـار هم اليهود فقط، وأمـا باقي الشعـوب فهم حيوانات. ويعتبر اليهود غير اليهود أعداء لهم، ولا يجيز التلمـود أن يشفق اليهـود على أعدائهم. ويُلزِم التلمـود الإسرائيليين بـأن يكـونـوا دنسين مع الـدنسين، . ويمنع من تحيـة غيـر اليهـودي إلا أن يخشـوا ضـررهم، ولا يجيزون الصدقة على غير اليهودي. ويجوز لهم سـرقة مـاله، وغشـه، كما أن على الأمميين أن يعملوا، ولليهود أن يأخذوا نتاج هذا العمل.

ويجيز التلمود التعـدّي على عرض الأجنبي، لأن المـرأة إن لم تكن

يهودية فهي كالبهيمة. ولليهودي الحق في اغتصاب غير اليهوديات.

ولا يجوز لليهودي الشفقة على غيره. ويحرم على اليهودي أن ينجي غيره[1] إلى آخر ما هنالك، مما لا يمكن الإحاطة به في هذه المناسبة.

نعم، هذه هي نظرة اليهود لغيرهم، وهذه هي حقيقة ما يبيّتونه تجاه كل من هو غير يهودي. وقد نعى الله تعالى عليهم هذه النظرة السيئة، فقال:

﴿وقالت اليهود والنصارى: نحن أبناء الله وأحباؤه، قل: فلم يعذبكم الله بذنوبكم؟ بل أنتم بشر ممن خلق، يغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء﴾[2].

فهو يؤكد لهم: أنهم كغيرهم من الخلق، يعذبهم الله بذنوبهم، ولا فضل لهم على غيرهم؛ لأن التفاضل إنما هو بالتقوى والعمل الصالح.

٢ ـ اليهود وحب الحياة الدنيا: واليهودي أيضاً يؤمن بالمادة، ويرتبط بها بكل وجوده وطاقاته، فهو يحب المال وجمعه حباً جماً، وهو يعيش من أجله، ويعمل في سبيله بكل ما أوتي من قوة وحول؛ فهو من أجل المادة ولد، وفي سبيلها عاش ويعيش، وعلى حبها سوف يموت.

ولأجل ذلك فلا ينبغي أن نستغرب إذا رأينا: أن ارتباطهم بالناس مصلحي ونفعي، وأن المال واللذة هما المنطق الوحيد لهم في كل موقف، والمقياس للحق وللباطل عندهم.

---

(١) راجع: الكنز المرصود ص ٤٨ ـ ١٠٦، ومقارنة الأديان (اليهودية) لأحمد شلبي ص ٢٧٢ ـ ٢٧٤ عنه وعن: التلمود شريعة بني إسرائيل ٢٢ ـ ٢٥ و ٤٠ ـ ٤٤ و ٦٥.

(٢) المائدة: ١٨.

ولا يجب أن نعجب أيضاً إذا رأينا: أن الشيوعية، وهي التفكير الداعي إلى اعتبار المادة هي أساس الكون والحياة، وهي المحرك، والمنطلق، وهي الغاية، وإليها ستكون النهاية، وهي المعيار والمقياس الذي لابد وأن يهيمن على كل شؤون الحياة والإنسان والكون، وكل نظمه وقوانينه، وعلاقاته. نعم، لا عجب إذا رأينا: أن هذا التفكير يبدأ من اليهود، وإليهم ينتهي[1].

٣ ـ أكثر اليهود لا يؤمنون بالبعث:

واليهودي يكره الموت، وهو يتمنى لو يعمَّر ألف سنة، قال تعالى: **﴿ولتجدنهم أحرص الناس على حياة[2]، ومن الذين أشركوا، يود أحدهم لو يعمر ألف سنة﴾**[3].

ولعل سر ذلك يعود إلى أن توراة اليهود المحرفة الحاضرة لم تشر بشكل واضح إلى البعث والقيامة، وإنما ورد حديث عن الأرض السفلى، والجب التي يهوى إليها العصاة، ولا يعودون **«وإن الذي ينزل إلى الهاوية لا يصعد»**.

ويقول البعض: إن الكتاب المقدس نفسه يعد الحياة الدنيا وحدها هي عالم الإنسان، وليس هناك اعتقاد بعد ذلك في بعث وجنة أو نار؛ وثوابهم وعقابهم مقصوران على الحياة الدنيا.

---

(١) الخطر اليهودي ص ٦٧ وفيه: أن أعضاء المجلس الشيوعي الذي كان يحكم روسيا سنة ١٩٥١ كان يتألف من سبعة عشر عضواً كلهم يهود صرحاء باستثناء ثلاثة هم: ستالين، وفيرشيلوف، ومولوتوف. وهؤلاء الثلاثة زوجاتهم يهوديات، وفيهم يهودي الأم، أو الجدة، أو صنيعة مجهول النسب من صنائع اليهود، كما أن المنظر الأكبر للشيوعية هو اليهودي كارل ماركس.

(٢) تنكير (الحياة) للتحقير، أي مهما كانت تافهة وحقيرة.

(٣) البقرة: ٩٦.

وعلى العموم، فإن فكرة البعث لم تجد لها أرضاً خصبة لدى اليهود، وقد حاول بعض طائفة الفريسيين القول بها، ولكن هذه المحاولة لقيت معارضة شديدة، أما باقي الفرق اليهودية، فلم تعرف عنها شيئاً.

وإذا كان الإنسان لا يعتقد بالبعث، ويؤمن بأن الجزاء ليس إلا في هذه الدنيا، فمن الطبيعي أن يسعى إلى المنكرات واقتراف الآثام[١].

ملاحظة:

هذا، وقد تفاقم فيهم حبهم للدنيا حتى بلغ بهم الحرص عليها: أن حرمهم من الإستفادة من الأموال التي يجمعونها، ، فتجد الكثيرين منهم يعيشون في دناءة من العيش وفيهم شح كبير، ولؤم وبخل ظاهر، وخسة لا يحسدون عليها. هذا إلى جانب إهمال الكثير منهم جانب النظافة المطلوبة، كما يظهر لمن سَبَر أحوالهم، وعاش في بيئتهم.

ويعتقد اليهود: أن الله سيغفر لهم كل ما يرتكبونه من جرائم وعظائم. وهذا ما يشجعهم على الفساد والإنحراف، والإمعان في المنكرات والجرائم.

وقد رد الله تعالى على عقيدتهم هذه[٢]، حينما قال: **﴿وقطعناهم في الأرض أمماً، منهم الصالحون، ومنهم دون ذلك، وبلوناهم بالحسنات والسيئات، لعلهم يرجعون. فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب، يأخذون عرض هذا الأدنى، ويقولون: سيُغفر لنا. وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه، ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب: أن لا يقولوا على الله إلا الحق، ودرسوا ما فيه؟ والدار الآخرة خير للذين يتقون؛ أفلا**

---

(١) راجع: أحكامهم هذه في كتاب، مقارنة الأديان (اليهودية) ص ١٩٩ و ٢٠٠، واليهود في القرآن ص ٣٧.

(٢) اليهود في القرآن ٤٤/ ٤٥.

تعقلون؟﴾[١].

٣ ـ وبعد ما تقدم، وبعد أن كان اليهودي لا يعتقد بالآخـرة، فإن من الـطبيعي أن يكـون اليهـود شعباً جبانـاً، لأنـه يخشى المـوت، ويـرهب الأخطار، لأنه يرى بالموت نهايته الحقيقية[٢]. ومن طبع الجبان أن يتعامل مع خصومه بأساليب المكر والخداع، والغدر والخيانة بالدرجة الأولى.

من أسباب عداء اليهود للاسلام:

ونشير هنا إلى أننا نلاحظ: أن اليهود بدأوا يحاربون الإسلام من أول يوم ظهوره، وكانوا وما زالوا يحقـدون عليه، رغم أنهم كـانوا أول من بشـر بظهور النبي الأعظم «صلى الله عليه وآلـه وسلّم»، مستندين في بشـاراتهم تلك إلى الدلائل القاطعة التي يجدونها في كتبهم. ونستـطيع أن نـذكر من أسباب عدائهم للمسلمين وللإسلام:

١ ـ إنهم قد وجدوا أن هذا النبي يدعو الناس إلى دين هو نظام كامل وشامل للحياة؛ وأن هذا الدين قد جاء بنظام اقتصـادي متكامـل ومتوازن؛ واهتم بمحاربة الربا، والإحتكـار، وجميع أنـواع وأشكال استغـلال إنسان لإنسان آخر؛ وجعل في أموال الناس حقاً معلومـاً للسائـل والمحروم، فلم ينسجم ذلك مع أطماعهم، ومع ما ألفوه وأحبـوه، بل رأوه يتنـافى مع تلك الأطمـاع ومـع أهـدافهم ومصـالحهـم، ومـع نـظرتهم للكـون، وللحيـاة، والإنسان.

٢ ـ والـذي زاد من حنقهم وحقـدهم: أنهم كـانـوا يـأملون أن يتم

---

(١) الأعراف: ١٦٨/ ١٦٩.

(٢) ويلاحظ: أن العرب في هذه الأيام يجبنون عن مواجهة اليهود في حرب الكرامة والشرف، لماذا؟ أليس لأجل ابتعادهم عن دينهم واستسلامهم لانحرافاتهم، وحبهم للحياة، وقلة يقينهم بالموت والمعاد.

القضاء على هذا الدين من قبل قومه القرشيين، ومن معهم من ذؤبان العرب، دون أن يكلّفهم ذلك أية خسائر؛ خصوصاً في الأرواح، فرضوا بالمعاهدة التي سلف ذكرها. ولكن فألهم قد خاب، فها هو الإسلام يزداد قوة، واتساعاً ونفوذاً، يوماً عن يوم. وها هو يسجل في بدر العظمى أروع البطولات، وأعظم الإنتصارات، فلم يعد يقرّ لهم قرار، أو يطيب لهم عيش، إذ كان لابد ـ بنظرهم ـ من القضاء على هذا الدين قبل أن يعظم خطره ويكتسح المنطقة، ويضرى بهم إعصاره الهادر.

٣ ـ وزاد في حنقهم وقلقهم: أنهم رأوا النبي (ص) والمسلمين معه، كما أنهم لا يُخْدَعُون، ولا يؤخذون بالمكر والحيلة، كذلك هم لا يستسلمون للضغوط، ولا تثنيهم المصاعب والمشقات مهما عظمت. وكلما زاد الإسلام اتساعاً كلما زاد الطموح لدى المسلمين، والضعف لدى خصومهم، إذن، فلابد من اهتبال الفرصة، ومناهضة هذا الدين، والقضاء عليه بالسرعة الممكنة.

٤ ـ ويقول الجاحظ: «إن اليهود كانوا جيران المسلمين بيثرب وغيرها؛ وعداوة الجيران شبيهة بعداوة الأقارب، في شدة التمكن وثبات الحقد، وإنما يعادي الإنسان من يعرف، ويميل على من يرى، ويناقض من يشاكل، ويبدو له عيوب من يخالط، وعلى قدر الحب والقرب يكون البغض والبعد، ولذلك كانت حروب الجيران وبني الأعمام من سائر الناس وسائر العرب أطول، وعداوتهم أشد.

فلما صار المهاجرون لليهود جيرانا، وقد كانت الأنصار متقدمة الجوار، مشاركة في الدار، حسدتهم اليهود على نعمة الدين، والإجتماع بعد الإفتراق، والتواصل بعد التقاطع إلخ»[1].

---

(١) ثلاث رسائل للجاحظ (رسالة الرد على النصارى) ص ١٣/ ١٤ نشر يوشع فنكل سنة ١٣٨٢ هـ.

٥ ـ ثم هناك حسدهم للعرب أن يكون النبي الذي تَعِد به توراتهم منهم، وليس إسرائيلياً، وقد أشار إلى ذلك تعالى فقال:

﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به؛ فلعنة الله على الكافرين. بئسما اشتروا به أنفسهم: أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده، فباؤا بغضب على غضب، وللكافرين عذاب مهين﴾[١].

ولعل هذا هو السر في أنهم ـ حسبما يقوله البعض ـ حينما طلب النبي (ص) منهم أن يدخلوا في الإسلام امتعضوا، وأخذوا يخاصمون رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلّم»[٢].

٦ ـ لقد عز عليهم وأرهبهم: ما رأوه من قدرة الإسلام على توحيد أهل المدينة: الأوس والخزرج، الذين كانوا إلى هذا الوقت أعداء يسفك بعضهم دماء بعض، قال تعالى: ﴿وألف بين قلوبهم، لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم، ولكن الله ألف بينهم، إنه عزيز حكيم﴾[٣].

٧ ـ ثم إنهم قد رأوا: أن هذا الدين يبطل مزاعمهم، ويقضي على اليهودية، وعلى أحلام بني أسرائيل وقد أبطل أسطورتهم في دعواهم التفوق العلمي، وأظهر كذبهم في موارد كثيرة، وتبين لهم: أن الإسلام يعلو ولا يُعلى عليه.

أضف إلى ذلك: أنه قد ظهر أن نبي الإسلام أفضل من موسى «عليه

---

(١) البقرة: ٨٩ ـ ٩٠.

(٢) راجع: اليهود في القرآن ص ٢٣.

(٣) الأنفال: ٦٣.

السلام»، ومن سائر الأنبياء. وأصبحوا يرون الناس يؤمنون بدين جديد، هو غير اليهودية، وهم يقولون: لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم[1].

وفوق ذلك كله، فإن الإسلام يرفض إعطاء الإمتيازات على أساس عرقي، وهو يساوي بينهم وبين غيرهم، وهذا ذنب آخر لا يمكن لهم الإغماض عنه بسهولة.

اليهود في مواجهة الاسلام:

لقد حاول اليهود مواجهة المد الإسلامي الكاسح بكل ما لديهم من قوة وحول. ونذكر هنا بعض ما يرتبط بالأساليب والطرق التي حاولوا الإستفادة منها في هذا السبيل، من دون ملاحظة الترتيب بينها، لا سيما وأن بعضها متداخل في الأكثر مع بعض، فنقول:

١ ـ قد أشار الجاحظ إلى أنهم: «شبّهوا على العوام، واستمالوا الضعفة، ومالأوا الأعداء والحسدة، ثم جاوزوا الطعن، وإدخال الشبهة إلخ»[2].

نعم، لقد حاولوا تشكيك العوام، وضعاف النفوس بالإسلام، وكانوا يرجحون لهم البقاء على الشرك، كما فعله كعب بن الأشرف، حينما سأله مشركوا مكة عن الدين الأفضل، كما ألمحنا إليه فيما سبق.

بالإضافة إلى ممالأتهم للذين وترهم الإسلام، أو وقف في وجه مطامعهم وطموحاتهم اللامشروعة واللاإنسانية. ونذكر مثلاً على ذلك: ما جاء في الروايات من أن الناس يعتبرون: أن من علامات الحق: أن لا يرجع عنه من يقتنع به، فإذا رجع عنه فلابدّ أن يكون ذلك لأجل أنه وجد فيه ضعفاً، أو نقصاً، ولذلك نجد ملك الروم يسأل أبا سفيان أحد ألدّ

---

(١) آل عمران: ٧٣.

(٢) ثلاث رسائل للجاحظ (رسالة الرد على النصارى) ص ١٤.

أعداء محمد (ص): «هل يرجع عن الإسلام من دخل فيه؟ فقال أبو سفيان: لا».

وقد حاول اليهود أن يتبعوا نفس هذا الأسلوب. وقد حكى الله تعالى عنهم هذا الأمر، فقال: **﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب: آمنوا بالذي أُنزِلَ على الذين آمنوا وجه النهار، واكفروا آخره، لعلهم يرجعون﴾**[1].

٢ ـ طرح الأسئلة الإمتحانية على النبي (ص) بهدف تعجيزه.

ويلاحظ: أن هذه المحاولات كانت تبذل من قبل مختلف قبائل اليهود: قريظة، النضير، قينقاع، ثعلبة إلخ. ولكن محاولاتهم هذه قد باءت بالفشل الذريع. بل لقد ساهم ذلك بشكل فعال في تجّلي ووضوح تعاليم الإسلام، وترسيخها، وقد دفعهم فشلهم هذا إلى أن يطلبوا من النبي (ص): أن يأتيهم بكتاب من السماء: **﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء، فقد سألوا موسى أكبر من ذلك، فقالوا: أرنا الله جهرة﴾**[2].

ثم تمادوا في العناد واللجاج، إلى ما هو أبعد من ذلك، قال تعالى: **﴿وقال الذين لا يعلمون: لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية، كذلك قال الذين لا يعلمون من قبلهم مثل قولهم، تشابهت قلوبهم﴾**[3] الآية.

فإن سياق الآيات ظاهر في أن اليهود هم الذين قالوا ذلك.

٣ ـ ولما فشلوا في محاولاتهم محاربة الإسلام على صعيد الفكر، اتجهوا نحو أسلوب الضغط الإقتصادي على المسلمين؛ فيذكرون: أن

---

(١) آل عمران: ٧٢، وليراجع كتاب: اليهود في القرآن ص ٣١، فإنه أشار أيضاً إلى هذا الأمر.

(٢) النساء: ١٥٣.

(٣) البقرة: ١١٨.

رجالاً من أهل الجاهلية باعوا يهوداً بضاعة، ثم أسلموا وطلبوا من اليهود دفع الثمن فقالوا: ليس علينا أمانة، ولا قضاء عندنا؛ لأنكم تركتم دينكم الذي كنت عليه، وادّعوا: أنهم وجدوا ذلك في كتابهم.

فجاء في الآية المباركة الرد عليهم: **﴿ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤدّه إليك، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك، إلا ما دمت عليه قائماً، ذلك بأنهم قالوا: ليس علينا في الأميين سبيل، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾**(١).

وأيضاً فقد رفض رؤساء اليهود أن يقرضوا المسلمين مالاً في أول عهدهم في المدينة، وقد كانوا في ضنك شديد، فالمهاجرون فقراء لا مال لهم، والذين دخلوا في الإسلام من أهل المدينة لم يكونوا على سعة من الرزق.

وقد أجابوا رسول الله حينما طلب منهم القرض بقولهم: أحتاج ربكم أن نُمِدَّه؟ فنزل قوله تعالى: **﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا: إن الله فقير ونحن أغنياء، سنكتب ما قالوا﴾**(٢).

٤ ـ ممالأة أعداء الإسلام ومساعدتهم بكل ما أمكنهم، ولو بالتجسس، وبغير ذلك من وسائل.

٥ـ محاربة الإسلام أيضاً: عن طريق إثارة الفتن بين المسلمين، ولا سيما بين الأوس والخزرج، وبين المسلمين والمشركين.

ونذكر هنا على سبيل المثال قضية شاس بن قيس، الذي حاول تذكير الأوس والخزرج بأيام الجاهلية، وإثارة الإحن القديمة في نفوسهم؛ فتثاور الفريقان، حتى تواعدوا أن يجتمعوا في الظاهرة لتصفية الحسابات،

---

(١) آل عمران: ٧٥.

(٢) آل عمران: ١٨١ راجع في ذلك: اليهود في القرآن ص ٢٨.

وتنادوا بالسلاح، وخرجوا، وكادت الحرب أن تقع بينهما؛ فبلغ الخبر رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلّم»؛ فخرج إليهم بمن كان معه من أصحابه المهاجرين؛ فوعظهم؛ فأدركوا أنها نزعة من الشيطان، وكيد من عدوهم، فندموا على ما كان منهم، وتعانق الفريقان وتصافيا، وانصرفوا مع رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلّم».

ويقول البعض: إن الآيات الشريفة التالية قد نزلت في هذه المناسبة: **﴿قل: يا أهل الكتاب، لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا، وأنتم شهداء، وما الله بغافل عما تعملون. يا أيها الذين آمنوا، إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردّوكم بعد إيمانكم كافرين. وكيف تكفرون، وأنتم تُتلى عليكم آيات الله، وفيكم رسوله، ومن يعتصم بالله، فقد هدي إلى صراط مستقيم﴾**[1].

٦ ـ تآمرهم على حياة النبي الأعظم «صلى الله عليه وآله وسلّم» وتحريضهم الناس عليه كما سنرى، إن شاء الله تعالى.

٧ ـ محاولات إثارة البلبلة، وتشويش الأوضاع، بإشاعة الأكاذيب، وتخويف ضعاف النفوس من المسلمين.

٨ ـ تآمرهم مع المنافقين على الإسلام، ومكرهم معهم بالمسلمين، ثم علاقاتهم المشبوهة مع قريش، وممالأتهم إياها على حرب الرسول الأكرم (ص).

٩ ـ تآمرهم ومكرهم وتدبيرهم لمنع المسلمين من الخروج للحرب، وكانوا يجتمعون في بيت سويلم اليهودي، لأجل تثبيط الناس عن الرسول (ص) في غزوة تبوك، فعرف رسول الله (ص) بهم فأحرق البيت عليهم[2].

---

(١) آل عمران: ٩٩ـ١٠١.

(٢) السيرة النبوية لإبن هشام ج ٤ ص ١٦٠، والتراتيب الإدارية ج ١ ص ٣٠٩.

وقد رجع عبد الله بن أبي، حليف يهود بني قينقاع في ثلاثمائة رجل من أصحابه، وذلك في حرب أحد، كما سنرى إن شاء الله تعالى.

موقف النبي (ص) من اليهود:

ولكن جميع محاولات اليهود للكيد للإسلام والمسلمين، باءت بالفشل الذريع، بسبب وعي القيادة الإسلامية العليا.

ولقد صبر الرسول الأعظم «صلى الله عليه وآله وسلّم» على مخالفاتهم الكبيرة تلك، تفادياً لحرب أهلية قاسية في مقره الجديد.. حتى طفح الكيل، وبلغ السيل الزبى، وعرف المسلمون: أن اليهود كانوا ـ بزعمهم ـ يستغلون ظروف المسلمين ومشاكلهم، ويصعّدون من تحدياتهم لهم. وأصبحوا في الحقيقة هم الخطر الداهم والحقيقي الذي يتهدد وجود الإسلام من الأساس.

لا سيما وأن هذا العدو الماكر والحاقد يعيش في قلب المجتمع الإسلامي، ويعرف كل مواقع الضعف والقوة فيه، ويتربص به الدوائر، ويترصد الفرصة المؤاتية.

فكان لابد من صياغة التعامل مع هذا العدو على أساس الحزم والعدل، بدلاً من العفو والتسامح والرفق، فليس من الصالح أن يترك اليهود يعيشون في الأرض فساداً، وينقضون كل العهود والمواثيق، ويسددون ضرباتهم للمسلمين كيف وأنى شاءوا، بل لابد من الرد الحاسم والحازم والعادل على كل اعتداء، ومواجهة كل مكيدة، قبل أن يكون الندم حيث لا ينفع الندم.

العمليات العسكرية في مرحلتين:

وبعد أن اتضح نقض اليهود لكل العهود والمواثيق، حاول الإسلام

أن يتعامل معهم على مرحلتين:

الأولى : أن يتبع معهم أسلوب الإنذار الحازم والعادل، فكانت عمليات القتل المنظمة لبعض الأفراد، بمثابة جزاء عادل لناقضي العهود، الذين يشكلون خطراً جدياً على صعيد استقرار المنطقة.

كما وكانت بمثابة إطلاق صفارة الإنذار لكل من ينقض عهداً، ويتآمر على مصلحة الإسلام العليا، مع إعطائهم الفرصة للتفكير، وإفهامهم أن الإسلام يمكن أن يتحمل، ولكنه ليس على استعداد لأن يقبل بوضع كهذا إلى النهاية، لا سيما إذا كان ذلك على حساب وجوده وبقائه.

الثانية : الحرب الشاملة والمصيرية، حيث لا يمكن حسم مادة الفساد بغير الحرب. ونحن نتكلم عن هاتين المرحلتين، كلا على حدة في الصفحات التالية.

الاغتيالات المنظمة :

١ ـ قتل أبي عفك:

كان الرسول الأعظم «صلى الله عليه وآله» قد عاهد اليهود على الموادعة، وعدم تعرُّض أي من الفريقين للآخر.

ولكن سرايا المسلمين في المنطقة، وما تبع ذلك من إجراءات على صعيد بناء المجتمع الجديد وتقويته، قد زاد من قوة المسلمين، ورفع من معنوياتهم، وجعل منهم قوة لها خطرها؛ مع أنه لم يمض بعد عامان على قدومهم كلاجئين، يبحثون عن مأوى وملجأ وملاذ. إذن، فلابد ـ برأي اليهود ـ من تطويق هذا الخطر، والحد من هذا النفوذ قبل فوات الأوان؛ حتى يتسنى لليهود الإستمرار في الإحتفاظ بالتفوق السياسي والإقتصادي في المنطقة.

وقد بدأت محاولات اليهود في هذا السبيل من أوائل الهجرة، وقبل حرب بدر، ثم كانت حرب بدر ونتائجها المذهلة، فزاد ذلك من مخاوف اليهود، والمشركين، والمنافقين على حد سواء، فصعّدوا من نشاطاتهم، وتحدياتهم بشكل ملحوظ كما سنرى.

وقد بدأ اليهود قبل بدر بالتحريض على الرسول الأعظم «صلى الله عليه وآله» والمسلمين، والتعرض لهم بمختلف أنواع الأذى، فكان (أبو عفك) اليهودي يحرض على رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلّم»، ويقول فيه الشعر؛ فنذر سالم بن عمير أن يقتله، أو يموت دونه؛ فذهب إليه فقتله[1].

ويبدو أن قتله كان قبل حرب بدر، كما سيظهر من العبارات التالية:

٢ ـ قتل العصماء بنت مروان:

فلما قتل أبو عفك، تأففت العصماء بنت مروان (وهي من بني أمية بن زيد، وزوجة يزيد الخطمي) من قتله، فصارت تعيب الإسلام وأهله، وتؤنب الأنصار على اتباعهم رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وتقول الشعر في هجوه (ص)، وتُحرِّض عليه، واستمرت على ذلك إلى ما بعد بدر.

فجاءها عمير بن عوف ليلاً لخمس بقين من شهر رمضان المبارك، فوجدها نائمة بين ولدها، وهي ترضع ولدها ـ وعمير ضعيف البصر ـ فجسّها بيده؛ فوجد الصبي على ثديها يرضع، فنحاه عنها، ثم وضع سيفه في صدرها حتى أخرجه من ظهرها، ثم ذهب إلى النبي «صلى الله عليه وآله وسلّم»، فقال له (ص): أقتلت ابنة مروان؟

---

(١) راجع: تأريخ الخميس ج ١ ص ٤٠٨، والمغازي للواقدي ج ١ ص ١٧٤ و ١٧٥.

قال: نعم.

قال (ص): لا ينتطح فيها عنزان. أي لا يعارض فيها معارض[1].

هكذا زعم المؤرخون: وان كنا نشك في صحة ذ لك، إذ لايعقل ان ينحي ولدها عنها ولا تلتفت إليه، وتبقى ساكنة ساكته، حتى يضع سيفه في صدرها.

هذا، قد جاء في شواهد النبوة: أن عمير بن عدي الخطمي سمع أبياتها التي قالتها حين كان النبي «صلى الله عليه وآله وسلّم» في بدر، والتي قالتها في ذم الإسلام والمسلمين، وكان ضريراً؛ فنذر: لئن ردّ الله رسوله سالماً من بدر ليقتلنّها. ففي ليلة قدومه (ص) ذهب إليها عمير فقتلها؛ فلما رآه النبي (ص) قال له: أقتلت ابنة مروان؟ قال: نعم.

فأقبل «صلى الله عليه وآله وسلّم» على الناس، وقال: «من أحب أن ينظر إلى رجل كان في نصرة الله ورسوله؛ فلينظر إلى عمير بن عدي».

فقال عمر: إلى هذا الأعمى؟ بات في طاعة الله ورسوله!!.

فقال النبي (ص): مه يا عمر، فإنه بصير، أو كما قال[2].

ورجع عمير إلى قومه من بني خطمة؛ فقال لهم: يا بني خطمة، أنا قتلت إبنة مروان، فكيدوني جميعاً، ولا تُنظِرون.

فذلك أول ما عزّ الإسلام في دار بني خطمة، وكان من أسلم منهم يستخفي بإسلامه، ويومئذ أسلم رجال منهم بما رأوا من عزّ الإسلام[3].

---

(١) راجع ما تقدم في: تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٠٦ و٤٠٧، والمغازي للواقدي ج ١ ص ١٧٢ و١٧٣.

(٢) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٠٧ و٤٠٦ عن شواهد النبوة، والمغازي للواقدي ج ١ ص ١٧٢ و١٧٣.

(٣) راجع ما تقدم في المغازي للواقدي ج ١ ص ١٧٣ و١٧٤.

ولعل ما في شـواهد النبـوة من أن عميراً كـان أعمى، وقد جـاء هذا على لسـان عمر أيضـاً، قد جـاء على سبيل المبـالغة؛ لأنـه كـان ضعيف البصر بالفعل. فإن من الصعب على الضرير أن يقـوم بعملية كهـذه، وهي نائمة ليلاً بين ولدها.

إلا أن يقال: إنه إذا عرف مكانها الذي تنام فيه، فـإن بإمكـانه تمييـز الطفل عن غيره بواسطة تلمُّس أبدانهـم، كما هو صريح الرواية.

ولكنها ـ كما قلنا ـ تبقى عملية صعبة على الرجل الضريـر. ولذلـك فنحن نرجح طريقة المبالغة كما قلنا.

٣ ـ قتل كعب بن الأشرف:

قال الواقدي: إن قتل كعب بن الأشرف كان في ربيع الأول في سنة ثلاث.

وخلاصة ما جرى: أن اليهود كانوا يتوقعون: أن يستأصل المشركون شأفة المسلمين والإسلام، وكان لانتصار المسلمين في بدر وقـع الصاعقـة عليهم، وثارت ثائرتهم، وطاشت عقولهم.

قال ابن إسحاق: لمـا أصيب المشركـون في بدر؛ فبلغ ذلـك كعب بن الأشرف، وكَبُرَ عليه قَتل من قُتِل في بدر، وبكـاهـم، وهجا النبي (ص) وأصحـابه في شعـره، وكان يشبب بنسـاء المسلمين (وأضاف البعض[1]: نساء النبي (ص) أيضاً) حتى آذاهم[2].

---

(١) هو ابن سلام الجمحي في طبقات الشعراء ص ٧١.

(٢) راجع فيما تقدم: سيرة ابن إسحاق ص ٣١٧، والبداية والنهاية ج ٤ ص ٦، والمغازي ج ١ ص ١٨٥، ودلائل النبوة للبيهقي ط دار الكتب العلمية ج ٣ ص ١٨٨ و ١٩٠، وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤١٣، وتاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ١٧٨، والبحار ج ٢٠ ص ١٠، وطبقات الشعراء لإبن سلام ص ٧١.

فسار إلى مكة، وحرض على رسول الله (ص)، ولم يخرج من مكة حتى أجمع أمرهم على حرب رسول الله.

وسأله أبو سفيان: أديننا أحب إلى الله أم دين محمد وأصحابه؟، وأيّنا أهدى في رأيك، وأقرب إلى الحق: إنا لنطعم الجزور الكوماء، ونسقي اللبن على الماء، ونطعم ما هبت الشمال.

فقال له: أنتم أهدى منهم سبيلاً[1].

فلما عاد إلى المدينة، قال رسول الله (ص): من لي بابن الأشرف؟ فانتدب له محمد بن مسلمة، وقال: يا رسول الله، لابد لنا أن نقول. قال: قولوا ما بدا لكم فأنتم في حل من ذلك.

فذهب إليه هو وأبو نائلة، أخو كعب من الرضاعة، وآخرون. فاجتمع به أبو نائلة، وأظهر له تبرّمه من الوضع المعيشي الذي نجم عن قدوم النبي (ص) إليهم، وطلب منه: أن يبيعه طعاماً في مقابل رهن، فطلب ابن الأشرف أن يرهنوه نساءهم، فرفض أبو نائلة، ثم طلب أبناءهم، فرفض أيضاً، وعرض عليه رهن السلاح، حتى لا ينكر كعب السلاح إذا جاء مع أصحابه؛ فقبل كعب.

ورجع المفاوض إلى جماعته، فجاء بهم، ومعهم السلاح، وشيعهم (ص) إلى بقيع الغرقد، ودعا لهم؛ فلما انتهوا إلى الحصن صاحوا به، فقالت له زوجته ـ وكان حديث عهد بعرس ـ أسمع صوتاً يقطر منه الدم. فقال لها كعب: إن أبا نائلة لو رآه نائماً ما أيقظه. ونزل إليهم، فأخذ أبو نائلة رأسه فشمه، وتعجب من طيبه، وكرّر ذلك حتى اطمأن كعب. ثم أخذ بفوديه، وقال: اضربوا عدوّ الله، فخبطوه بأسيافهم، وقتلوه، وجرح

---

(١) راجع: البداية والنهاية ج ٤ ص ٦، والسيرة النبوية لإبن كثير ج ٣ ص ١١، ودلائل النبوة للبيهقي ط دار الكتب العلمية ج ٣ ص ١٩١.

منهم بأسيافهم الحارث بن أوس بن معاذ، فَتَفَل (ص) على جرحه.

فأصبحوا وقد خافت يهود مما جرى لكعب «فليس بها يهودي إلا وهو خائف على نفسه[1]»، وذهبوا إلى رسول الله (ص)؛ فقالوا: قتل صاحبنا غيلة. فذكرهم النبي (ص) ما كان يهجوه في أشعاره ويؤذيه.

قال: ثم دعاهم النبي (ص) إلى أن يكتب بينه وبينهم صلحاً، قال: أحسبه قال: فذلك الكتاب مع علي[2].

وقال كعب بن مالك بهذه المناسبة أبياتاً منها:

فغودر منهم كعب صريعاً فذلت بعد مصرعه النضير[3]

قال العلامة الحسني: «ومع ذلك فلم يتراجعوا عن الدس والتحريض على المسلمين والتصدي لهم، والنيل من النبي (ص)، وطلب منهم النبي أن يكفوا عمّا هم عليه، وأن يلتزموا بالعهد الذي أعطوه على أنفسهم، حين دخوله المدينة، فلم يزدهم ذلك إلا عتواً وتمادياً في إيذاء المسلمين، ونشر الفساد، والنبي (ص) من جانبه يوصي المسلمين بالهدوء وضبط الأعصاب»[4].

---

(١) راجع جميع ما تقدم في المصادر التالية: سيرة ابن إسحاق ص٣١٧ ـ ٣١٩، والبداية والنهاية ج ٤ ص ٥ ـ ٨، والمغازي للواقدي ج ١ ص١٨٨ ـ ١٩١، ودلائل النبوة للبيهقي (ط دار الكتب العلمية) ج ٣ ص١٩٢ ـ ٢٠٠، وتاريخ الخميس ج ١ ص٤١٣ ـ ٤١٤، وتاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ١٧٩ و ١٨٠، والكامل في التاريخ ج ٢ ص١٤٣ و ١٤٤.

(٢) المصنف لعبد الرزاق ج ٥ ص ٢٠٤، وطبقات ابن سعد ج ٢ ص ٢٣، ودلائل النبوة للبيهقي ط دار الكتب العلمية ج ٣ ص١٩٨، وراجع: المغازي للواقدي ج ١ ص١٩٢، وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤١٤.

(٣) راجع: البداية والنهاية ج ٤ ص ٨.

(٤) سيرة المصطفى ص٣٧٨.

ولابد أن يكون ذلك ـ لو صح ـ باستثناء ناقضي العهد من الشخصيات الخطرة، التي كانت تحرض على الإسلام والمسلمين، وتشكل خطراً جدياً عليهم، كما يظهر مما يأتي:

ملاحظة: قد تقدم أن الكتاب الذي كتبه النبي (ص) بينه وبين اليهود قد كان مع علي «عليه السلام».

ونحن نستثير القارىء ليطرح سؤاله حول السر في أن يكون ذلك الكتاب عند علي «عليه السلام» دون غيره، فهل ذلك يشير إلى خصوصية لعلي (ع) بالنسبة إلى النبي (ص) في المجال السياسي، أو حتى فيما يرتبط بالإمامة من بعده (ص)؟!

٤ ـ قتل ابن سنينة:

ويذكر المؤرخون: أن رسول الله (ص) قال: من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه، فوثب محيصة بن مسعود على ابن سنينة اليهودي، فقتله، فقال له أخوه حويصة ـ ولم يكن قد أسلم بعد ـ: يا عدو الله قتلته؟! أما والله لرب شحم في بطنك من ماله.

فقال محيصة: لقد أمرني بقتله من لو أمرني بقتلك لقتلتك.

قال فوالله، إن كان لأول إسلام حويصة. فاستحلفه على ذلك؛ فحلف له فقال: إن ديناً بلغ بك ما أرى لعجب! ثم أسلم[1].

٥ ـ قتل أبي رافع:

---

(١) راجع: البداية والنهاية ج ٤ ص ٨، وسيرة ابن إسحاق ص ٣١٩ و ٣٢٠، ودلائل النبوة للبيهقي ط دار الكتب العلمية ج ٣ ص ٢٠٠، وتاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ١٨٠ و ١٨١.

وفي جمادى الآخرة من السنة الثالثة[١]، وقيل: سنة أربع[٢]. وعند البعض: بعد أحد من دون تعيين. كان قتل أبي رافع ابن الحقيق بخيبر، الذي كان يظاهر ابن الأشرف في معاداته للنبي (ص)، ويؤذي النبي (ص)، ويبغي عليه.

وذلك أنه: بعد قتل الأوس لابن الأشرف قالت الخزرج: والله لا يذهبون بها علينا عند رسول الله (ص)؛ فوقع اختيارهم على ابن الحقيق هذا، المعروف ببغيه وأذاه، والمظاهر لإبن الأشرف؛ فاستأذنوا رسول الله (ص) في قتله فأذن لهم.

فخرج إليه خمسة نفر أو ثمانية، عليهم عبد الله بن عتيك، فأتوا داره ليلاً، فأغلقوا أبوابه على أهله، وكان هو في عِلّيّة، فاستأذنوا عليه؛ بحجة: أنهم جاؤا يطلبون الميرة، فدخلوا عليه، وأغلقوا باب العلّية، فوجدوه على فراشه؛ فابتدروه، فصاحت المرأة؛ فأرادوا قتلها، ثم ذكروا نهي النبي (ص) عن قتل النساء والصبيان، فقتلوه، وخرجوا.

ولكنهم لم يطمئنوا إلى أنه قد مات؛ فأرسلوا أحدهم، فدخل بين الناس، وعرف الخبر منهم، ورجع إليهم فأخبرهم بهلاكه.

ثم رجعوا إلى النبي (ص)، واختلفوا فيمن قتله، فأخذ النبي (ص) أسيافهم، فرأى على سيف ابن أنيس أثر الطعام؛ فقال: هذا قتله[٣].

وأضاف ابن الأثير في روايته المفصلة: أن ابن عتيك وصل إلى

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ١٨٢، والكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٤٦.

(٢) تاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ١٨٣، والكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٤٨.

(٣) راجع: السيرة النبوية لإبن هشام ج ٣ ص ٢٨٧ و ٢٨٨، والكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٤٦ / ١٤٧، وتاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ١٨٤ و ١٨٥، والبحار ج ٢٠ ص ١٣.

غرفة أبي رافع المظلمة، فناداه، فأجابه، فضرب جهة الصوت، فصاح؛ فهرب ابن عتيك، ثم عاد إليه، فقال: ما هذا الصوت؛ فأجابه: أن رجلاً في البيت، فضرب نحو الصوت، فأثخنه، ثم وضع السيف في بطنه، حتى خرج من ظهره، ونزل من درج فوقع، فانكسرت ساقه؛ فعصبها بعمامة؛ ثم جلس عند الباب، ليعرف إن كان قد قتل حقاً، فسمع أول الفجر نعيه، فانطلق إلى أصحابه، ثم جاء إلى النبي (ص)، فمسح (ص) رجله، فكأنه لم يشتكها قط[1].

وقبل المضي في الحديث لابد من تسجيل النقاط التالية:

ألف: الإسلام قيد الفتك:

إنه ربما يتخيل: أن الإغتيالات المنظمة التي تحدثنا عنها لا تناسب ما ورد من أن الإسلام قيد الفتك، فلا يفتك مؤمن، حتى ليقال: إن هذا كان هو المانع لمسلم بن عقيل من قتل عبيد الله بن زياد في بيت هاني بن عروة[2].

---

(١) راجع: صحيح البخاري ج ٣ ص ١٢، وتاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٧٧، والطبقات الكبرى ج ٢ ص ٩١ ط صادر، ومجمع الزوائد ج ٦ ص ١٩٧ و١٩٨، والبحار ج ٢٠ ص ٣٠٢ و٣٠٣، وبهجة المحافل ج ١ ص ١٩٣، والمواهب اللدنية ج ١ ص ١٢٢ و١٢٣، وتاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ١٨٣، والكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٤٧ و١٤٨.

(٢) الجامع الصغير ج ١ ص ١٢٤ عن البخاري في التاريخ، وأبي داود ومستدرك الحاكم ومسند أحمد ومسلم وكنوز الحقائق بهامش الجامع الصغير ج ١ ص ٩٦، ومستدرك الحاكم ج ٤ ص ٣٥٢، ومسند أحمد ج ١ ص ١٦٦ و١٦٧، ومنتخب كنز العمال بهامش المسند ج ١ ص ٥٧، ومقتل الحسين للخوارزمي ج ١ ص ٢٠٢ فصل ١٠، ومناقب ابن شهرآشوب ج ٢ ص ٣١٨، ومقتل الحسين للمقرم ص ١٧١، والكامل لإبن الأثير ج ٤ ص ٢٧، وتاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٧١، =

ولكن الحقيقة هي: أنه لا منافاة بين ما ذكر؛ فإن المقصود بالفتك هو القتل غدراً لمن يكون منك في أمن من ناحيتك. والغدر أعم من الفتك.

وثمة رواية تفيد: أن الفتك لا يجوز إلا بإذن الإمام، وقد حكم على من فتك بشاتمي أمير المؤمنين «عليه السلام» أن يذبح كبشاً. ولو أنه قتلهم بإذن الإمام لم يكن عليه شيء[1]. وذلك لأن الفتك لو شاع لانعدم الأمن، وسلبت الراحة من كل أحد.

وقد كان عبيد الله بن زياد في بيت هاني بن عروة يرى نفسه في أمن من ناحيتهم، ولم يكن ثمة إعلان حرب فيما بينه وبينهم، إنما كان ثمة إرهاصات بالحرب فيما بينه وبين الحسين «عليه السلام»، ولم يكن ذلك قد اتضح بصورة تامة في ذلك الحين.

وليس الأمر بالنسبة لليهود كذلك، لأنهم كانوا قد عاهدوا النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله وسلّم»: أن لا يحاربوه ولا يظاهروا عليه عدوه. وهؤلاء هم الذين آذوا المسلمين، وهجوهم، وحرضوا المشركين عليهم، وناحوا على قتلى بدر، بل ذهب ابن الأشرف إلى مكة للتحريض عليهم، وشبب بالنساء المسلمات، وحتى بنساء رسول الله (ص) إلى آخر ما تقدم.

إذن فقد صار هؤلاء من أظهر مصاديق «المحاربين»، وناقضي العهود، ولا بأس بالإحتيال على المحارب لقتله؛ فإن «الحرب خدعة»[2].

= والبحار ج ٤٤ ص ٣٤٤، وعن وقايع الأيام عن الشهاب في الحكم والآداب ولا بأس بمراجعة مشكل الآثار ج ١ ص ٧٨.

(١) التهذيب للشيخ الطوسي ج ١٠ ص ٢١٣/ ٢١٤، والكافي ج ٧ ص ٣٧٦.

(٢) المنتقى ج ٢ ص ٧٦٥، والتهذيب للشيخ الطوسي ج ٦ ص ١٦٢ و٢١٦٣، =

وقد كان «صلى الله عليه وآله وسلّم» إذا أراد غزوة ورّى بغيرها[1]، كما أنـه (ص) قد أجـاز لهم أن يقولـوا مـا شـاءوا، حينمـا ذهبـوا إلى قتـل ابن الأشـرف، وذلك لأن شـر هذا المحـارب وفساده في الأرض، ووقـوفه في وجـه كلمة الله، وإقـامة العـدل والحق، أعظم من أي قـول يقولـونه، وأي أسلوب يتبعونه.

وأخيراً، فهل يشك أحد في أن من يكـون في ساحـة الحرب، فـإن لعدوه أن يختله من خلفه، ويتخلص منه؟!. ومن كان محـارباً، فليس لـه أن يأمن عدوه، وينام قرير العين، فارغ البال!

ويـدل على ما قلنـاه: أن نفس امرأة كعب بن الأشـرف قد حـذرته، وقالت له: «إنك امرؤ محـارب، إن صاحب الحـرب لا ينزل في مثـل هذه الساعة»!!

= والمعجم الصغير ج ١ ص ٣٠ و١٧، والوسائل ج ١١ ص ١٠٢ و١٠٣، والكافي ج ٧ ص ٤٦٠، والبحار (ط بيروت) ج ٩٧ ص ٢٧ وج ٢٠ ص ٢٠٧، وصحيح البخاري ج ٤ ص ١٢٦ وج ٢ ص ١١٢، ومسند أحمد ج ١ ص ٨١ و٩٠ و١١٣ و١٣١ و١٣٤ و١٢٦ وج ٢ ص ٢١٤ و٣١٢ وج ٣ ص ٢٢٤ و٢٩٧ و٣٠٨ وج ٦ ص ٣٨٧، ومستدرك الوسائل ج ١١ ص ١٠٣ ط مؤسسة آل البيت، وتفسير القمي ج ٢ ص ٦٠، ومن لا يحضره الفقيه ج ٤ ص ٣٧٨ منشورات جماعة المدرسين، وسنن ابن ماجة ج ٢ ص ٩٤٥ و٩٤٦ وص ٩٥٠، وصحيح مسلم ج ٥ ص ١٤٣، وسنن أبي داود ج ٣ ص ٤٣ وأحكام القرآن للجصاص ج ٣ ص ٤٠٠، والجامع الصحيح للترمذي ج ٤ ص ١٩٣ و١٩٤، وسنن سعيد بن منصور، القسم الثاني من المجلد الثالث ص ٣١٧، ومسند أبي يعلى ج ١٣ ص ٤٨٢ وج ٤ ص ٩١ و٣٨٤ وج ٣ ص ٣٥٩ و٤٦٤ وج ١ ص ٣٨٢ و٤٢٣ وج ١٢ ص ١٣٠ وج ٨ ص ٤٤، ومواضع أخرى أشار إليها في الهامش وإلى مصادر كثيرة أيضاً.

(١) راجع سنن الدارمي ج ٢ ص ٢١٩، ومعاني الأخبار للصدوق ص ٣٦٥ و٣٦٦، =

ومما يدل على ذلك أيضاً: أنهم قد احتاجوا إلى تجديد العهد الذي نقضوه، وكتابة عهد آخر كان عند علي أمير المؤمنين، وصي النبي ووارثه، صلوات الله وسلامه عليه[1].

جريمة معاوية:

وبعد ما تقدم، فإننا نجد معاوية يحاول ـ كعادته ـ أن ينتقص رسول الله (ص)، ويُظهر ابن الأشرف على أنه قد قتل مظلوماً؛ فعن عباية، قال: ذكر قتل كعب بن الأشرف عند معاوية، فقال: كان قتل غدراً. فقال محمد بن مسلمة: يا معاوية أيغدر عندك رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلّم»؟ لا يظلني وإياك سقف بيت أبداً[2].

وحسبنا هنا أن نقول عن معاوية، ومواقفه، ومخزياته: وكلّ إناء بالذي فيه ينضح.

= والبحار (ط بيروت) ج ٧٢ ص ٣٩٦ وج ٢١ ص ٢٤٠ و ٢٤١، والتفسير المنسوب للعسكري (ع) ص ٢٣٢، وصحيح البخاري ج ٢ ص ١٠٥، والسنن الكبرى ج ٩ ص ١٥٠، ونيل الأوطار ج ٨ ص ٥٦، والمغازي للواقدي ج ٣ ص ٩٩٠، وصحيح مسلم ج ٨ ص ١٠٦، وسنن أبي داود ج ٣ ص ٤٣، والطبقات الكبرى لإبن سعد ج ٢ ص ١٦٧ ط صادر، وتاريخ الإسلام للذهبي (المغازي) ص ٥٤٢، ومسند أحمد ج ٣ ص ٤٥٦ و٤٥٧ وج ٦ ص ٣٨٧، والسيرة النبوية لإبن هشام ج ٤ ص ١٥٩، وتاريخ الخميس ج ٢ ص ١٢٣، وتهذيب تاريخ دمشق ج ١ ص ١١٠.

(١) المصنف للصنعاني ج ٥ ص ٢٠٤، والطبقات الكبرى ج ٢ ص ٢٣، ودلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ١٩٨ ط دار الكتب العلمية، وراجع: المغازي للواقدي ج ١ ص ١٩٢، وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤١٤.

(٢) مشكل الآثار ج ١ ص ٧٧.

ب : رعب اليهود:

إن عمليات قتل هؤلاء الأفراد، التي نظمت، ونفذت ببراعة فائقة، وذكاء وعبقرية، قد أرعبت اليهود، وأخافتهم، ولا سيما بعد قتل ابن الأشرف الغادر، حتى إنه «ليس بها يهودي إلا وهو خائف على نفسه». وحتى قال كعب بن مالك:

فغودر منهم كعب صريعاً فذلت بعد مصرعه النضير

وقد كان يهود بني النضير أعزّ من بني قريظة، وغيرهم، ممن كان لا يزال في تلك المنطقة. وكان لهذه الضربة فيهم أثر هام في رعب سائر اليهود آنئذ.

وأصبح القضاء على من يغدر من اليهود أسهل وأيسر، فالمسلمون يملكون الجرأة الكافية، واليهود أصبحوا خائفين على أنفسهم، والقضاء على الخائف المرعوب أسهل وأيسر من القضاء على غيره، وكان ذلك واحداً من مصاديق قوله «صلى الله عليه وآله»: «نصرت بالرعب». وذلك أمر طبيعي بالنسبة لمن لا يؤمن بالمعاد، ويعتقد أن جنته هي هذه الدنيا، وأنه إذا فقد حياته، فقد فقد كل شيء، حسبما ألمحنا إليه من قبل.

ج : مع موقف عمير في أصالته ونبله:

١ ـ يلاحظ: أن عمير بن وهب ينحّي ولد العصماء عن صدرها، ثم يقتلها.

وهذا يؤكد: على أن الإسلام قد ربى أتباعه على أنه ليس ضد الإنسان، وإنما هو ضد مواقفه وتصرفاته المنحرفة عن الحق، والعدل، والفطرة. فهو يريد فقط: أن يقضي على مصدر الخطر على الحق والفطرة. وحينما لا يبقى ثمة سبيل إلا القضاء على مصدر الفتنة؛ وحيث يكون آخر الدواء الكي؛ فإنه لابد أن يكتفى بالحد الأدنى، الذي يتحقق

فيه الهدف الأقصى، وهو إقامة الدين والحق.

٢ ـ ثم إننا لَنُكْبِرُ هذا التعقل النادر لعمير في موقف حرج وخطير كهذا، حتى إنه ليملك في هذه اللحظات الحساسة جداً أن يتخذ القرار الحاسم والمبدئي، وكما يريده الإسلام، بعيداً عن كل اضطراب وانفعال، لا سيما وهو ضرير، كما قيل، أو ضعيف البصر. نعم، إنه يتصرف بهدوء واطمئنان، ووعي، حتى في أحرج اللحظات، وأكثرها إثارة للأعصاب، وتشويشاً للحواس. ومثل ذلك يقال بالنسبة لامتناعهم عن قتل المرأة التي كادت تفضحهم بصياحها في قضية أبي رافع، حين تذكروا نهي النبي (ص) عن قتل النساء والصبيان.

وهذه هي الشخصية الإسلامية التي يريدها الإسلام، واستطاع أن يصدّر للعالم الكثير من النماذج الحية لها، من أمثال سلمان، وعمار، وأبي ذر، والمقداد، والأشتر، وفوق هؤلاء جميعاً سيدهم، وإمامهم، وأميرهم، أمير المؤمنين علي «عليه السلام»، والأئمة من ولده صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ويكفي أن نذكر مثالاً وقدوة لكل الأحرار، والذين يعيشون المبدأ بكل وجودهم: أن أمير المؤمنين «عليه السلام» حينما أراد أن يقتل عمرو بن عبد ودّ، فشتمه عمرو، وتفل في وجهه، قام عنه، حتى ذهب عنه غضبه، ثم عاد إليه فقتله، فعل ذلك ليكون قتله له خالصاً لله، لا يتدخل فيه عنصر حب الإنتقام لنفسه، وغضبه لها، ولو بشكل لا شعوري.

هذه من علاه إحدى المعالي وعلى هذه فقس ما سواها

٣ ـ ثم هناك رواية شواهد النبوة، التي تضيف: أن بعض الصحابة قد نَفَس على عمير هذا الوسام النبوي الذي ناله عن جدارة واستحقاق، ولم يستطع أن يخفي ذلك في نفسه، بل ظهر في فلتات لسانه بتعبير فيه شيء من الجفاء الجارح، دعا الرسول الأكرم «صلى الله عليه وآله وسلّم»

إلى محاولة حسم الموقف، ثم التلطيف والتخفيف من وقع تلك العبارة، ثم معاودة التأكيد على جدارة عمير، واستحقاقه للثناء، وعرفان حقه، بقوله(ص): «مه يا عمر، فإنه بصير».

٤ ـ وهناك أيضاً موقف آخر لعمير في قومه، الذي أدى إلى أن يعزّ الإسلام فيهم، ويسلم منهم رجال.

فإن في ثقة عمير بنفسه وبدينه، وصلابته في التعبير عن هذه الثقة، حتى لقد صرح لهم: أنه لم يعد يخشى أحداً على الإطلاق ـ إن في ذلك ـ ما يجعل كل من يتردّد في قبول الإسلام، بسبب خوفه، وضعف نفسه، يشعر بأن بإمكانه أن يجد في الإسلام نصيراً ومعيناً وحامياً له، ولم يعد ثمة ما يبرر موقفه السلبي منه. ولأجل هذا نجد: أن عدداً منهم يدخل في الإسلام، حينما شعر بعزّة الإسلام وبقوته في تلك القبيلة.

د : ابن الأشرف، وأبو سفيان:

وفي قضية ابن الأشرف يواجهنا سؤال أبي سفيان لكعب عن الدين الحق، ثم محاولة أبي سفيان الإستدلال على أحقية دينه بما تقدم، من أنهم يطعمون الجزور الكوماء، ويسقون اللبن على الماء إلخ.

ونحن هنا نسجل ما يلي:

١ ـ إن ذلك يؤيد ما قدمناه، من أن العرب كانوا يرون في اليهود مصدراً للمعرفة والثقافة.

وقد استقر ذلك في نفس عمر بن الخطاب، حتى إنه كان يأتي بترجمة التوراة إلى النبي (ص) حتى أظهر النبي (ص) انزعاجه من ذلك، حسبما قدمناه في مدخل هذه الدراسة، حين الكلام حول المرسوم العام، حيث قال النبي (ص) لعمر بن الخطاب: أمتهوكون أنتم؟!

هذا بالإضافة إلى أننا وإن كنا نكاد نطمئن إلى أن أبا سفيان لم يكن يجهل بأحقية دين الإسلام، وأنه من أجلى مصاديق قوله تعالى: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم﴾ وإنما هو يحارب الإسلام من أجل الحفاظ على مصالحه الشخصية، وامتيازاته غير المشروعة ولا المعقولة، التي كرّسها له ولأمثاله العرف الجاهلي الظالم والمنحرف.

إلا أننا نعتقد: أن أبا سفيان كان يهدف من سؤاله هذا لابن الأشرف اليهودي إلى خداع البسطاء والسذج من قومه وأتباعه، من أجل ضمان استمرارهم معه في حرب الإسلام والمسلمين، وجدّيتهم في ذلك.

٢ ـ **إننا نلاحظ**: أن كرم العرب هو أقصى ما استطاع أن يأتي به أبو سفيان كدليل على أحقية دينه. وقد تقدم في أوائل هذا الكتاب ما يرتبط بقيمة ما عرف عن العرب من ميزات وخصائص فلا نعيد.

هـ : تساؤل حائر:

إنهم يذكرون: أن النبي (ص) قد أعلن بشكل عام رغبته في قتل ابن الأشرف، فقال: من لي بابن الأشرف، فانتدب له محمد بن مسلمة. ثم يذكرون كيفية احتيالهم عليه، وقتلهم إياه.

ولكن السؤال هنا هو: كيف يعلن النبي (ص) ذلك، ثم لا يصل الخبر إلى مسامع ابن الأشرف عن طريق مشركي المدينة أو يهودها، أو على الأقل منافقيها؟!. وكيف جازت عليه حيلتهم بهذه السهولة، وهو يعلم: أنه محارب؟!.

وعن محمد بن مسلمة ودوره في قتل ابن الأشرف، تساورنا شكوك وشكوك، فإن من يراجع كتب السيرة يلاحظ: أن ثمة كثيراً من التركيز على دوره في هذه القضية، مع أن من يتأمل في وقائعها لا يجد له كبير أثر فيها، بل الدور الأكبر هو لأبي نائلة. وابن مسلمة لو كان معهم، فإنما كان كغيره

ممن حضر.

كما ويلاحظ: أن ثمة اهتماماً في إعطائه بعض الأدوار الهامة في الدفاع عن الإسلام، والدين. ونحن نشك في ذلك، ولا نستبعد أن يكون للسياسة يد في هذا الأمر، لإظهاره على أنه رجل شجاع، مناضل، مخلص إلخ. في مقابل الآخرين ممن تهتم السلطة بإيجاد بدائل لهم وعنهم، فإن محمد بن مسلمة كان ممن امتنع عن بيعة أمير المؤمنين «عليه السلام»[١].

وروي: أن علياً «عليه السلام» قال لعمار رحمه الله: «ذنبي إلى محمد بن مسلمة: أني قتلت أخاه يوم خيبر، مرحب اليهود»[٢] (ولعله كان أخا له من الرضاعة).

وفي شرح المعتزلي: أنه كان من المهاجمين لبيت فاطمة «عليها السلام»، وأنه هو الذي كسر سيف الزبير[٣] وكان أيضاً أحد ثقات الخليفة الثاني ومعتمديه، كما نص عليه البلاذري وغيره[٤].

كما أن عمر قد بعثه إلى الشام في مهمة قتل سعد بن عبادة كما يقول البعض[٥].

وقد عينه عمر لاقتصاص أخبار العمال، وتحقيق الشكايات التي تصل إلى الخليفة من عماله[٦].

---

(١) الإمامة والسياسة ج ١ ص ٥٣، وقاموس الرجال ج ٨ ص ٣٨٨، وشرح النهج للمعتزلي ج ٤ ص ٩.

(٣) الإمامة والسياسة ج ١ ص ٥٤، وقاموس الرجال ج ٨ ص ٣٨٨.

(٣) شرح النهج للمعتزلي ج ٦ ص ٤٨، وقاموس الرجال ج ٨ ص ٣٨٨.

(٤) الزهد والرقائق لإبن المبارك ص ١٧٩، وراجع: التراتيب الإدارية ج ١ ص ٢٦٧.

(٥) راجع في كل ذلك: قاموس الرجال ج ٨ ص ٣٨٨.

(٦) التراتيب الإدارية ج ١ ص ٢٦٧ عن سيرة عمر.

و : التنافس القبلي:

ولقد رأينا: أن التنافس القبلي بين الأوس والخزرج، حينما وُظف في خدمة الإسلام والمسلمين آتى ثماراً خيِّرة. فكان قتل الخزرج لأبي رافع واحدة من تلك الثمار، وكان هو النتيجة البنّاءة الطبيعية لهذا التنافس، الذي سعى النبي (ص) إلى تغيير منطلقاته، وأهدافه، لتكون في خدمة الدين والحق والخير للإنسان، الفرد والجماعة على حد سواء.

ز : جهل وغرور ابن الأشرف:

إن غرور كعب بن الأشرف، واعتداده الزائد بنفسه، حتى ليقول لزوجته عن أبي نائلة: إنه لو وجده نائماً لما أيقظه، والأهم من ذلك جهله بالتغيير الجذري الذي يحدثه الإسلام في نفس وفي شخصية الإنسان، هو الذي أوقعه في الفخ الذي نصبه له أولئك المجاهدون البواسل، الذين نذروا أنفسهم لخدمة دينهم الحق.

ولو أنه كان قد أدرك ما كان حويصة قد أدركه في أخيه محيصة، وعاش الواقع الحي الذي يواجهه، وحاول أن يتفاعل معه، وتخلّى عن عنجهيته وغروره، لما كان ينبغي أن يسبقه حويصة إلى التشرف بالإسلام.

ح : الإسلام، والإنسان:

وقد سبق: أن حويصة حينما عرف أن هذا الدين قد بلغ بأخيه: أنه لو أمره الرسول بقتل أخيه لقتله، أدرك أحقية هذا الدين، وتشرف بالدخول فيه.

وسبق كذلك: أن أحد الأخوة يبارز أخاه في صفين، ويلقيه على الأرض، ويجلس على صدره ليذبحه، فلما رأى وجهه عرف أنه أخاه، ولكنه بقي مصراً على قتله، رغم تدخل الآخرين لمنعه، ولم يقبل أن يتركه إلا إذا أذن له أمير المؤمنين «عليه السلام»، فأذن له، فتركه

حينئذٍ[١].

وهذه الدرجة من اليقين، هي التي دعت عبد الله بن عبد الله بن أبيّ إلى: أن يستأذن الرسول الأعظم «صلى الله عليه وآله وسلّم» في قتل أبيه المنافق، إلى غير ذلك من الأمثلة التي لا مجال لاستقصائها[٢].

كما أن هذا اليقين هو الذي أشار إليه عمار بن ياسر رضوان الله تعالى عليه، حينما قال عن الجيش الذي جاء لمحاربة أمير المؤمنين (ع): «والله لو ضربونا بأسيافهم حتى يبلغونا سعفات هجر، لعرفت أنّا على حق وهم على باطل»[٣].

فعمار لم ير النصر العسكري، والقوة العسكرية مقياساً للحق والباطل، كما هو شأن ضعاف النفوس. بل هو يجعل النصر والهزيمة رهن الحق والباطل. فالمحق منتصر دائماً، حتى حينما يكون منهزماً عسكرياً وسياسياً، والمبطل هو المنهزم، وإن كان منتصراً على الصعيد العسكري والسياسي وغير ذلك في ظاهر الأمر.

نعم، إن قضية حويصة ومحيصة تمثل لنا الشخصية التي يريد الإسلام، واستطاع الرسول الأعظم (ص) والأئمة من بعده: أن يصنعوا منها نماذج متفوقة، تعتبر حب الله متفوقاً على كل حب، ورابطة العقيدة تسمو على كل رابطة[٤].

---

(١) صفين للمنقري ص ٢٧١/ ٢٧٢.

(٢) تفسير الصافي ج ٥ ص ١٨٠، والدر المنثور ج ٦ ص ٢٢٤ عن عبد بن حميد وابن المنذر، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٦٤.

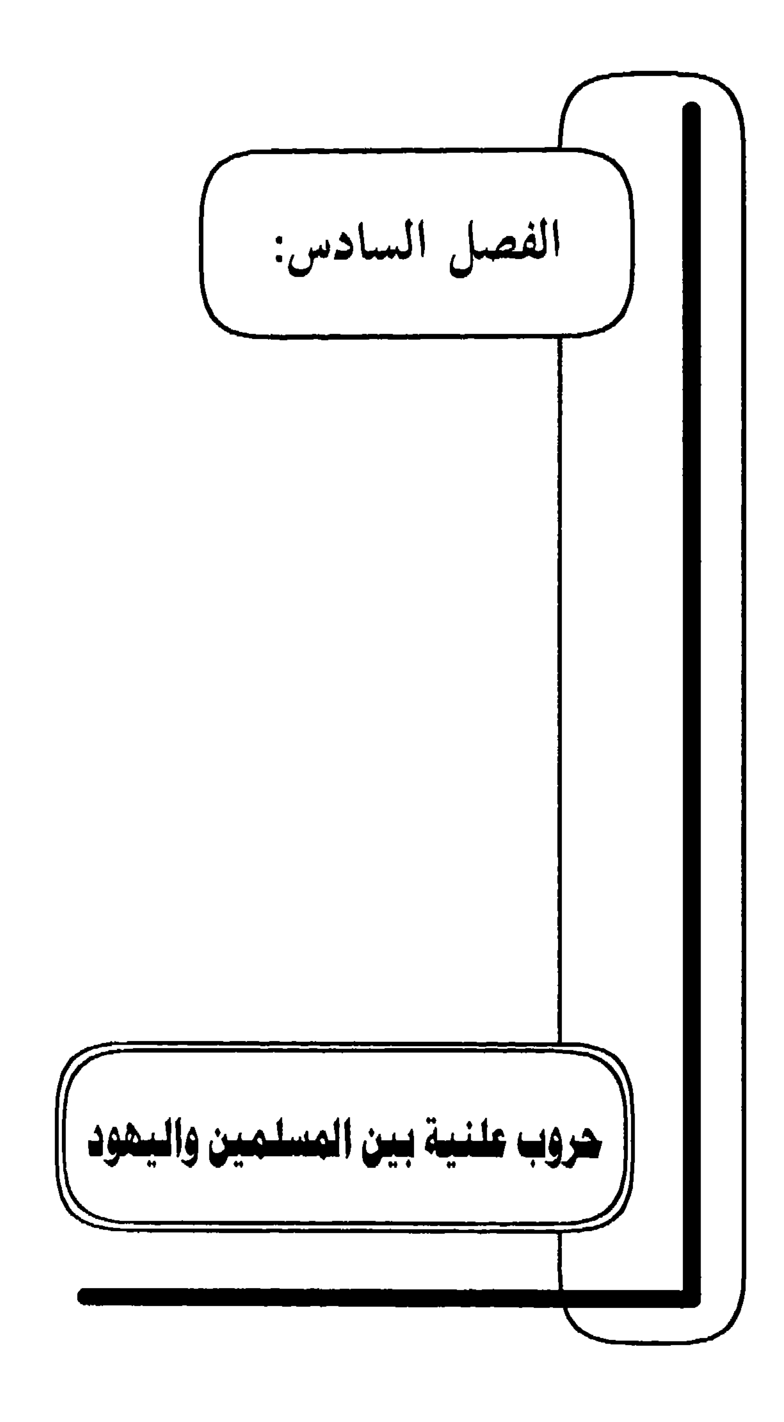
(٣) صفين للمنقري ص ٣٢٢، وتاريخ الأمم والملوك ج ٤ ص ٢٧، وقاموس الرجال ج ٧ ص ١١٣.

(٤) راجع مقال: الحب في التشريع الإسلامي في كتابنا: دراسات وبحوث في التاريخ والإسلام أول الجزء الثاني.

ولكن لم تستطع سائر الأجهزة التي حكمت باسم الإسلام، وتحت شعار خلافة النبوة: أن تصنع ولو نموذجاً واحداً من هذا القبيل، حتى ولو في المستوى الأدنى، إلا إذا كان ذلك عن طريق خداع بعض السذج ببعض الشعارات البراقة، والأساليب الشيطانية، فينقادون لهم، ويؤخذون بسحرهم.

وهذا ليس هو محط كلامنا، فنحن نتكلم عن الإيمان العميق المدعوم بالعقيدة الراسخة، والمنطلق من الوعي والفكر، والرؤية الصحيحة. فإذا لوحظ وجود فرد يتجه في هذا السبيل، فإنك ستجده ـ حتماً ـ يرتبط بأهل بيت النبوة ومعدن الرسالة بنحو من الإرتباط والإتصال.

وبعد ما تقدم، فإننا لابد أن نفسح المجال أمام الحديث عن المرحلة الثانية، وهي مرحلة الحرب العلنية، فإلى الصفحات التالية.



الفصل السادس:

حروب علنية بين المسلمين واليهود



قريش تحرض اليهود على نقض العهد:

قال عبد الرزاق: «وكتب كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود: «إنكم أهل الحلقة والحصون، وإنكم لتقاتلن صاحبنا، أو لنفعلن كذا وكذا. ولا يحول بيننا وبين خدم نساءكم، وهو الخلاخل - [شيء] - فلما بلغ كتابهم اليهود أجمعت بنو النضير [على] الغدر إلخ..».

ثم يذكر قضية غدر بني النضير، وما جرى بينهم وبين المسلمين[1].

ونحن نستقرب أن يكون بنو قينقاع هم أول من استجاب لطلب قريش هذا، لا سيما وأن قريشاً قد كتبت لهم بعد بدر، وكان نقض بني قينقاع للعهد بعد بدر أيضاً. أما قضية بني النضير فقد كانت في السنة الرابعة بعد أحد، كما يقولون. وسيأتي الكلام حول ذلك في جزء آخر من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

كما أن المؤرخين يقولون: إن بني قينقاع لما كانت وقعة بدر، أظهروا البغي والحسد، ونبذوا العهد الذي كان بينهم وبين النبي (ص): أن لا يحاربوه، ولا يظاهروا عليه عدوه، نبذوه إلى رسول الله (ص)، وكانوا أول من غدر من اليهود[2].

(١) المصنف لعبد الرزاق ج ٥ ص ٣٥٩.

(٢) راجع: تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٠٨، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٠٨، والسيرة =

تصعيد التحدي :

قالوا: وكان بنو قينقاع أشجع وأشهر قوم من اليهود، وأكثر اليهود أموالاً وأشدهم بغياً، وكانوا صاغة، وكانوا حلفاء لعبد الله بن أبي، وعبادة بن الصامت.

فبينما هم على مجاهرتهم وكفرهم، إذ جاءت امرأة مسلمة إلى سوقهم[١]؛ فجلست عند صائغ منهم، لأجل حلي لها؛ فأرادوها على كشف وجهها، فأبت. فعمد الصائغ، أو رجل آخر إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، وهي لا تشعر. فلما قامت إنكشفت سوأتها؛ فضحكوا منها؛ فصاحت، فوثب مسلم على من فعل ذلك، فقتله، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستنصر أهل المسلم بالمسلمين، فغضب المسلمون.

وقال (ص): «ما على هذا قرّرناهم»؛ فتبرأ عبادة بن الصامت من حلفهم، وقال: يا رسول الله، أتولّى الله ورسوله، وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار.

وتمسّك ابن أبيّ بالحلف، وأصر على الرسول (ص) بتركهم، وقال: إنه امرؤ يخشى الدوائر، فنزل فيه قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض**﴾ إلى قوله تعالى: ﴿**فإن حزب الله هم الغالبون**﴾[٢].

= النبوية لدحلان (مطبوع بهامش السيرة الحلبية) ج ٢ ص ٢، والمغازي للواقدي ج ١ ص ١٧٦ و١٧٧.

(١) راجع هذه القضية في: الكامل لإبن الأثير ج ٢ ص ١٣٧ و١٣٨، والبداية والنهاية ج ٤ ص ٣ و٤، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٠٨.

(٢) راجع: الدر المنثور ج ٢ ص ٢٩٠/ ٢٩١ عن: ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، وابن عساكر، وابن أبي شيبة.

فجمعهم النبي (ص) في سوقهم، وقال لهم: «يا معشر يهود، احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة، وأسلموا؛ فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل، تجدون ذلك في كتابكم، وعهد الله إليكم».

قالوا: «يا محمد، إنك ترى أنّا قومك؟! ولا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب، فأصبت لهم فرصة. إنا والله، لو حاربناك، لتعلمنّ أنّا نحن الناس».

فأنزل الله تعالى: ﴿قل للذين كفروا ستغلبون..﴾ إلى قوله: ﴿لعبرة لأولي الأبصار﴾[1] وقوله: ﴿وإما تخافن من قوم خيانة؛ فانبذ إليهم على سواء﴾[2]. كذا يقول المؤرخون.

فتحصن بنو قينقاع في حصونهم، فاستخلف (ص) على المدينة أبا لبابة، وسار إليهم، ولواؤه الأبيض (أو راية العقاب السوداء) يحمله أمير المؤمنين «عليه السلام».

(وقولهم: بيد حمزة ينافيه ما تقدم وسيأتي من الأدلة الكثيرة على أن علياً(ع) كان صاحب لواء رسول الله (ص) في كل مشهد).

وحاصرهم النبي (ص) خمس عشرة ليلة، ابتداء من النصف من شوال السنة الثانية، أو في صفر سنة ٣، (وهو بعيد بملاحظة: أنهم إنما غضبوا من انتصار المسلمين في غزوة بدر).

وقذف الله في قلوبهم الرعب، وكانوا أربعمائة حاسر، وثلاثمائة دارع؛ فسألوا رسول الله (ص): أن يخلي سبيلهم، ويجليهم عن المدينة، وأن لهم نساءهم والذرية، وله الأموال والسلاح. فقبل (ص) منهم، وفعل بهم ذلك، وأخذ أموالهم وأسلحتهم، وفرقها بين المسلمين، بعد أن

---

(١) آل عمران: ١٢.

(٢) الأنفال: ٥٨.

أخرج منها الخمس، وأجلاهم عن المدينة إلى أذرعات (بلد بالشام).

فيقال: إنه لم يدر عليهم الحول حتى هلكوا.

وفي نص آخر: أنهم أنزلوا من حصونهم وكتفوا، وأراد (ص) قتلهم، فأصر ابن أبي، عليه (ص): أن يتركهم له بحجة أنه امرؤ يخشى الدوائر فلا يستطيع أن يتركهم، وهم أربعمائة حاسر، وثلاثمائة دارع، قد منعوه من الأحمر والأسود، على حد تعبيره؛ فاستجاب النبي (ص) إلى طلبه وإصراره، وأجلاهم. ونزل في ابن أبي قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض، إلى قوله: حزب الله هم الغالبون﴾[1].

وقبل أن نمضي في الحديث لابد من تسجيل النقاط التالية:

ألف: نزول الآية في ابن أبي:

إن نزول قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء﴾ إلخ... في ابن أبي محل شك، وذلك لما يلي:

١ - إن ابن أبي لم يكن مؤمناً، والآية تخاطب الذين آمنوا.

هذا بالإضافة إلى ذكر النصارى في الآية، ولم يكن للنصارى دور في قضية بني قينقاع.

إلا أن يقال: إن الخطاب للمؤمنين، وذكر النصارى إنما هو لإعطاء قاعدة كلية، وتحذير المؤمنين من موقف يشبه موقف ابن أبي، فما فعله ابن أبي كان سبب نزول الآية في تحذير المؤمنين من موقف كهذا.

٢ - إن الظاهر بل المصرح به هو أن سورة المائدة قد نزلت جملة

---

(١) المائدة: ٥١.

واحدة في حجة الوداع سنة وفاته (ص)[1]، وقضية بني قينقاع إنما كانت قبل أحد. فهل تأخر نزول الآية عن مناسبتها ما يقرب من ثمان سنين؟!!.

حقيقة القضية :

ولعل السر في دعوى نزول مجموع الآيات في هذه المناسبة، هو الخداع والتضليل للسذج والبسطاء، وتشكيكهم في قضية الغدير، التي كانت ولا تزال الشوكة الجارحة في أعين شانئي علي «عليه السلام» ومبغضيه.

فالظاهر هو أن هذه الآيات قد نزلت لتحذير المسلمين من الاتجاه الذي كانت بوادره تظهر وتختفي بين الحين والحين، من الإندفاع نحو أهل الكتاب بصورة عامة. حتى لقد كان الرسول الأعظم «صلى الله عليه وآله وسلّم» نفسه يواجه بعض ما يعبر عن هذا الإندفاع نحو الثقافة اليهودية، والخضوع لهيمنة فكر أهل الكتاب عموماً!! وقد رأى النبي (ص) في يد عمر (رض) ورقة من التوراة، فغضب، حتى تبين الغضب في وجهه، ثم قال: ألم آتكم بها بيضاء نقية؟! والله، لو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي.

وفي رواية: أمهوّكون فيها يابن الخطاب؟ إلخ. وفي أخرى: أن عمر نسخ كتاباً من التوراة بالعبرية، وجاء به، فجعل يقرؤه على رسول الله (ص)[2]. وقد قدمنا هذا الحديث مع مصادره في المدخل لدراسة هذه السيرة، فراجع.

---

(١) راجع: الدر المنثور ج ٢ ص ٢٥٢ عن أحمد، وعبد بن حميد، وابن جرير، ومحمد بن نصر في الصلاة، والطبراني، وأبي نعيم في الدلائل، والبيهقي في شعب الإيمان، وابن أبي شيبة، والبغوي في معجمه، وابن مردويه، وأبي عبيدة وغيرهم.

(٢) راجع مقدمة ابن خلدون ص ٤٣٦، وأضواء على السنة المحمدية ص ١٦٢، =

وقد ازداد هذا الإتجاه نحو ثقافة أهل الكتاب، عنفاً وقوة بعد وفاة الرسول الأعظم «صلى الله عليه وآله وسلّم». وهذا موضوع هام جداً، ومتشعب الأطراف؛ حيث إن آثار التأثر بأهل الكتاب قد ظهرت بشكل أو بآخر في كثير من المجالات: العقائدية، والفكرية، والفقهية، وغير ذلك.

وقد بحثنا فيما سبق هذا الموضوع، وتوصلنا فيه إلى العديد من النتائج المذهلة على صعيد الفكر، والسياسة، والعقيدة، والتشريع. فليراجع.

ب: حول الراية:

إنه يبدو: هو أن الراية في هذه الحرب كانت سوداء، لأن هذه هي راية حرب، وغضب رسول الله (ص) على أهل الكفر والشرك والضلال، يقول الكميت مشيراً إلى ذلك:

وإلا فارفعوا الرايات سوداً ... على أهل الضلالة والتعدي

وقد كانت رايته (ص) يوم فتح مكة سوداء، وكانت راية أمير المؤمنين «عليه السلام» في حربه لأعدائه سوداء أيضاً، ولعل في هذا إلماح إلى أن من يحاربهم (ع) لا يفترقون عمن حاربهم الرسول (ص) فيما سبق.

وسنشير في أوائل غزوة أحد إلى أن حامل لواء النبي (ص) في جميع حروبه هو أمير المؤمنين «عليه السلام»، فكل ما يذكر خلاف ذلك ما هو إلا عربدة وتضليل.

= والإسرائيليات في التفسير والحديث ص ٨٦، وفتح الباري ج ١٣ ص ٢٨١ عن ابن أبي شيبة وأحمد، والبزار، ومسند أحمد ج ٣ ص ٣٨٧، وغير ذلك من المصادر الكثيرة التي أشرنا إلى طائفة منها في تمهيد الكتاب.

وأما أن راية العقاب كانت قطعة من بُرْدٍ لعائشة، كما ذكره الحلبي[(١)].

فنحن نشك في ذلك، لأنه هو نفسه قد ذكر في وقعة خيبر: أن «المقريزي لما ذكر رتب الرياسة في الجاهلية، ذكر: أن العقاب كان في الجاهلية راية تكون لرئيس الحرب. وجاء الإسلام وهي عند أبي سفيان، وجاء الإسلام والسدانة واللواء عند عثمان بن أبي طلحة، من بني عبد الدار»[(٢)].

والعبارة مشوشة كما ترى، ولكنها تدل على أي حال على أن العقاب لم تكن من مرط عائشة.

ثم إننا لا ندري لماذا اختار برد عائشة ليكون راية له!!.

ج : الخمس:

١ ـ وقد تقدم: أن الرسول الأعظم «صلى الله عليه وآله» قد فرق السلاح والأموال التي غنمها من بني قينقاع على المسلمين، مع أنها كانت مما أفاء الله عليه، فهي له دون غيره. ولكنه «صلى الله عليه وآله» آثر أن يفرقها بين المسلمين بعد إخراج الخمس منها، إعانة لهم، ولطفاً بهم، وعطفاً عليهم.

٢ ـ وقالوا: إن خمس بني قينقاع كان أول خمس قبضه رسول الله (ص)[(٣)].

وهذا محل شك أيضاً، فقد تقدم قولهم: إنه قد خمّس ما غنمه

---

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٠٩ وج ٣ ص ٣٥.

(٢) السيرة الحلبية ج ٣ ص ٣٥ و٣٦.

(٣) تاريخ الطبري ج ٢ ص ١٧٤.

المسلمون من المشركين في غزوة قرقرة الكدر. وكذا قيل في غزوة بدر، وفي سرية ابن جحش.

وتوجيه ذلك بأن المراد هنا: أنه أول خمس قبضه، وفيما تقدم كان (ص) لا يقبض الخمس، وإنما يرده على المسلمين.

خلاف الظاهر، خصوصاً إذا أثبت البحث العلمي: أنه «صلى الله عليه وآله وسلّم» قد بقي يقسم الخمس على المسلمين، كما فعل في غزوة حنين، فلعل الرواة قد رووا هذه الأوليات بحسب حضورهم. فالذي حضر هذه الغزوة ورأى النبي (ص) قد خمّس غنائمها، لعله لم يحضر التي قبلها، وكذا الحال بالنسبة للراوي الآخر في الغزوة الأخرى، فلابد من التحقيق حول هذا الموضوع.

د: بعض أهداف ونتائج حرب بني قينقاع:

إن حرب المسلمين لبني قينقاع، وهم أشجع اليهود، وأكثرهم مالاً، والقضاء عليهم معناه:

١ ـ إنه (ص) لا يريد أن يفسح المجال لهم ـ كما يقول العلامة الحسني ـ لأنْ «يطمعوا به، ويكتّلوا حولهم من يشاركهم الرأي من المنافقين والأعراب»، لأن صبر النبي (ص) عليهم، وأمره للمسلمين بالتحمل مهما أمكن، جعل اليهود يظنون: أن هذا ناتج عن ضعف وخور؛ فاستمروا في تحرشاتهم[1].

٢ ـ أن يسهل القضاء على الآخرين من الأعداء، ممن هم أقل منهم قوة وعدداً، وعدة ومالاً، لأنهم إذا رأوا: أن أصحاب الشوكة لم يستطيعوا أن يأتوا بشيء، فإنهم سوف يقتنعون بأنهم ـ وهم الأضعف ـ أولى أن لا

---

(١) راجع: سيرة المصطفى ص ٣٧٩

يأتوا بشيء أيضاً.

٣ ـ إن ما غنمه المسلمون من بني قينقاع، من شأنه أن يزيد من طموح عدد من الناس من المسلمين للقضاء على أعدائهم، ويسهّل عليهم الوقوف في وجههم؛ حيث يرتاح بالهم من جهة معاشهم، ولا يبقى ما من شأنه أن يثير مخاوفهم، ويستبد بتفكيرهم.

٤ ـ كما أن ذلك: إنما يعني التخلص من عدوّ داخلي، يعرف مواضع الضعف والقوة، وربما يكون أخطر من العدو الخارجي بكثير.

٥ ـ ثم إن القضاء على اليهود كان يتم على مراحل، وذلك بطبيعة الحال أسهل وأيسر من القضاء عليهم، فيما لو كانوا مجتمعين، دفعة واحدة، وفي صعيد واحد، يعين بعضهم بعضاً، ويشد بعضهم أزر بعض.

٦ ـ والمسلمون أيضاً، إذا رأوا أنفسهم قد استطاعوا القضاء على أشجع اليهود، وأكثرهم قوة ونفوذاً، فإنهم سوف يتشجعون للقضاء على من سواهم، ولا يبقى مجال للخوف ولا للتردد.

هـ: الحجاب:

إن قضية المرأة التي أرادوها على كشف وجهها، قد يقال إنها تدل على أن الحجاب كان مفروضاً حينئذ، أي في السنة الثانية للهجرة، مع أن المعروف هو: أن الحجاب قد فرض بعد ذلك بعدة سنين.

إلا أن يقال إن الحجاب قد كان موجوداً في الجاهلية، أو يقال: صحيح أن فرض الحجاب وإيجابه قد كان في سنة خمس، أو بعدها، لكن الإلتزام بالحجاب، على اعتبار أنه محبوب ومطلوب لله، وأمر راجح وحسن قد كان قبل ذلك بسنين. وذلك اتباعاً لتوجيهات النبي (ص)، وترغيباته، ودعواته إلى ذلك، إذ لا يبعد أن يكون تشريع الحجاب قد جاء تدريجاً؛ لتتقبله النفوس، وتألفه العادة. ولا سيما إذا لاحظنا: أنه ربما

كان أمراً صعباً على نساء الجزيرة العربية، اللواتي يعشن في جو حار جداً، كما هو معلوم.

وعلى كل حال، فإن هذا الأمر يحتاج إلى تحقيق، ولسوف نتحدث عنه بشيء من التفصيل فيما يأتي إن شاء الله تعالى.

و : الغرور، والإيمان:

إننا نلاحظ: أنه (ص) حتى حينما انتصر على المشركين في بدر ذلك الإنتصار الباهر والساحق، وكذلك حينما انتصر عليهم في غيرها من المواقف الصعبة، فإنه لا ينسب انتصاراته إلى نفسه، أو إلى جيشه. ولا يسمح لنفسه بأن تتوهم: أنها هي التي انتصرت بالقوة، والعدة، والعدد، أو بالعبقرية الحربية؛ لأنه يعلم أن الإنتصار الذي سُجِّل في بدر مثلاً، لم يكن في المقاييس المادية انتصاراً. وإنما هو معجزة إلهية، لا يمكن لأحد أن يحترم نفسه إلا أن يذعن إلى هذه الحقيقة، ويسلم بها. وهذا هو ما قرره الله تعالى بقوله: ﴿ **ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة**﴾[1].

كما أنه تعالى قد تعرض لحالة العُجْب بالنفس في حنين، فقال: ﴿**لقد نصركم الله في مواطن كثيرة، ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم، فلم تغن عنكم من الله شيئاً**﴾[2].

بينما نجد بني قينقاع مغرورين بقوتهم وشوكتهم، حتى قالوا له: لو حاربناك لتعلمن: أنّا نحن الناس. فأوعدهم الله بالهزيمة والخذلان. وصدق الله وعده، فزاد ذلك من يقين المؤمنين وتصميمهم، ومن ذل الكافرين وخزيهم.

---

(١) آل عمران: ١٢٣.

(٢) التوبة: ٢٥.

ز : الإستجابة لإبن أبي:

وإن استجابة النبي (ص) لإبن أبي في بني قينقاع، كانت تهدف إلى الحفاظ على الجبهة الداخلية من التصدع. ولولا ذلك فلربما كان ينتهي الأمر إلى النزاعات المكشوفة، والمواجهات العلنية، الأمر الذي لم يكن في صالح الإسلام والمسلمين في تلك الفترة؛ فإن الإبقاء على العلاقات الحسنة مع المنافقين في تلك الظروف كان أمراً ضرورياً؛ لكسب أكبر عدد منهم في المستقبل، عن طريق التأليف والترغيب، وكذلك من أبنائهم، ثم توفير الطاقات لعدو أشدّ وأعتى. كما أن إجلاء بني قينقاع، كما يعتبر ضربة روحية ونفسية لغيرهم من اليهود، كذلك هو يعتبر إضعافاً لإبن أبي ومن معه من المنافقين. فخسران الأعداء متحقق على كل تقدير.

ح : بنو قينقاع تحت الأضواء:

وأما لماذا تجرأ بنو قينقاع على نقض العهد، فالظاهر: أن ذلك يرجع: إلى غرورهم واعتدادهم بشجاعتهم، وبكثرتهم، ولعلهم كانوا يتوقعون نصر حلفائهم من الخزرج لهم، كما يظهر من قولهم له (ص): لتعلمن أنّا نحن الناس.

ثم هناك اعتمادهم على ما يملكونه من خبرة عسكرية، ومعرفة بالحرب، وقد عبروا عن ذلك أيضاً بقولهم له (ص): لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب.

وإلا، فإننا لا نرى مبرراً لأن تعلن قبيلة واحدة الحرب على كثير من القبائل في المدينة، إن كانت لا تملك شيئاً من مقومات النصر المحتمل.

ولكن كثرتهم وخبرتهم الحربية لم تغن عنهم شيئاً، كما أن حلفاءهم من الخزرج لم يفعلوا لهم شيئاً، لأن المؤمنين منهم تخلّوا

عنهم، لأن الوفاء لهم خيانة لعقيدتهم ومبدئهم وإيمانهم، الذي يبذلون أرواحهم في سبيل الحفاظ عليه.

وأما المنافقون منهم فلم يتمكنوا من نصرهم، بسبب ما قذف الله في قلوبهم من الرعب، وكون ذلك سوف يتسبب لهم بانشقاقات وخلافات داخلية. وأقصى ما استطاع ابن أبي أن يقدمه لهم، هو أن يمنع من استئصالهم، مع الإكتفاء بإجلائهم إلى مناطق بعيدة لن يمكنهم الصمود فيها أكثر من سنة، وليواجهوا من ثم الفناء والهلاك.

وأما لماذا لم يهبّ اليهود لنصرة بني قينقاع، فإن ذلك يرجع إلى أنه قد كان بينهم وبين سائر اليهود عداوة، وذلك لأن اليهود كما قال ابن إسحاق: «كانوا فريقين، منهم بنو قينقاع ولفهم[1]، حلفاء الخزرج، والنضير وقريظة ولفّهم حلفاء الأوس، فكانوا إذا كانت بين الأوس والخزرج حرب، خرجت بنو قينقاع مع الخزرج، وخرجت النضير وقريظة مع الأوس يظاهر كل من الفريقين حلفاءه على إخوانه، حتى يتسافكوا دماءهم بينهم. وبأيديهم التوراة يعرفون فيها ما عليهم وما لهم، والأوس والخزرج أهل شرك يعبدون الأوثان: لا يعرفون جنة، ولا ناراً، ولا بعثاً، ولا قيامة، ولا كتاباً، ولا حلالاً، ولا حراماً.

فإذا وضعت الحرب أوزارها افتدوا أساراهم، تصديقاً لما في التوراة، وأخذ به بعضهم من بعض، يفتدي بنو قينقاع من كان من أسراهم من أيدي الأوس، وتفتدي النضير وقريظة ما في أيدي الخزرج منهم، ويطلّون ما أصابوه من الدماء وقتلى من قتلوا منهم فيما بينهم، مظاهرة لأهل الشرك عليهم»[2].

---

(١) لفهم: أي من يعدّ فيهم.

(٢) السيرة النبوية، لابن هشام ج ٢ ص ١٨٨/ ١٨٩.

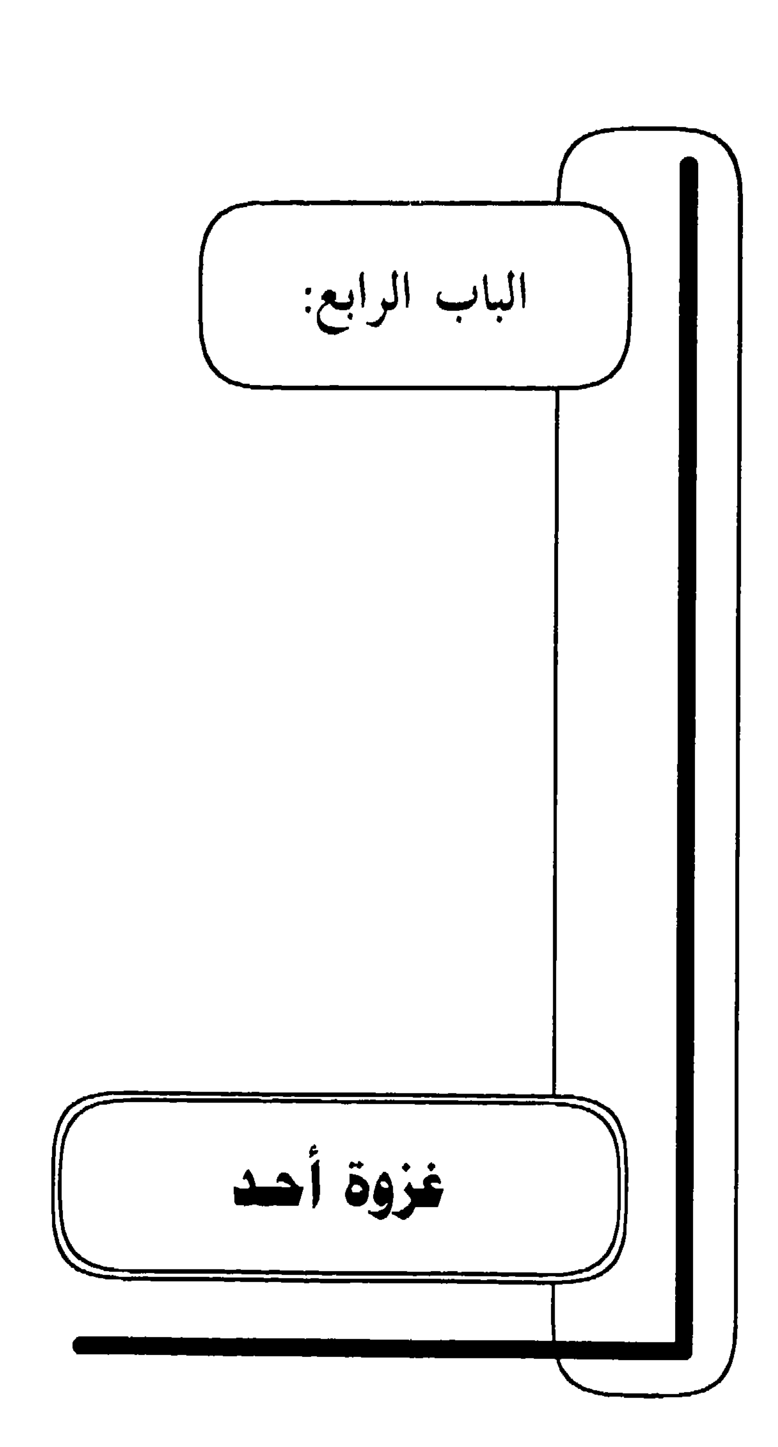
وكانوا بذلك مصداقاً لقوله تعالى وهو يخاطب اليهود: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم، ولا تخرجون أنفسكم من دياركم، ثم أقررتم وأنتم تشهدون. ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم، وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم، تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان، وإن يأتوكم أسارى تفادوهم، وهو محرم عليكم إخراجهم﴾[١].

صدق الله العلي العظيم.

---

(١) البقرة: ٧٣ و ٨٤.

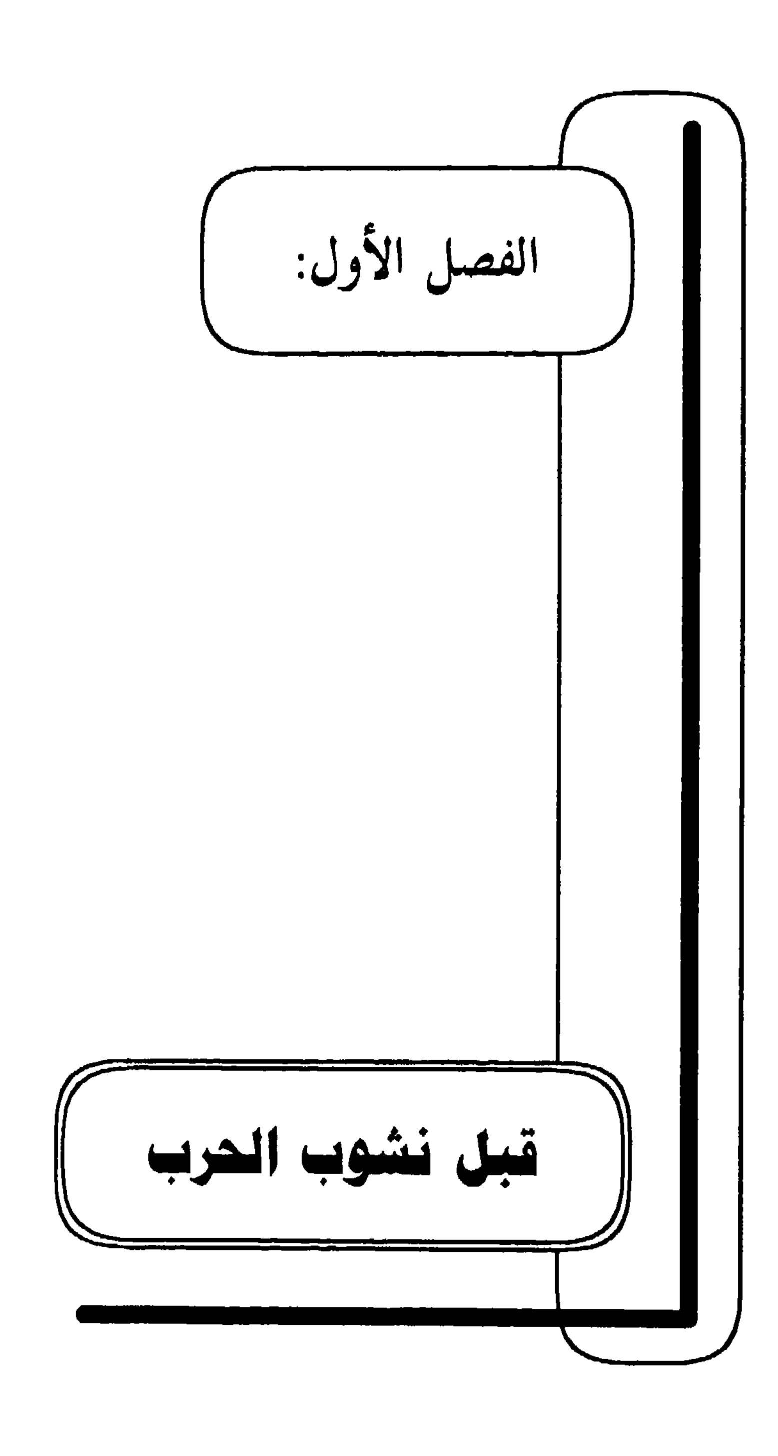




الباب الرابع:

غزوة أحد





الفصل الأول:

قبل نشوب الحرب



أجواء ومواقف :

وفي سنة ثلاث ـ وشذ من قال في سنة أربع[1] في شوال، يوم السبت على الأشهر ـ كانت غزوة أحد[2]، وهو جبل يبعد عن المدينة حوالي فرسخ .

وذلك أن نتائج حرب بدر كانت قاسية على مشركي مكة، ومفاجأة لليهود والمنافقين في المدينة . فقريش لا يمكن أن تهدأ بعد الآن حتى تثأر لكرامتها، ولمن قتل من أشرافها . حتى لقد أعلنوا المنع عن بكاء قتلاهم؛ لأن ذلك يذهب الحزن، ويُطْفِيء لهيب الأسى من جهة . ولأنه يدخل السرور على قلوب المسلمين من الجهة الأخرى .

ولكنهم عادوا فتراجعوا عن هذا القرار؛ فسمحوا للنساء بالبكاء، لأن ذلك ـ بزعمهم ـ يثير المشاعر، ويذكر الرجال بالعار الذي لحق بهم .

---

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢١٦، وراجع: تأريخ الخميس ج ١ ص ٤١٩ .

(٢) راجع: البداية والنهاية ج ٤ ص ٩، ودلائل النبوة للبيهقي ط دار الكتب العلمية ج ٣ ص ٢٠١، وأنساب الأشراف ج ١ ص ٣١١، والمغازي للواقدي ج ١ ص ١٩٩، والسيرة النبوية لإبن كثير ج ٣ ص ١٨، والكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٤٨، وتاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ١٨٦، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢١٦، والسيرة النبوية لدحلان (المطبوع بهامش الحلبية) ج ٢ ص ١٩ وتأريخ الخميس ج ١ ص ٤١٩ .

ومضت قريش تستعد لقتال النبي محمد «صلى الله عليه وآله وسلّم»، وتعبّىء النفوس، وتجهز القوى الحربية لأخذ الثأر، ومحو العار.

ومضى اليهود الذين أصبحوا يخافون على مركزهم السياسي، والإقتصادي في المنطقة، وعلى هيمنتهم الثقافية أيضاً يحرضون المشركين على الثأر ممن وترهم، وأعلنوا بالحقد، ونقض العهد، حتى كال لهم المسلمون ضربات صاعقة، هدّت كيانهم، وجرحت وأذلت كبرياءهم وغرورهم.

ومن جهة النبي الأعظم «صلى الله عليه وآله»، ومن معه من المسلمين؛ فإنهم لن يتخلوا عن قبلتهم، الكعبة، ولن يتركوا قريشاً وغطرستها وغرورها، لا سيما بعد تعدّيها عليهم، وظلمها القبيح لهم، حتى اضطرهم ظلمها وتعديها إلى الهجرة من ديارهم، تاركين لها أوطانهم، وكل ما يملكون.

وكذلك، فإن النبي الأكرم (ص) قد حاصر قريشاً بمعاهداته للقبائل التي في المنطقة، وموادعاته لها، وأصبح يسيطر على طريق تجارتها، ولم يعد هذا الطريق آمناً لها، وأصبحت ترى نفسها بين فكي «كمّاشة»، فلابد لها إذن من كسر هذا الطوق، وتجاوز هذا المأزق. وهذا ما عبّر عنه ذلك الزعيم القرشي ـ كما تقدم في سرية القردة ـ بقوله لقريش:

«إن محمداً وأصحابه قد عوّروا علينا متجرنا، فما ندري كيف نصنع بأصحابه؟ لا يبرحون الساحل. وأهل الساحل قد وادعهم، ودخل عامتهم معه، فما ندري أين نسلك، وإن أقمنا نأكل رؤوس أموالنا، ونحن في دارنا هذه فلم يكن لنا بقاء. إنما نزلناها على التجارة إلى الشام في الصيف، وفي الشتاء إلى أرض الحبشة[1]».

---

(١) المغازي للواقدي ج ١ ص١٩٧، وسيرة المصطفى ص ٣٨٥.

جيش المشركين الى أحد :

وكانت العير التي كانت وقعة بدر من أجلها ـ وهي ألف بعير كما قالوا ـ قد بقيت سالمة ومحتَبَسَة في دار الندوة. واتفقوا مع أصحابها على أن يعطوهم رؤوس أموالهم، وهي خمسة وعشرون أو خمسون ألف دينار ـ على اختلاف النقل ـ على أن يصرف الربح في قتال المسلمين. وكان كل دينار يربح ديناراً، وهو مبلغ هائل في وقت كان للمال فيه قيمة كبيرة، والقليل منه يكفي للشيء الكثير.

وبعثوا الرسل إلى القبائل يستنصرونهم، وحرّكوا من أطاعهم من قبائل كنانة، وأهل تهامة، واشترك الشاعر أبو عزة الجمحي في تحريض القبائل على المسلمين، وكان قد أُسِرَ في بدر، ومنّ عليه النبي (ص) بشرط أن لا يظاهر عليه. وقد شارك في ذلك بعد أن ألح عليه صفوان بن أمية، وضمن له إن رجع من أحد أن يغنيه، وإن أصابه شيء أن يكفل بناته.

وخرجت قريش بحدّها وجدّها، وأحابيشها ومن تابعها.

وأخرجوا معهم بالظعن خمس عشرة امرأة، فيهن هند بنت عتبة، لئلّا يفروا، وليُذكِّرْنَهُمْ قتلى بدر. يغنين ويضربن بالدفوف، ليكون أجدّ لهم في القتال.

وخرج معهم الفتيان بالمعازف، والغلمان بالخمور، وكان جيش المشركين ثلاثة آلاف مقاتل. وقيل: خمسة آلاف.

ونحن نرجح الأول؛ لقول كعب بن مالك:

ثلاثة آلاف ونحن نصيبه ثلاث مئين إن كثرنا وأربع[1]

---

(١) البدء والتاريخ ج ٤ ص ٢٠٧. نعم يمكن أن يكون عمدة الجيش ثلاثة آلاف، ومعهم من العبيد والخدم ـ وهم مقاتلون أيضاً ـ ألفان بل في البحار ج ٢٠=

أي: وأربع مئين.

وكان في جيش المشركين سبعمائة دارع، ومئتا فارس على المشهور. وقيل: مئة، ومئة رام، ومعهم ألف ـ وقيل ثلاثة آلاف ـ بعير. ولا يبعد صحته[1] كلهم بقيادة أبي سفيان الذي صار زعيم قريش بعد قتل أشرافها في بدر.

وكان معهم أبو عامر الفاسق، الذي كان قد ترك المدينة إلى مكة مع خمسين رجلاً من أتباعه من الأوس كراهية لمحمد، خرج إلى مكة يحرض على رسول الله «صلى الله عليه وآله»، ويقول لهم: إنهم على الحق، وما جاء به محمد باطل.

فسارت قريش إلى بدر، ولم يسر معهم، وسار معهم إلى أحد.

وكان يزعم لهم: أنه لو قدم على قومه لم يختلف عليه إثنان منهم، فصدقوه، وطمعوا في نصره، ولكن الأمر كان على عكس ذلك كما سنرى.

= ص ١١٧: أن أبا سفيان قد استأجر ألفين من الأحابيش.

(١) راجع جميع ما تقدم كلاً أو بعضاً في المصادر التالية: تاريخ الخميس ج ١ ص ٤١٩ ـ ٤٢٢، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢١٧ و٢١٨، والسيرة النبوية لدحلان (مطبوع بهامش الحلبية) ج ٢ ص ١٩ ـ ٢١ و٢٦، وراجع: الوفاء بأحوال المصطفى ص ٦٨٤، والمغازي للواقدي ج ١ ص ٢٠٠ ـ ٢٠٤ و٢٠٦، وأنساب الأشراف ج ١ ص ٣١٢ و٣١٣، وتاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ١٨٧ ـ ١٩٠ و١٩٧، والبداية والنهاية ج ٤ ص ١٠ ـ ١٦، والسيرة النبوية لإبن كثير ج ٣ ص ٢٠ و٢٥ و٢٦ و٣٠ و٣٢، والسيرة النبوية لإبن هشام ج ٣ ص ٦٤ و٦٥ و٧٠ و٧١، والكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٤٩ ـ ١٥١، ودلائل النبوة للبيهقي ط دار الكتب العلمية ج ٣ ص ٢٢١ و٢٠٩، والبحار ج ٢ ص ٤٨، وحياة محمد لهيكل ص ٢٥٤، وسيرة المصطفى ص ٣٩١.

وكان مع المشركين أيضاً: وحشي غلام جبير بن مطعم، الذي وعده سيده بالحرية، إن هو قتل محمداً، أو علياً، أو حمزة، بعمّه طعيمة بن عدي؛ فإنه لا يدري في القوم كفؤاً له غيرهم[١].

فقال وحشي له ـ أو لهند ـ: أما محمد؛ فلن يسلمه أصحابه، وأما حمزة فلو وجده نائماً لما أيقظه من هيبته، وأما علي فإنه حذر مرس، كثير الإلتفات[٢] وسيأتي: أنه تمكن من الغدر بحمزة، أسد الله وأسد رسوله.

سؤال وجوابه:

ويرد هنا سؤال: وهو أنهم إذا كانوا قد أخرجوا معهم النساء لئلّا يفروا، فلماذا فروا حين حميت الحرب، وتركوا النساء؟!.

والجواب عن ذلك سيأتي حين الكلام عن هذا الموضوع، إن شاء الله تعالى.

وصول الخبر الى المدينة:

ويقولون: إن العباس بن عبد المطلب كتب إلى النبي (ص) يخبره بمسير قريش، وبكيفية أحوالهم، وبعددهم، مع رجل غفاري، على أن يصل إلى المدينة في ثلاثة أيام، فقدم الغفاري المدينة، وسلم الكتاب إلى النبي (ص)، وهو على باب مسجد قباء، فقرأه له أبي بن كعب، فأمره (ص) بالكتمان[٣].

---

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢١٧، والسيرة النبوية لدحلان (مطبوع بهامش الحلبية) ج ٢ ص ٢٠.

(٢) المغازي للواقدي ج ٢ ص ٢٨٥.

(٣) راجع: تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٣٠، والمغازي للواقدي ج ١ ص ٢٠٤، =

ووقعت الأراجيف بالمدينة، وقال اليهود: إن الغفاري ما جاء بخبر يسر محمداً. وفشا الخبر بخروج المشركين قاصدين المدينة بعدتهم وعددهم، هكذا قالوا.

ولكننا في مقابل ذلك: نجد الواقدي يذكر: أن نفراً من خزاعة فيهم عمرو بن سالم سَرَوا من مكة أربعاً، فوافوا قريشاً، وقد عسكروا بذي طوى، فلما وصلوا المدينة أخبروا رسول الله (ص) الخبر، ثم انصرفوا، فلقوا قريشاً ببطن رابغ على أربع ليال من المدينة.

فقال أبو سفيان: أحلف بالله، إنهم جاءوا محمداً فخبروه بمسيرنا، وعددنا، وحذروه منا، فهم الآن يلزمون صياصيهم، فما أرانا نصيب منهم شيئاً في وجهنا. فقال صفوان بن أمية: إن لم يصحروا لنا عمدنا إلى نخل الأوس والخزرج فقطعناه، فتركناهم ولا أموال لهم؛ فلا يختارونها أبداً. وإن أصحروا لنا فعددنا أكثر من عددهم وسلاحنا أكثر من سلاحهم، ولنا خيل، ولا خيل معهم، ونحن نقاتل على وتر لنا عندهم، ولا وتر لهم عندنا[1].

وقد يقال: لا مانع من أن يكون الخبر قد وصل إلى النبي من قبل الغفاري، ومن قبل هؤلاء معاً.

وقبل أن نمضي في الحديث نشير في ما يلي إلى بعض النقاط، وهي التالية:

سؤال يحتاج إلى جواب:

ويرد هنا سؤال وهو: كيف قبلت قريش بإقامة العباس في مكة

= وأنساب الأشراف ج ١ ص ٣١٤، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ١٧٢، والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٢٠، وسيرة المصطفى ص ٣٩٣، وحياة محمد لهيكل ص ٢٥٥.

(١) مغازي الواقدي ج ١ ص ٢٠٥، وشرح النهج للمعتزلي ج ١٤ ص ٢١٨/ ٢١٩.

مسلماً ـ إذا صح، أنه أسلم في بدر ـ وقريش لم تكن لترحم أحباءها وأبناءها إذا علمت بإسلامهم، ولا سيما بعد تلك النكبة الكبرى التي أصابتها على يد ابن أخيه في بدر، حيث قتل أبناءها وآباءها وأشرافها؟

إلا أن يقال: إنه كان مسلماً سراً، وقد أمره (ص) بالبقاء في مكة؛ ليكون عيناً له، ولازم ذلك هو أن يتظاهر بالشرك، وأنه معهم، وعلى دينهم. وقد تقدمت بعض تساؤلات حول وضع العباس في مكة في غزوة بدر، فلا نعيد.

المشركون، وأزمة الثقة:

ويلاحظ هنا: أن أبا سفيان لم يكن يثق بمن هم على دينه، ولا يستطيع أن يعتمد عليهم، ولذلك نراه يبادر إلى اتهامهم بأنهم قد أخبروا محمداً بمسيرهم، وعددهم، وحذروه منهم.

وقد أشير إلى هذه الحالة في حديث سدير، قال: قلت لأبي عبد الله: إني لألقى الرجل لم أره ولم يرني فيما مضى قبل يومه ذلك؛ فأحبه حباً شديداً، فإذا كلمته وجدته لي مثلما أنا عليه له، ويخبرني: أنه يجد لي مثل الذي أجد له.

فقال: صدقت يا سدير، إن ائتلاف قلوب الأبرار إذا التقوا ـ وإن لم يظهروا التودد بألسنتهم ـ كسرعة اختلاط قطر السماء مع مياه الأنهار، وإن بُعْد ائتلاف قلوب الفجار إذا التقوا ـ وإن أظهروا التودد بألسنتهم ـ كَبُعْد البهائم عن التعاطف، وإن طال اعتلافها على مِذْوَدٍ واحد[١].

ويمكن ان يستفاد هذا المعنى أيضاً من بعض الآيات القرآنية، قال تعالى:

---

(١) سفينة البحار ج ١ ص ٢٠٤.

﴿لا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك، ولذلك خلقهم﴾[١].

وقال تعالى: ﴿وألّف بين قلوبهم، لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم، ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم﴾[٢]. وقال: ﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم، فأصبحتم بنعمته إخوانا﴾[٣].

وموجز القول في سر ذلك: وهو ما أشار إليه الطباطبائي أيضاً، الذي سنكتفي بتلخيص كلامه لما فيه من الخصوصيات، وإن كان أصل الكلام قد كان محط نظرنا أيضاً:

أن الكفار إنما يلتقون على مصالحهم الدنيوية الشخصية، ويتفقون ويختلفون على أساسها؛ وذلك لأن الإنسان يحب بطبعه أن يخص نفسه باللذائذ والنعم، وعلى هذا الأساس يحب هذا ويبغض ذاك.

وحيث إنه لا يستطيع أن يلبي كل ما يحتاج إليه من ضروريات حياته؛ فإنه لابد له من حياة إجتماعية تعينه على ذلك، ويتبادل مع الآخرين ثمرات الأتعاب، حيث إن كل شخص له مؤهلات تجعله يختص ببعض الإمتيازات لنفسه: من مال، أو جمال، أو طاقات فكرية، أو نفسية، أو غريزية، أو غير ذلك. هذه الإمتيازات التي تطمح إليها النفوس، ويتنافس فيها البشر عموماً.

وبسبب الإحتكاكات المتوالية، وما يصاحبها من وجوه الحرمان، والبغي، والظلم، والشح، والكرم في هذه الأمور التي يتنافسون فيها، فإن العداوات والصداقات تنتج عن ذلك.

---

(١) هود: ١١٩.

(٢) الأنفال: ٦٣.

(٣) آل عمران: ١٠٣.

وأما محاولات بذل النعم لفاقديها، فإنها لا ترفع هذه النزاعات والعداوات وغيرها إلا في موارد جزئية. أما الحالة العامة فتبقى على حالها؛ لأن هذا البذل لا يبطل غريزة الإستزادة، والشح الملتهب، على أن بعض النعم لا تقبل إلا الإختصاص والإنفراد، كالملك، والرئاسة، فالشرور والاحقاد التي تتولد عن ذلك باقية على حالها.

هذه حالة المجتمع الكافر بالله، الذي لا يؤمن إلا بالمصلحة الدنيوية الشخصية، واللذات الحاضرة. ولكن الله قد منّ على المسلمين، وأزال الشح من نفوسهم: **﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾**[1] وألف بين قلوبهم، وذلك لأنه عرّفهم:

أن الحياة الإنسانية حياة خالدة، وأن الحياة الدنيا زائلة لا قيمة لها، وأن اللذة المادية لا قيمة لها، واللذة الواقعية هي أن يعيش الإنسان في كرامة عبودية الله سبحانه، ورضوانه، والقرب والزلفى منه تعالى، مع النبيين والصديقين، وهناك اللذة الحقيقية الدائمة، قال تعالى: **﴿وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب، وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾**[2].

كما أنه لا يملك أحد لنفسه نفعاً ولاضرراً، ولا موتاً ولا حياة، بل هو في تصرف الله الذي بيده الخير والشر، والنفع والضر، والغنى والفقر. وكل نعمة هي هبة من ربه، وما حرم منه احتسب عند ربه أجره، وما عند الله خير وأبقى.

وإذ لم يعد للمادة قيمة عند المؤمنين؛ فإن أسباب الضغن والحقد تزول، ويصبحون بنعمته إخوانا، ولا يبقى في نفوسهم غل، وحسد، ورين[3].

---

(١) الحشر آية: ٩. (٢) العنكبوت: ٦٤.

(٣) راجع تفسير الميزان ج ٩ ص ١١٩ ـ ١٢١.

وهكذا يتضح : أن موقف الخزاعيين، وعدم التزامهم بنصر قومهم، والحفاظ على أسرارهم أمر طبيعي. كما أن سوء ظن أبي سفيان، وعدم ثقته بهم هو أيضاً نتيجة طبيعية للشرك، وعدم الإيمان. ومن كل ذلك نعرف أيضاً سر عدم تأثير تشجيع النساء في ثبات المشركين، ولم يمنعهم عار أسْرِ نسائهم من الهزيمة، وتركوهن في معرض السبي، مع أنهم أخرجوهن لهدف هو عكس ذلك تماماً.

ولكن الأمر بالنسبة للمسلمين (الحقيقيين) كان على عكس ذلك تماماً كما سنرى.

عنصر السرية لتلافي الأخطار المحتملة :

قد رأينا أن النبي (ص) يأمر أبياً بكتمان خبر مسير قريش، ويستفيد من عنصر السرية، كي لا يفسح المجال أمام الحرب النفسية، التي لابد وأن يمارسها اليهود والمنافقون ضد المسلمين؛ وليفوّت الفرصة عليهم، ويحبط مؤامراتهم المحتملة؛ لأنهم في الحقيقة ـ وهم العدو الواقعي ـ هم العدو الأخطر، والمطلع على مواطن الضعف والقوة لدى المسلمين. أي أن إعلان الأمر في وقت مبكر لسوف يستدعي إصراراً على معرفة خطة المواجهة مع العدو، وهذا يسهّل على المتآمرين والخونة وضع الخطط اللازمة لإفشال خطة المسلمين في الدفاع عن أنفسهم. كما أنه يعطي أعداءهم الفرصة لإعلام قريش بالأمر، ويكل الخصوصيات اللازمة لمواجهة خطة المسلمين وإفشالها، أو على الأقل تكبيد المسلمين أكبر عدد ممكن من الخسائر.

وعنصر السرية هذا قد اعتمده النبي (ص) في أكثر من موقف في معركة أحد هذه وغيرها، كما سنرى.

المشركون في طريق المدينة :

ولما انتهت قريش إلى الأبواء، ائتمروا في أن ينبشوا قبر أم محمد (ص)، وقالوا: «فإن النساء عورة؛ فإن يصب من نسائكم أحداً، قلتم: هذه رمة أمك. فإن كان براً بأمه ـ كما يزعم ـ فلعمري لنفادينهم برمة أمه، وإن لم يظفر بأحد من نسائكم، فلعمري ليفدين رمة أمه بمال كثير، إن كان بها براً»[1].

وكانت زعيمة هذا الرأي هند زوجة أبي سفيان، فاستشار أبو سفيان أهل الرأي من قريش، فقالوا: لا تذكر من هذا شيئاً؛ فلو فعلنا نبشت بنو بكر وخزاعة موتانا.

وسارت قريش حتى نزلت بذي الحليفة، وسرحوا إبلهم في زروع المدينة، التي كان المسلمون قد أخلوها من آلة الزرع قبل ذلك، وأرسل النبي (ص) بعض العيون لمراقبتهم، وأرسل أيضاً الحباب بن المنذر سراً لمعرفة عددهم وعدتهم، وقال له: إذا رجعت فلا تخبرني بين أحد من المسلمين، إلا أن ترى في القوم قلة، فرجع إليه فأخبره خالياً، وأمره الرسول (ص) بالكتمان[2].

ونشير نحن هنا إلى أمرين:

الأول: معرفة النبي بواقع أصحابه:

إن سبب أمره(ص) عينه الذي أرسله إليهم بذلك واضح، فإن معرفة المسلمين بعددهم وعدتهم سوف يثبط من عزائم بعضهم، ممن اعتادوا: أن يقيسوا الأمور بالمقاييس المادية، ولم يتفاعلوا بعد مع دينهم

---

(١) المغازي للواقدي ج ١ ص ٢٠٦.

(٢) المغازي للواقدي ج ١ ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨.

وعقيدتهم، بشكل كامل، ولا اطلعوا على تعاليم الإسلام وأهدافه، وارتبطوا بها عقلياً، ووجدانياً، وعاطفياً، وسلوكياً، بنحو اعمق وأقوى، وإنما دخلوا في الإسلام، إما عن طريق الإعجاب، أو القناعة العقلية. ولم يمض على دخولهم فيه إلا فترة قصيرة جداً.

الثاني: الإفلاس على كل صعيد:

إن ما فكر به القرشيون من نبش قبر أمه (ص)، إنما يعبر عن مدى الإسفاف الفكري لدى قريش، حتى إنها لتفكر باتباع أبشع أسلوب وأدناه في حربها مع المسلمين. وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على أمور:

أحدها: إفلاسهم على صعيد المنطق والفكر، وحتى على صعيد الخلق الإنساني، بل والعلاقات والضوابط المعقولة، في المواجهة مع المسلمين الذين هم القمة في كل ذلك.

الثاني: مدى حقدهم الدفين على الإسلام والمسلمين.

الثالث: مدى عمق الجرح، وعنف الصدمة الساحقة التي تلقتها قريش في بدر، ولا تزال تتلقاها على صعيد طرق قوافل تجارتها إلى الشام، ويحتمل إلى الحبشة أيضاً.

النبي (ص) يستشير أصحابه:

ويقول المؤرخون: إنه لما نزل المشركون قرب المدينة، وبث المسلمون الحرس على المدينة، وخصوصاً مسجد الرسول، وأراد (ص) الشخوص، جمع (ص) أصحابه للتشاور في أمر جيش لم يواجه المسلمون مثله من قبل، عدة وعدداً.

ويذكرون أيضاً: أنه (ص) أخبرهم برؤيا رآها، رأى بقراً يذبح، وأن في سيفه ثلمة، وأنه في درع حصينة، فأولَ البقر: بناس من أصحابه

يقتلون. والثلمة: برجل من أهل بيته يقتل. والدرع: بالمدينة. وللرواية نصوص أخرى لا مجال لها.

وإذا كانت رؤيا النبي (ص) من الوحي، وكانت هذه الرواية صحيحة؛ فإن ذلك يكون توطئة لإعلامهم بالموقف الصحيح، وأن عليهم أن يلتزموا بتوجيهات رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلّم» فيما يرتبط بالتخطيط والتنفيذ في المواجهة مع العدو.

ولكنهم اتجهوا في مواقفهم وقراراتهم نحو العكس من ذلك، حيث يقولون: إن ابن أبي قد أشار بالبقاء في المدينة، فإذا أقبل العدو رماه الأطفال والنسوة بالحجارة، وقاتله الرجال بالسكك. وإن أقام في خارج المدينة أقام في شر موضع.

وكان «صلى الله عليه وآله وسلّم» ـ كما يقولون ـ كارهاً للخروج من المدينة أيضاً.

ولكن من لم يشهد بدراً، وطائفة من الشباب المتحمسين الذين ذاقوا حلاوة النصر في بدر، ومعهم حمزة بن عبد المطلب، وأهل السنّ، قد رغبوا بالخروج وأصروا عليه، لأنهم ـ كما يقول البعض ـ يرون خيل قريش وإبلها ترعى زروعهم، وتعيث فيها فساداً.

واحتجوا لذلك: بأن إقامتهم في المدينة ستجعل عدوهم يظن فيهم الجبن، فيجرؤ عليهم. وقالوا: «وقد كنت يوم بدر في ثلاثمائة رجل؛ فأظفرك الله بهم، ونحن اليوم بشر كثير».

بعد أن ذكروا: أن هذا أمر قد ساقه الله إليهم في ساحتهم.

قال نعيم بن مالك: «يا نبي الله، لا تحرمنا الجنة؛ فوالذي نفسي بيده لأدخلنها. فقال له (ص) بم؟ قال: بأني أحب الله ورسوله، ولا أفر من الزحف، فقال له (ص): صدقت.

وقال له أنصاري: متى نقاتلهم يا رسول الله، إن لم نقاتلهم عند شعبنا.

وقال آخر: إني لا أحب أن ترجع قريش إلى قومها لتقول: حصرنا محمداً في صياصي يثرب وآطامها؛ فتكون هذه جرأة لقريش، وها هم قد وطأوا سعفنا، فإذا لم نذبّ عن عرضنا فلم ندّرع؟!

وقال آخر: إن قريشاً مكثت حولاً تجمع الجموع، وتستجلب العرب في بواديها، ومن اتبعها من أحابيشها، ثم جاؤونا قد قادوا الخيل، واعتلوا الإبل، حتى نزلوا ساحتنا؛ فيحصروننا في بيوتنا وصياصينا؟ ثم يرجعون وافرين لم يُكلَموا؟!؛ فيجرّؤهم ذلك علينا، حتى يشنوا الغارات علينا، ويصيبوا أطلالنا، ويضعوا العيون والأرصاد علينا. مع ما قد صنعوا بحروثنا، ويجترىء علينا العرب حولنا إلخ . . . وثمة كلام آخر هنا يروى عن حمزة وغيره لا مجال له هنا، فمن أراد المزيد فعليه بمراجعة المصادر.

وأبى كثير من الناس إلا الخروج، فنزل (ص) على رأي غالبية الناس، ثم دخل بيته ليلبس لامة الحرب. ففي هذه الأثناء أدركهم الندم على إصرارهم على النبي (ص) واستكراههم له، وهو أعلم بالله وما يريد، ويأتيه الوحي من السماء.

فلما خرج النبي (ص) عليهم وقد لبس لامته، ليتوجه مع أصحابه إلى حرب قريش، قالوا: يا رسول الله، أمكث كما أمرتنا. فقال «صلى الله عليه وآله وسلّم»: ما ينبغي لنبي إذا أخذ لامة الحرب أن يرجع حتى يقاتل[1].

---

(١) راجع جميع ما تقدم في: السيرة النبوية لإبن هشام ج ٣ ص ٦٧ و٦٨، وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٢١ و٤٢٢، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢١٨ و٢١٩، وتاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ١٨٨ ـ ١٩٠، والمواهب اللدنية ج١ ص ٩٢ و٩٣، =

ثم وعظهم وعقد الألوية، وخرج بجيشه لحرب قريش وجمعها.

وفي رواية: أنهم لما صاروا على الطريق قالوا: نرجع.

قال (ص): ما كان ينبغي لنبي إذا قصد قوماً أن يرجع عنهم.

وها هنا أمور هامة لابد من التنبيه عليها.

ألف: هل النبي (ص) يحتاج إلى رأي أحد؟!

قد تقدم في الجزء السابق من هذا الكتاب في فصل سرايا وغزوات قبل بدر؛ وفي نفس موقعة بدر بعض الكلام حول إستشارة الرسول الأكرم «صلى الله عليه وآله وسلّم» لأصحابه في أمر الحرب.

ونعود هنا للإشارة إلى هذا الأمر من جديد، على أمل أن يضم القارىء ما كتبناه هنا وهناك، وهنالك، بعضه إلى بعض، ويستخلص النتيجة المتوخاة من طرح هذا الموضوع، والإشارة إلى جوانبه المختلفة فنقول:

إنه لا ريب في حسن المشاورة وصلاحها. وقد ورد الحث عليها في الأخبار الكثيرة. ويقولون: إن النبي (ص) قد شاور أصحابه في أكثر من مرة ومناسبة، حتى نزل في مناسبة حرب أحد قوله تعالى:

﴿فبما رحمة من الله لنت لهم. ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك؛ فاعف عنهم، واستغفر لهم، وشاورهم في الأمر؛ فإذا عزمت فتوكل على الله، إن الله يحب المتوكلين. إن ينصركم الله فلا غالب لكم

= ودلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٢٠٨ و ٢٢٦ ط دار الكتب العلمية، والسيرة النبوية لإبن إسحاق ص ٣٢٤، والكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٥٠، والسيرة النبوية لإبن كثير ج ٣ ص ٢٥ و ٢٦، والبداية والنهاية ج ٤ ص ١٢ و١٣، وراجع ص ١١ والمغازي للواقدي ج ١ ص ٢٠٨ ـ ٢١١ و ٢١٤، والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٢١ ـ ٢٣، وسيرة المصطفى ص ٣٩٥ و ٣٩٦، ومجمع الزوائد ج ٦ ص ١٠٧.

إلخ﴾[١].

وعن ابن عباس بسند حسن: لما نزلت: وشاورهم في الأمر، قال رسول الله (ص): أمّا إن الله ورسوله لغنيان عنها، ولكن جعلها الله رحمة لأمتي؛ فمن استشار منهم لم يعدم رشداً، ومن تركها لم يعدم غياً[٢].

والسؤال هنا هو:

إنه إذا كان الله ورسوله غنيين عنها، فلماذا يأمر الله تعالى نبيه بأن يشاور أصحابه في الأمر؟!.

وسؤال آخر، وهو: هل يمكن بضم الآية التي في سورة الشورى: ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾[٣]، وبضم سائر الروايات التي تحث على الإستشارة ـ هل يمكن ـ أن نفهم من ذلك: ضرورة اتخاذ الشورى كمبدأ في الحكم والسياسة، وفي الإدارة، وفي سائر الموارد والمواقف، حسبما تريد بعض الفئات أن تتبنّاه، وتوحي به على أنه أصل إسلامي أصيل ومطرد؟!.

الجواب عن السؤال الأول:

أما الجواب عن السؤال الأول: فنحسب أن ما تقدم في الجزء السابق من هذا الكتاب في فصل سرايا وغزوات قبل بدر، وكذا ما تقدم من الكلام حول الشورى في بدر[٤] كاف فيه، ونزيد هنا تأييداً لما ذكرناه هناك ما يلي:

---

(١) آل عمران: ١٥٩ ـ ١٦٠.

(٢) الدر المنثور ج٢ ص٨٠ عن ابن عدي، والبيهقي في شعب الإيمان.

(٣) سورة الشورى: ٣٨.

(٤) راجع غزوة بدر.

١ ـ قد يقال: إن بعض الروايات تفيد: أن النبي «صلى الله عليه وآله وسلّم» لم يكن يستشير أصحابه إلا في أمر الحرب.

فقد روي بسند رجاله ثقات، عن عبد الله بن عمرو، قال: كتب أبو بكر إلى عمرو بن العاص: إن رسول الله شاور في الحرب، فعليك به[١].

وإن كنا نرى: أن هذا لا يفيد نفي استشارته (ص) في غير الحرب.

٢ ـ إن قوله تعالى في سورة آل عمران: (وشاورهم في الأمر) خاص بالمشاورة في الحرب، لأن اللام في الآية ليست للجنس بحيث تشمل كل أمر، بل هي للعهد، أي شاورهم في هذا الأمر الذي يجري الحديث عنه، وهو أمر الحرب، كما هو واضح من الآيات السابقة واللاحقة؛ فالتعدي إلى غير الحرب يحتاج إلى دليل.

٣ ـ إن الآية تنص على أن استشارة النبي «صلى الله عليه وآله وسلّم» لأصحابه لا تعني أن يأخذ برأيهم حتى ولو اجتمعوا عليه؛ لأنها تنص على أن اتخاذ القرار النهائي يرجع إلى النبي (ص) نفسه، حيث قال تعالى: ﴿وشاورهم في الأمر، فإذا عزمت فتوكل على الله﴾.

٤ ـ لقد ذكر العلامة السيد عبد المحسن فضل الله: أن الأمر في الآية ليس للوجوب؛ وإلا لكانت بقية الأوامر في الآية كذلك، ويلزم منه وجوب العفو عن كبائرهم حتى الشرك.

وإذا كان الضمير في الآية يرجع إلى الفارين فهو يعني: أن الشورى تكون لأهل الكبائر من أمته، مع أن الله قد نهى رسوله عن إطاعة الآثم،

---

(١) مجمع الزوائد ج ٥ ص ٣١٩ عن الطبراني، وحياة الصحابة ج ٢ ص ٤٨ عن كنز العمال ج ٢ ص ١٦٣ عن البزار والعقيلي وسنده حسن، والدر المنثور ج ٢ ص ٩٠ عن الطبراني بسند جيد عن ابن عمرو.

والكفور، ومن أغفل الله قلبه[١] فالحق: أن الأمر وارد عقيب توهم الحظر عن مشاورة هؤلاء، ليبيح مشاورتهم، ومعاملتهم معاملة طبيعية[٢].

٥ ـ إن رواية ابن عباس المتقدمة تفيد: أن استشارته (ص) أصحابه لا قيمة لها على صعيد اتخاذ القرار؛ لأن الله ورسوله غنيان عنها، لأنهما يعرفان صواب الآراء من خطئها، فلا تزيدهما الإستشارة علماً، ولا ترفع جهلاً، وإنما هي أمر تعليمي أخلاقي للأمة؛ بملاحظة فوائد المشورة لهم؛ لأنها تهدف إلى الإمعان في استخراج صواب الرأي بمراجعة العقول المختلفة.

فعن علي أمير المؤمنين «عليه السلام»: من استبد برأيه هلك، ومن شاور الرجال شاركها في عقولها[٣].

وعنه أيضاً: الإستشارة عين الهداية، وقد خاطر من استغنى برأيه[٤].

وعن أنس عن النبي (ص): ما خاب من استخار، وما ندم من استشار[٥]. إلى غير ذلك مما لا مجال لتتبعه.

وإذا كانت الإستشارة أمراً تعليمياً أخلاقياً، فلا محذور على الرسول الأعظم «صلى الله عليه وآله وسلّم» فيها.

---

(١) راجع: سورة الكهف آية ٢٩، والأحزاب آية ٥٦، والدهر آية ٣٤، وأقول: وتنافي أيضاً الآية التي في سورة الشورى التي خصت الشورى بالمؤمنين الذين لهم صفات معينة.

(٢) راجع: الإسلام وأسس التشريع ص ١١١ ـ ١١٣ للعلامة السيد عبد المحسن فضل الله.

(٣) نهج البلاغة ج ٣ ص ١٩٢ الحكمة رقم ١٦١.

(٤) نهج البلاغة ج ٣ ص ٢٠١ الحكمة رقم ٢١١.

(٥) الدر المنثور ج ٢ ص ٩٠ عن الطبراني في الأوسط، وأمالي الطوسي ص ٨٤.

ب: من أهداف استشارته (ص) لأصحابه:

ويقول الشهيد السعيد، المفكر والفيلسوف الإسلامي الكبير، آية الله الشيخ مرتضى مطهري، قدس الله نفسه الزكية:

إن النبي (ص) وهو في مقام النبوة، وفي حين كان أصحابه يتفانون في سبيله، حتى ليقولون له: إنه لو أمرهم بأن يلقوا أنفسهم في البحر لفعلوا، فإنه لا يريد أن ينفرد في اتخاذ القرار، لأن أقل مضار ذلك هو أن لا يشعر أتباعه بأن لهم شخصيتهم وفكرهم المتميز، فهو حين يتجاهلهم كأنه يقول لهم: إنهم لا يملكون الفكر والفهم والشعور الكافي، وإنما هم مجرد آلة تنفيذ لا أكثر ولا أقل، وهو فقط يملك حرية إصدار القرار، والتفكير فيه دونهم.

وطبيعي أن ينعكس ذلك على الأجيال بعده (ص)، فكل حاكم يأتي سوف يستبد بالقرار، وسيقهر الناس على الإنصياع لإرادته، مهما كانت، وذلك بحجة أن له في رسول الله (ص) أسوة حسنة.

مع أنه ليس من لوازم الحكم الإستبداد بالرأي، فقد استشار النبي (ص) ـ وهو معصوم ـ أصحابه في بدر وأحد[1] إنتهى.

ونزيد نحن هنا: أن ظروف وأجواء آية: ﴿**وشاورهم في الأمر**﴾. تشعر بأنه قد كان ثمة حاجة لتأليف الناس حينئذ، وجلب محبتهم وثقتهم، وإظهار العطف والليونة معهم، وأن لا يفرض الرأي عليهم فرضاً، رحمة لهم، وحفاظاً على وحدتهم واجتماعهم، ولمّ شعثهم، وجمع كلمتهم، وكبح جماحهم؟! ؛ فالآية تقول: ﴿**فبما رحمة من الله لنت لهم، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك؛ فاعف عنهم، واستغفر لهم، وشاورهم في الأمر**﴾ فكأنه كان قد بدر من أصحابه أمر سيء يستدعي

(١) جريدة «جمهوري إسلامي» الفارسية عدد ٣٠ ربيع الأول ١٤٠٠ هـ.

العفو عنهم واللين معهم، وإرجاع الإعتبار إليهم، ليطمئنوا إلى أن ما بدر منهم لم يؤثر على مكانتهم عنده، فلا داعي لنفورهم منه.

هذا كله عدا عما قدمناه حين الكلام على بدر، وعلى السرايا التي سبقتها، في الجزء السابق من هذا الكتاب، فليراجع.

وأما الجواب عن السؤال الثاني:

فنشير إلى ما يلي:

١ ـ ما قدمناه: من أن قوله تعالى: **﴿وأمرهم شورى بينهم﴾** ليس إلا أمراً تعليمياً أخلاقياً، وليس إلزامياً يوجب التخلف عنه العقاب، وإنما يمكن أن يوجب وقوع الإنسان في بعض الأخطاء، فيكون عليه أن يتحمل آثارها، ويعاني من نتائجها.

٢ ـ إن الضمير في «أمرهم» يرجع إلى المؤمنين، والمراد به الأمر الذي يرتبط بهم؛ فالشورى إنما هي في الأمور التي ترجع إلى المؤمنين وشؤونهم الخاصة بهم، وليس للشرع فيها إلزام أو مدخلية، كما في أمور معاشهم ونحوها، مما يُفتَرَض في الإنسان أن يقوم به. أما إذا كان ثمة إلزام شرعي فـ**﴿ما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة﴾**[١] **﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾**[٢].

فمورد الحكم، والسياسة، والإدارة، وغير ذلك، لا يمكن أن يكون شورائياً إلا إذا ثبت أن الشارع ليس له فيه حكم، ونظر خاص.

وقد قال العلامة الطباطبائي مد الله في عمره: «والروايات في المشاورة كثيرة جداً، وموردها ما يجوز للمستشير فعله وتركه بحسب

---

(١) الأحزاب آية: ٣٦.

(٢) النور آية: ٥٤.

المرجحات. وأما الأحكام الإلهية الثابتة، فلا مورد للإستشارة فيها، كما لا رخصة فيها لأحد، وإلا كان اختلاف الحوادث الجارية ناسخاً لكلام الله تعالى»[١].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿وشاورهم في الأمر﴾ ظاهر في كون ذلك في ظرف كونه حاكماً ووالياً عليهم؛ فإن عليه أن يستشيرهم في هذا الظرف. وهذا لا يعني أبداً أن يكون نفس الحكم شورائياً وانتخابياً، بأي وجه. هذا كله، عدا عن احتمال أن يكون هذا الأمر وارداً في مقام توهم الحظر، فلا يدل على أكثر من إباحة المشاورة، ولا يدل على الإلـزام بها. وهو احتمال قوي كما أوضحناه في ما سبق.

٤ ـ إن القرار النهائي يتخذه المستشير نفسه، ولربما وافق رأي الأكثر، ولربما خالفهم. ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿فإذا عزمت فتوكل على الله﴾. وليس في الآية إلزام برأي الأكثرية، بل ولا برأي الكل لو حصل إجماعهم على رأي واحد.

٥ ـ إن هذه الشورى التي دلّ عليها قوله تعالى: ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾ ليست لكل أحد، وإنما هي خاصة بأولئك المؤمنين الذين لهم تلك الصفات المذكورة في الآيات قبل وبعد هذه العبارة، وليس ثمة ما يدل على تعميمها لغيرهم، بل ربما يقال بعدم التعميم قطعاً، فقد قال تعالى: ﴿فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا، وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون. والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، وإذا ما غضبوا هم يغفرون. والذين استجابوا لربهم، وأقاموا الصلاة، وأمرهم شورى بينهم، ومما رزقناهم ينفقون. والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون﴾[٢].

---

(١) تفسير الميزان ج ٤ ص ٧٠.

(٢) الشورى ٣٦ ـ ٣٩.

فهؤلاء هم أهل الشورى[١]، وليس لغيرهم الحق في أن يشاركهم فيها؛ لأن ذلك الغير، لا يؤمَن على نفسه؛ فكيف يؤمن على مصالح العباد، ودمائهم، وأموالهم، وأعراضهم؟!.

ج : نظرية: خلافة الإنسان، وشهادة الأنبياء:

ويقول الشهيد السعيد، المفكر الإسلامي، آية الله السيد محمد باقر الصدر، قدس الله نفسه الزكية، ما ملخصه:

إن الله عز وجل قد جعل الخلافة لآدم (ع)، لا بما أنه آدم، بل بما أنه ممثل لكل البشرية، فخلافة الله في الحقيقة هي للأمة وللبشر أنفسهم، فقد قال تعالى: ﴿**وإذ قال ربك للملائكة: إني جاعل في الأرض خليفة، قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟ قال: إني أعلم ما لا تعلمون**﴾[٢].

كما أن المراد بالأمانة في قوله تعالى: ﴿**إنا عرضنا الأمانة على السماوات، والأرض، والجبال، فأبين أن يحملنها، وأشفقن منها، وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً**﴾[٣] هذه الخلافة بالذات، وهي التي تعني الإدارة والحكم في الكون.

---

(١) واحتمال: أن يكون المعنى: ما عند الله خير وأبقى لجماعات مختلفة وهم:

١ ـ الذين آمنوا.

٢ ـ الذين يجتنبون كبائر الإثم إلخ.. هذا الإحتمال خلاف الظاهر هنا، فإن المراد أن الذين يجمعون هذه الصفات هم الذين يكون ما عند الله خير وأبقى لهم. وإلا فلو كان أحد ينتصر على من بغى عليه ولكنه غير مؤمن مثلاً، فلا شك في أن ما عند الله ليس خيراً وأبقى له. وكذا لو كان أمرهم شورى بينهم وهم غير مؤمنين.

(٢) البقرة: ٣٠.

(٣) الأحزاب: ٧٢.

واستشهد على ذلك أيضاً بقوله تعالى: ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض، فاحكم بين الناس بالحق﴾(١). وبقوله تعالى: ﴿إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح﴾(٢). وبقوله تعالى: ﴿ثم جعلناكم خلائف في الأرض﴾(٣).

ورتب على ذلك: أنه بعد وفاة النبي (ص)، وفقد الإمام، وتحرر الأمة من الطاغوت، تمارس الأمة دورها في الخلافة الزمنية، ويكون دور المجتهد المرجع هو الشهادة والرقابة على الأمة.

وقال ما ملخصه: إن الله هو رب الأرض وخيراتها، ورب الإنسان والحيوان، فالإنسان مستخلف على كل ذلك. ومن هنا كانت الخلافة في القرآن أساساً للحكم. وقد فرّع الله الحكم بين الناس على جعل داود خليفة. ولما كانت الجماعة البشرية هي التي مُنِحت ـ ممثلة بآدم ـ هذه الخلافة، فهي إذن المكلفة برعاية الكون، وتدبير أمر الإنسان، والسير بالبشرية في الطريق المرسوم للخلافة الربانية.

وهذا يعطي مفهوم الإسلام الأساسي عن الخلافة، وهو أن الله تعالى قد أناب الجماعة البشرية في الحكم، وقيادة الكون وإعماره، إجتماعياً وطبيعياً. وعلى هذا الأساس تقوم نظرية حكم الناس لأنفسهم، وشرعية ممارسة الجماعة البشرية حكم نفسها بوصفها خليفة عن الله.

وفي عملية إعداد وتربية الأمة يتولى النبي والإمام مسؤولية الرقابة والشهادة على الأمة، ومسؤولية الخلافة؛ ليهيء الأمة لتحمل مسؤولياتها في الوقت المناسب. وبعد أن فقد الإمام (ع)؛ بسبب ظروف معينة

---

(١) ص: ٢٦.

(٢) الأعراف: ٦٩.

(٣) يونس: ١٤.

تعرضت لها الأمة؛ فإن المرجع ـ غير المعصوم ـ لابد وأن يتولى أمر الخلافة والشهادة ما دامت الأمة محكومة للطاغوت، ومُقصاةً عن حقها في الخلافة العامة.

«وأما إذا حررت الأمة نفسها، فخط الخلافة ينتقل إليها؛ فهي التي تمارس الخلافة السياسية والإجتماعية في الأمة، بتطبيق أحكام الله، وعلى أساس الركائز المتقدمة للإستخلاف الرباني. وتمارس الأمة دورها في الخلافة في الإطار التشريعي للقاعدتين القرآنيتين التاليتين:

﴿وأمرهم شورى بينهم﴾.

﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر﴾.

فإن النص الأول يعطي للأمة صلاحية ممارسة أمورها عن طريق الشورى، ما لم يرد نص خاص على خلاف ذلك. والنص الثاني يتحدث عن الولاية، وأن كل مؤمن ولي الآخرين. ويريد بالولاية تولي أموره، بقرينة تفريع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عليه. والنص ظاهر في سريان الولاية بين كل المؤمنين والمؤمنات بصورة متساوية.

وينتج عن ذلك: الأخذ بمبدأ الشورى، وبرأي الأكثرية عند الاختلاف.

وهكذا، وزّع الإسلام في عصر الغيبة مسؤوليات الخطين بين المرجع والأمة، وبين الإجتهاد الشرعي والخلافة الزمنية»[1] إلى آخر كلامه قدس الله نفسه الزكية.

---

(١) هذا محصل ما جاء في كتاب: خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء للشهيد الصدر، والفقرات الأخيرة هي في ص٥٣/ ٥٤.

مناقشة ما تقدم :

ونحن نسجل هنا النقاط التالية:

أولاً : إن الآية القرآنية التي استدل بها رحمه الله تقول: ﴿**والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ويطيعون الله ورسوله، أولئك سيرحمهم الله، إن الله عزيز حكيم**﴾[1].

فإذا كان تفريع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دليلاً على أن المراد بالولاية هو تولي أمور بعضهم البعض، كما ذكره قدس الله نفسه الزكية، فما هو وجه تفريع إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة على ذلك؟!.

ولم لا يفهم من الآية: أنها ـ فقط ـ في مقام إعطاء حق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للمؤمنين جميعاً؛ فهي تجعل لهم الولاية بهذا المقدار، لا أكثر؟!

بل لم لا يفهم منها: أنها في مقام إعطائهم حق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بسبب محبة بعضهم بعضاً، أو بسبب كون بعضهم تابعاً لبعض، ومطيعاً له، أو بسبب نصرته له، ونحو ذلك؛ فقد ورد للولي معان كثيرة، ومنها: المحب. والصديق، والنصير.

والولي: فعيل، بمعنى فاعل، من وليه إذا قام به، قال تعالى: ﴿**الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت، يخرجونهم من النور إلى الظلمات**﴾[2].

بل إن من يلاحظ آيات إعطاء الولاية للمؤمنين وسواها من الآيـات، يخرج بحقيقة: أن الله سبحانه يريد للناس المؤمنين أن يكونوا أمة واحدة، وبمنزلة الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء. وكل

---

(١) التوبة: ٧١.
(٢) البقرة: ٢٥٧.

هذه الأعضاء للجسد الواحد إنما تحافظ على ذلك الواحد بكل ما تقدر عليه، وذلك بالدفاع عنه؛ وبالنصيحة لجماعة، ولأئمة المسلمين.

فالله ولي الذين آمنوا بالتشريع، وحفظ المصالح والحكم، ولله الأمر من قبل ومن بعد، وللنبي (ص) وللإمام (ع) الولاية أيضاً بجعل من الله، بهدف تدبير أمورهم وقيادتهم. والمؤمنون المرؤوسون للنبي (ص) وللإمام (ع) بعضهم أولياء بعض في النصيحة وحفظ الغيب، والإهتمام بأمور بعضهم بعضاً، والنصرة، والمعونة، فليس معنى الولاية هو الحكومة لكل واحد منهم على الآخر، أوعلى المجتمع، بل ولي المجتمع والحاكم فيه هو الله سبحانه.

وكخلاصة لما تقدم نقول:

إن كل هذه المعاني محتملة في الآية المشار إليها ـ إن لم يكن من بينها (وهو الأخير) ما هو الأظهر ـ وليس فيها ما يوجب تعيّن كون الولي فيها بمعنى الحاكم، والمتولي للأمر.

وثانياً: لو كانت هذه الآية تعطي حقاً للمؤمنين في أن يحكم بعضهم بعضاً؛ فاللازم أن تعطي الآيات الأخرى هذا الحق بالذات للكفار، وتصير حكومتهم على بعضهم البعض شرعية!! فقد قال تعالى:

﴿إن الذين آمنوا، وهاجروا، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، والذين آووا، ونصروا، أولئك بعضهم أولياء بعض. والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء، حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر، إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق، والله بما تعملون بصير. والذين كفروا بعضهم أولياء بعض، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير﴾[١].

---

(١) الأنفال: ٧٢ و ٧٣.

فبقرينة المقابلة في الآية هنا بين ولاية المؤمنين التي نشأت عنها مسؤوليات النصر وغير ذلك من أمور، تدل على أن المراد بالولاية تولي الأمور، وبين الآية الدالة على ولاية الكفار بعضهم لبعض، تكون النتيجة هي: جعل الحاكمية للكفار أيضاً بالنسبة لبعضهم فيما بينهم، لو كان المراد بالولاية هو تولي الأمور كما يريد المستدل أن يقول.

ويؤيد ذلك أيضاً قوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء، بعضهم أولياء بعض﴾**(١) وقوله تعالى: **﴿إنّا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾**(٢). وقال تعالى: **﴿وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض، والله ولي المتقين﴾**(٣). إلى غير ذلك من الآيات التي بهذا المضمون. حيث إن المقصود هو النهي عن إطاعة الشياطين، وعن الإنصياع لأوامر اليهود والنصارى.

بل إن الآية الأخيرة تنفي الولاية عن المؤمنين، وتخصها بالله تعالى. فلو كان المراد بالولاية الحكم، لكانت ولاية الكفار شرعية كما قلنا.

وهذا مما لا يمكن القول به ولا المساعدة عليه، فلابد من القول بأن الولاية التي يترتب عليها الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ليست بهذا المعنى، بل هي بمعنى النصيحة، وحفظ الغيب، وأنها ولاية بهذا المقدار لا أكثر.

والقول: بأن هذه الآيات ونظائرها ناظرة إلى أن من طبيعة الكفار أن يتولى بعضهم بعضاً. وليس في مقام جعل ولاية شرعية لهم.

---

(١) المائدة: ٥١.

(٢) الأعراف: ٢٧.

(٣) الجاثية: ١٩.

يقابله القول: بأنه لم لا تكون الآيات التي تتعرض للولاية بين المؤمنين ناظرة إلى نفس هذا المعنى أيضاً؟!.

وإذا كانت آيات ولاية الكفار يراد منها الولاية بمعنى النصرة، والمحبة، ونحو ذلك.

فلتكن تلك الآيات لها نفس هذا المعنى أيضاً: فإنها كلها لها سياق واحد، وتريد أن تنفي وتثبت أمراً واحداً.

وثالثاً: لو سلمنا: أن معنى الآية هو: أن كل مؤمن ولي للآخرين، وسلمنا أن المراد بالولاية ليس هو حفظ مصالح الأمة الإسلامية بالنصيحة، والمعونة، وحفظ الغيب، وغير ذلك، مع أن ذلك هو الظاهر. وقبلنا بأن المراد بالولاية ولاية الحكومة، فحينئذ لنا أن نسأل هل يعني ذلك: أن الآية تجعل كل مؤمن حاكماً على الآخرين، ومحكوماً لهم في آن واحد؟ أم أن الآية تريد فقط: أن تعطي للبعض الحق في أن يحكم ويتسلط على البعض الآخر؟!. من دون أن يكون للمحكوم حق في ذلك. وبماذا ترجّح هذا على ذاك، دون العكس يا ترى؟!.

ولو سلمنا أن الظاهر هو الثاني، فما هي شرائط هذه الحكومة؟ وما هي ظروفها؟ وما الذي يجب توفره في هذا الحاكم؟!: العلم؟ الإجتهاد؟ العدالة؟ إلخ. ومن الذي يعين هذا الحاكم، ومن يختاره؟ هل هو المعصوم؟ أم غيره؟.

ورابعاً: بالنسبة لآيات الإستخلاف في الأرض والشهادة على الناس نشير إلى:

١ ـ إنه ليس في آية سورة الأحزاب: أن المراد بالأمانة: الخلافة. وقد قيل: إنها التكاليف. وقيل: هي العقل، وقيل: هي الولاية الإلهية. وقيل: هي معرفة الله. إلى غير ذلك من الأقوال[١].

(١) راجع: تفسير الميزان ج ١٦ ص ٣٤٨ ـ ٣٥٢ في تفسير الآية.

والجزم بأن المراد هو الخلافة، ثم ترتيب أحكام واستنتاجات معينة على ذلك، ليس بأولى من الجزم بغيره، فلابد من ترجيح أحد هذه الوجوه بالقرائن. وليس ثمة ما يوجب الإلتزام بخصوص هذا المعنى دون سواه مما ذكر.

بل إن في الآية التي تلي تلك الآية ما يؤيد أن المراد بالآية أمراً اعتقادياً، أو نحو ذلك، وليس الخلافة، فقد قال تعالى: ﴿**إنا عرضنا الأمانة على السماوات، والأرض، والجبال؛ فأبين أن يحملنها، وأشفقن منها، وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً. ليعذب الله المنافقين والمنافقات، والمشركين والمشركات، ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات، وكان الله غفوراً رحيماً**﴾.

٢ ـ بالنسبة لآية استخلاف آدم، ليس فيها ما يشير إلى أن المراد هو استخلاف النوع البشري، إلا قول الملائكة: أتجعل فيها من يفسد فيها، ويسفك الدماء؟! وهذا لا يدل على أكثر من أن الملائكة قد فهموا: أن هذا المخلوق الجديد (الخليفة) له طبيعة فيها مقتضيات الشر، تقتضي ما ذكروه، ولا تدل على أن الخلافة قد منحت لكل من له هذه الطبيعة.

٣ ـ ثم، ما المراد بهذا الإستخلاف؟ هل هو الحكم والإمارة؟، أم هو التسليط على الكون وما فيه في حدود قدراته، واعطاؤه حق التصرف في ما خلقه الله، على قاعدة قوله تعالى: ﴿**هو أنشأكم من الأرض، واستعمركم فيها**﴾ ولذلك هو يطلب منهم شكر هذه النعمة، والإيمان بالله تعالى؟ الظاهر هو الثاني.

ويؤيد ذلك: أن من يطالع آيات الإستخلاف يجد: أن أكثرها ناظر إلى البشر جميعاً، مؤمنهم وكافرهم، ثم هي تهدد الكافرين، وتتوعدهم.

ومما يؤيد أن يكون المراد بالخلافة في أكثر الآيات، هو إعمار الكون: أنه إذا كان البشر خلفاء؛ فهم خلفاء على أي شيء؟! إنهم خلفاء

ووكلاء على غير أنفسهم؛ إذ لا يعقل أن يكون الشيء خليفة على نفسه. فالبشرية لها خلافة على غيرها مما في الكون.

وهذا يؤيد أن يكون معنى الخلافة ليس هو الإمارة.

٤ ـ وفي مقابل ذلك نجد: أنه تعالى لم يستخلف المؤمنين فعلاً، وإنما وعدهم بالإستخلاف حيث قال: **﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض﴾**[1].

فالجمع بين هذه الآية، والآيات الأخرى، يحتّم علينا أن نقول: إن المراد بآيات «خلائف» ونحوها، هو النيابة في إعمار الكون، والتمكين من التصرف في الطبيعة. والمراد من هذه الآية الأخيرة هو الحكم والسلطان، فهذه الآية أدل دليل على أن الخلافة بمعنى الحكم والسلطان لم تمنح للبشر عامة، وإنما وعد الله المؤمنين بها في الوقت المناسب. والظاهر: أن ذلك سيكون في زمن ظهور المهدي عليه الصلاة والسلام.

٥ ـ إن آية استخلاف داود، وتفريع الحكم بين الناس بالحق على هذه الخلافة، التي لابد وأن يكون معناها الحكم والسلطان، لا تدل على جعل الخلافة لكل البشر؛ فلعل كونه نبياً لم يتلبّس بشيء من الظلم أبداً ـ كما قال تعالى: **﴿لا ينال عهدي الظالمين﴾**[2] ـ له مدخلية في استحقاق هذا المنصب الخطير؛ لأن نيله درجة النبوة، إنما هو لأجل أنه يحمل خصائص معينة ـ كالعصمة ونحوها ـ أهّلته لذلك الأمر الخطير الذي يتفرع عليه الحكم بالحق.

٦ ـ **إننا نلاحظ**: أنه ليس في جميع الآيات التي استعملت لفظ: «خليفة»، ومشتقاته ما يدل على أن هذا المستخلف هو خليفة لله لا لغيره. بل ذكرت الآيات: أن الله تعالى قد جعل خلفاء، ولم تبين: أنهم

---

(١) النور: ٥٥.

(٢) البقرة: ١٢٤.

خلفاء لمن؟

فلعل المراد: أن آدم «عليه السلام» قد جاء لإعمار الأرض، وقد خلف من كان عليها من المخلوقات قبله «عليه السلام». وعلى هذا فلا مجال للإستدلال بتلك الآيات على ما أراده رحمه الله.

٧ ـ ولو سلمنا، فإن الإستخلاف في الأرض، ليس معناه جعل جميع المناصب الإلهية لهذا المستخلَف. وليس في هذا اللفظ ما يفيد عموم المنزلة؛ بل هو ينصرف إلى نوع معين من الأمور؛ فمثلاً لو قيل: فلان استخلف فلاناً على أهله؛ فإنه ينصرف إلى الإستخلاف في أمور معينة يمكن الإستخلاف فيها. ولا يمكن أن يعني ذلك ثبوت كل حق كان لذاك لهذا، فإن الإستخلاف حكم يجري في كل مورد قابل لذلك، أو في الموارد التي ينصرف إليها الكلام بحسب خصوصيات المورد، وبحسب حالات الخطاب. ولا يمكن أن يتمسك بإطلاق الإستخلاف لإثبات قابلية ما يشك في قابليته.

وخامساً: إن قوله تعالى: ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾، يدل على أن الأمور الراجعة لهم هي التي يمكن أن يمارسوا فيها حق الشورى؛ فلابد أولاً من إثبات: أن مسألة الحكم، والتصرف في أمور الغير حق لهم. ليمكنهم أن يفصلوا فيها عن طريق مبدأ الشورى، ولا يمكن للحكم أن يثبت موضوعه ويوجده، كما أشرنا إليه آنفاً.

بل إن لدينا ما يدل على أن الحكومة ليست حقاً للناس، ولا يرجع البتّ فيها إليهم. وهو ما تقدم حين الكلام عن عرض النبي (ص) دعوته على القبائل، حيث قال لبني عامر: الأمر لله يضعه حيث يشاء. وسيأتي في غزوة بئر معونة: أنه (ص) قد قال ذلك لعامر بن الطفيل أيضاً.

ثم هناك مقبولة ـ بل صحيحة ـ عمر بن حنظلة التي تقول: «ينظران من كان منكم ممن قد روى حديثنا، ونظر في حلالنا وحرامنا، وعرف

أحكامنا، فليرضوا به حكماً، فإني قد جعلته عليكم حاكماً[١]» وكذا قوله: العلماء حكام على الناس، وروايات كثيرة أخرى.

ولم يعين في الروايات: أن يكون ذلك في زمن الطاغوت، أو في ما بعد الإطاحة به، ولا صورة رقي الأمة إيمانياً وفكرياً، ولا عدمها.

وسادساً: إن هذه الشورى لا يفهم منهـا إلا مبدأ كلي مجمـل. ولا تدل على أنه لو خالف بعض الأمة فيما يراد إجراء مبدأ الشورى فيه. فهل ينفذ حكم الأكثرية على تلك الأقلية؟ أم لابـد من إرضاء الجميع في أي تصرف، وأية قضية. وأنه لو تساوت الآراء فماذا يكون مصير الشورى؟ إلى غير ذلك مما يرتبط بشرائط الشورى وحدودها، ومواردها.

وأخيراً، فلو أنـه رحمـه الله استـدل على ولايـة الفقيـه بقـول أميـر المؤمنين «عليه السلام»: إن أحق الناس بهذا الأمر أقواهم عليه، وأعلمهم بأمر الله فيه[٢]. وبصحيحة عمـر بن حنظلة المشـار إليها آنفـاً لكان أولى، فإنها تقرر: أن الحكم حق للفقيه الجامع للشرائط فقط، ولا يحق لغيره أن يتصدى له، حيث قال «عليه السلام»: «فإني قد جعلته عليكم حاكماً».

د: ما هو رأي النبي (ص) في أحد؟

غالب الروايات، بل كلهـا متفقة على أن النبي «صلى الله عليـه وآله وسلّم» كان يرجح البقاء في المدينة، ولكن إصرار أصحابه هو الـذي دعاه إلى العدول عن هذا الرأي.

ولكن العـلامة السيـد الحسني أيده الله تعـالى يـرى: أن النبي كـان

---

(١) الوسائل ج ١٨ باب ١١ من أبواب صفات القاضي حديث ١. والرواية معتبرة جداً؛ فإن عمر بن حنظلة شيخ كبير روى عنه عدد كبير من الثقات الكبار والأعيان، بل لم يرو عنه ضعيف إلا رجل واحد. ومن بين من روى عنه ـ وهم كثير ـ من لا يروي إلا عن ثقة ـ كما قيل ـ كابن بكير وصفوان الجمال.

يرى الخروج إلى العدو، عكس رأي عبد الله بن أبي بن سلول، وإنما استشارهم (ص) ليختبر نواياهم، ويستدل على ذلك بما ملخصه:

إن ملاقاة جيش مكة داخل المدينة سيمكنهم من إحتلالها خلال ساعات معدودة؛ لأن المنافقين، والمرتابين من سكان المدينة ـ وعددهم كثير، وكانوا على اتصال دائم معهم ـ سيعاونونهم على النبي (ص) والمسلمين. ولا يعقل أن يُخلص ابن أبيّ ومن معه من المنافقين والمرتابين من المهاجرين والأنصار في الدفاع عن محمد (ص) ورسالته، وهم يلتقون مع الغزاة التقاء كاملاً.

وكان ابن أبي هو المشير على الرسول (ص) بالبقاء في المدينة، ووافقه على ذلك شيوخ المهاجرين. وأدرك النبي (ص) الغاية، ولكنه بقي يتظاهر بالموافقة على رأي ابن أبي؛ ليختبر بقية المسلمين، وإن كان فيمن وافق ابن أبي من لا يشك في حسن نيته، كما أنه لا شك في أن فيهم المتآمرين. ولما اختبرهم (ص)، وعرف نواياهم، أعلن عن رأيه الذي كان قد انطوى عليه من أول الأمر.

ويرجّح ذلك: أنه لما خرج المسلمون إلى أحد رجع ابن أبي في ثلاثمائة وخمسين من أتباعه المنافقين، وبعض اليهود إلى المدينة بلا سبب. وفي رواية: أنه هو نفسه (ص) أمرهم بالرجوع، وقال: لا نحارب المشركين بالمشركين.

وذلك دليل قاطع على سوء نواياهم، وأنه (ص) كان يتخوف منهم أن ينضموا إلى المشركين حين احتدام الحرب، وإذا كان في ريب من أمرهم، وهم خارج المدينة؛ فكيف يوافقهم على مقابلة الغزاة في داخلها، ويطمئن إليهم في الدفاع عنها؟!.

وإذا كان ابن سلول صادقاً في قوله: إنه سيدافع عن المدينة في

الداخل، فلماذا رجع من الطريق وهو يعلم: أن جيش النبي (ص) بأمسّ الحاجة إلى المساعدة؟!.

إذن، فالخروج من المدينة هو الأصوب، ولو أنه بقي فيها لأصبح خلال ساعات معدودات تحت رحمة المشركين. إنتهى ملخصاً[١].

ويؤيد رأي العلامة الحسني أيضاً: المبدأ الحربي الذي أطلقه علي «عليه السلام» حينما قال: ما غزي قوم في عقر دارهم إلا ذلوا[٢].

ونحن هنا نشير إلى ما يلي:

١ ـ إن أبا سفيان ـ كما تقدم ـ كان يخشى أن يلزم أهل يثرب صياصيهم، ولا يخرجوا منها[٣]. وهذا يعني: أنهم يعتبرون بقاء المسلمين في المدينة معناه: تضييع الفرصة على قريش، وعدم تمكينها من تحقيق أهدافها.

وغاية ما استطاع صفوان بن أمية أن يقدمه لأبي سفيان، كبديل مرض ومقنع، هو أنهم حينئذ سوف يلحقون بأهل المدينة خسائر مادية كبيرة؛ فإنهم إن لم يصحروا لهم عمدوا إلى نخلهم فقطعوه؛ فتركوهم ولا أموال لهم.

إذن، فالموقف الصحيح كان هو البقاء في المدينة، فإن الخسائر المادية يمكن الصبر عليها وتحملها، أما الخسائر في الأرواح، فإنها تكون أصعب وأنكى، ورسول الله (ص) لم يكن ليعدل عن الموقف الصحيح هذا.

---

(١) سيرة المصطفى ص ٣٩٦ ـ ٣٩٩.

(٢) نهج البلاغة بشرح عبده ج ١ ص ٦٤.

(٣) مغازي الواقدي ج ١ ص ٢٠٥، وشرح النهج للمعتزلي ج ١٤ ص ٢١٨.

٢ ـ إن ضرار بن الخطاب كان يخشى مثل ذلك أيضاً، لأن الأنصار قتلوا قومه يوم بدر، فخرج إلى أحد، وهو يقول: «إن قاموا في صياصيهم فهي منيعة، لا سبيل لنا إليهم، نقيم أياماً، ثم ننصرف. وإن خرجوا إلينا من صياصيهم أصبنا منهم؛ فإن معنا عدداً أكثر من عددهم، ونحن قوم موتورون، خرجنا بالظعن يذكرننا قتلى بدر، ومعنا كراع ولا كراع معهم، وسلاحنا أكثر من سلاحهم، فقضي لهم إن خرجوا إلخ»[1].

٣ ـ لقد رأينا: أن صفوان بن أمية لم يذكر لأبي سفيان شيئاً عن احتمال تعاون المنافقين معهم، وتمكينهم من القضاء على الإسلام والمسلمين بسهولة، أو على الأقل كان على أبي سفيان أن يدرك ذلك، ويبتهج له.

٤ ـ إن من الواضح: أن ابن أبي، ومن معه لم يكن باستطاعتهم الإقدام على مثل تلك الخيانة في تلك الظروف؛ لأن معنى ذلك: أن يذبح من قومه من الخزرج ومن المهاجرين أعداد هائلة، ولم يكن بإمكانه أن يسمح بذلك، ولا يوافقه عليه من معه؛ لأنهم قومهم وأبناؤهم، وإخوانهم، وآباؤهم. ولم يكن التخلي عنهم سهلاً وميسوراً إلى هذا الحد.

وإذا أرادوا أن يتخلوا عن مثل هؤلاء، ويسلموهم إلى القتل، بعد أن يقدموا هم أيضاً العديد من القتلى، فمن يبقى لابن أبي ـ بعد استئصال هؤلاء ـ لا سيما بملاحظة قلة سكان المدينة آنئذ؟!. وهل تبقى المدينة مدينة؟!. وهل يمكن لابن أبي أن ينصب نفسه ملكاً على من يتبقى له في ظروف كهذه؟! وهل سوف ينال هذا المنصب حقاً؟!. وهل يستطيع بعد هذا أن يعتمد على إخلاص من معه له؟! وهل باستطاعته أن يحتفظ لهم بمكانتهم وبموقعهم في قبال اليهود، الذين كانت العداوة بينهم وبين أهل

---

(١) مغازي الواقدي ج ١ ص ٢٨٢، وشرح النهج للمعتزلي ج ١٤ ص ٢٧٤.

يثرب متأصلة على مر السنين؟!. وهل يستطيع أيضاً: أن يقاوم أطماع من حوله من قبائل الغزو والغارة؟! أو حتى أن يستقل في اتخاذ القرار عن قريش؟! وهل باستطاعته أن يأمن قريشاً، ويطمئن إلى التعامل معها على المدى البعيد، بعد أن أدركت مدى خطر المدينة على مصالحها الحيوية؟!. وهل؟ وهل؟ إلى آخر ما هنالك.

أم أن ذلك ليس في الحقيقة إلا انتحاراً سياسياً، لا مبرر له، ولا يقدم عليه أحد؟ ولا تساعد عليه أي من الموازين والمقاييس حتى الجاهلية منها، فضلاً عن العقلائية والإجتماعية؟!

ولقد كان باستطاعة ابن أبي: أن ينحاز إلى المشركين في المعركة في خارج المدينة، وذلك ـ وإن كان أيضاً يحمل في طياته أخطاراً جمة له ولأصحابه ـ أقرب إلى تحقيق أهدافه، وأسلم له في الوصول إليها، بملاحظة ما سبق.

ولكن الظاهر هو أن دوافعه للإشارة بالبقاء هي حب السلامة، وعدم التعرض للأخطار المحتملة ما أمكنه. وحتى لا يتكرر انتصار النبي «صلى الله عليه وآله وسلّم» في بدر مرة أخرى. ولا سيما مع ملاحظة زيادة عدد المسلمين، وحسن عدتهم بالنسبة إلى السابق، كما يفهم من الكلام المتقدم لبعض المشيرين.

يضاف إلى ذلك: أنهم الآن يدافعون عن شرفهم وعرضهم، وبلدهم، وعن وجودهم، فلابد أن يكونوا أكثر تصميماً وإقداماً.

كما أن من الممكن أن يكون التزلف إلى النبي (ص) داخلاً أيضاً في حسابات ابن أبي في بادىء الأمر.

ونلاحظ: أن التزلف، والتظاهر الكلامي بالتدين، وبالغيرة على الإسلام ومصالح المسلمين، يكون لدى المنافقين أكثر من غيرهم.

هذا بالإضافة إلى أنه لوكان ثمة احتمال من هذا النوع لأشار إليه أبو سفيان، أو صفوان بن أمية، أو ضرار بن الخطاب، أو غيرهم، كما قلنا.

٥ ـ بل إن العلامة الحسني نفسه يقول: إن الذين أصروا على البقاء كان من بينهم المخلص والمنافق. وهذا ينافي قوله الآخر: إن النبي «صلى الله عليه وآله وسلّم» كان يريد أن يختبر أصحابه، ويكتشف نواياهم، وإذن فقد فشل النبي «صلى الله عليه وآله وسلّم» في محاولاته تلك، فكيف يقول الحسني بعد ذلك: إنه (ص) وقف على نوايا الجميع، ومحصها تمحيصاً دقيقاً؟!.

والحقيقة هي: أن إصرارهم على الخروج كان ناشئاً عن الأسباب التي ذكروها أنفسهم في كلامهم.

٦ ـ ثم إننا لا نوافق العلامة الحسني: على أن النبي الأعظم «صلى الله عليه وآله وسلّم» كان يتعامل مع أصحابه بهذه الطريقة الماكرة ـ والعياذ بالله ـ فيظهر لهم خلاف ما يبطن؟! نعوذ بالله من الزلل والخطل في القول والعمل.

إلا أن يكون مقصوده حفظه الله: أنه (ص) لم يظهر لهم رأيه، بل تركهم يظهرون له ما في نفوسهم من دون أي تحفظ أو حياء، وليتحملوا هم المسؤولية، ثم ليتألفهم بذلك، حتى إذا اختلفوا كان هو الحاسم للخلاف برأيه الصائب، وموقفه الحكيم.

وأخيراً؛ فإن لنا تحفظاً على ما ذكره من أن ابن أبي قد رجع بمن معه من المنافقين، وبعض اليهود. فإن ذكر اليهود هنا في غير محله، لأنه (ص) لم يكن يحبذ الإستعانة باليهود، كما أنهم هم أنفسهم ما كانوا ليعينوه على قتال عدوه، ولا يرضى قومهم بذلك منهم، إلا إذا كانوا يريدون أن يكونوا في جيش المسلمين عيوناً للمشركين. ولم يكن ذلك ليخفى على النبي (ص) ولا المسلمين، ولعله لأجل ذلك نجده (ص) قد

رفض قبولهم في هذا الغزوة بالذات، وأرجعهم كما سنرى.

هـ : لبس لامة الحرب يعني القتال:

وقد رأينا أن النبي «صلى الله عليه وآله وسلّم» بعد أن لبس لامة حربه استجابة لرأي الأكثرية، يرفض الرجوع إلى الرأي الأول، لأن ذلك معناه أن ينتزع عنه مفهوم خاطىء، يضر بالمصلحة العليا للإسلام والمسلمين، ولا ينسجم مع مركزه كقائد، بل ربما تكون له آثار سيئة وخطيرة على المدى البعيد.

وهذا المفهوم هو أنه رجل ضعيف، تتقاذفه الأهواء والآراء، ولا يملك اتخاذ القرار؛ بل هو ألعوبة بأيدي أصحابه، والمنتسبين إليه!

كما أن ذلك من شأنه أن يجعل قراراته في المستقبل عرضة للصراعات الفكرية، بين أصحابه، الذين تختلف مستوياتهم فكرياً، واجتماعياً، وسياسياً، وإيمانياً، وغير ذلك. ويفسح المجال أمام أهل الأطماع، وظهور الإختلاف، ثم التمزق، والفشل الذريع. ولا يعود يملك مجتمعاً منضبطاً، قوياً متماسكاً، وقادراً على مواجهة الأخطار والمعضلات الجسام التي تنتظره، والمهمات التي لابد أن يضطلع بها؛ فضلاً عن أن يتحمل هذ المجتمع مسؤولية نشر الإسلام والدفاع عنه في العالم أجمع.

هذا كله عدا عن أن هذا التردد سوف يقلل من قيمة الوحي في نفوسهم، ويضعف ـ من ثمّ ـ ارتباطهم بالغيب، وإيمانهم به، مع أن هذا ركن أساسي في الدعوة الإسلامية، وفي نجاحها، واطراد تقدمها.

فليكن هذا الموقف منه (ص) درساً لهم، يعلمهم: أنه لا ينبغي لهم أن يعارضوا الوحي الإلهي بعقولهم القاصرة عن إدراك عواقب الأمور.

ومن الجهة الأخرى، فإن العدو سوف يرى في هذا التردد ضعفاً، وفشلاً، ويزيد ذلك في طمعه بالمسلمين، وجرأته عليهم.

ولسوف يجعله ذلك يعتمد أسلوب الضغط على النبي (ص) من خلال أصحابه، ويحاول تشويش مواقفه وتمييعها، إن لم يكن توجيهها إلى ما يوافق مصالحه وأهدافه عن هذا السبيل.

وأخيراً، فإن المعتزلي يرى: أن تردد المسلمين دليل على فشلهم في الحرب، فإن النصر معروف بالعزم والجد، والبصيرة في الحرب. وأحوالهم هنا كانت ضد أحوالهم في بدر، وأحوال المشركين في بدر كانت ضد أحوالهم هنا، ولذلك انكسرت قريش في بدر[١].

ونقول:

إن المسلمين لم ينكسروا في أُحد، ولم تنتصر قريش. بل هزمت هزيمة نكراء، كما سنرى والذي حصل للمسلمين إنما كان سببه أفراد معدودون كانوا على فتحة جبل أُحد.

و : من الأكاذيب:

ومن الأكاذيب التي رأينا أن نذكّر القارىء بها:

أولاً : ما ورد في رواية نادرة من أن ابن أبي قد أشار بالخروج[٢].

وذلك لا يصح إذ:

١ ـ لا يبقى معنى حينئذ لاحتجاج ابن أبي لرجوعه من وسط الطريق بأنه (ص): خالفه وأطاعهم.

٢ ـ إن القرآن يلمح إلى أن المنافقين كانوا يصرون على البقاء في المدينة، فإنه بعد رجوع المسلمين من أحد، وقد قتل منهم من قتل، قال

(١) شرح النهج للمعتزلي ج ١٤ ص ٢٢٦.

(٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢١٩.

المنافقون: لو أطاعونا ما قتلوا[١]. وهؤلاء هم الذين احتجوا لرجوعهم بقولهم: لو نعلم قتالاً لاتبعناكم.

ثانياً: يقولون: إنه (ص) خرج إلى أحد من بيت عائشة[٢].

مع أن من الثابت: أنه (ص) كان إذا سافر كان آخر عهده بفاطمة، وإذا رجع بدأ ببيت فاطمة أيضاً[٣].

إلا أن يكون مقصودهم بيت عائشة الذي كان لفاطمة، واستولت عليه عائشة بعد وفاة الرسول الأعظم «صلى الله عليه وآله وسلّم»[٤].

ثالثاً: قولهم: إنه بعد أن استشار النبي (ص) أصحابه، دخل بيته، ودخل معه أبو بكر وعمر، فعمّماه ولبّساه. لا يعبؤ به لضعف مستنده من جهة، ولأن النبي (ص) لم يكن يحتاج إلى من يعممه ويلبسه، بل كان باستطاعته أن يمارس ذلك بنفسه من جهة ثانية.

عقد الألوية:

وبعد ان استشار رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلّم» أصحابه، وخرج عليهم لابساً لأمة حربه، استخلف على المدينة ابن أم مكتوم وعقد

---

(١) آل عمران: ١٦٨.

(٢) مغازي الواقدي ج ١ ص ٢١٣، وشرح النهج للمعتزلي ج ١٤ ص ٢٢٥، ووفاء الوفاء ج ١ ص ٢٨٤، وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٢٣ عن ابن الكلبي، ومجاهد، والواقدي.

(٣) مسند أحمد ج ٥ ص ٢٧٥، وذخائر العقبى ص ٣٧ عن أحمد، وأبي عمر، وإسعاف الراغبين بهامش نور الأبصار ص ١٧٠ عن أحمد، والبيهقي، وغير ذلك كثير، فإنه لا مجال لتتبعه.

(٤) قد أوضحنا ذلك في مقال لنا بعنوان: «أين دفن النبي (ص) في بيت عائشة أم في بيت فاطمة؟» فراجع كتابنا: دراسات وبحوث في التاريخ والإسلام الجزء الأول.

الألوية.

فأعطى اللواء أمير المؤمنين «عليه السلام»، كما نص عليه البعض[١].

ويقول البعض: إن لواء المهاجرين كان مع علي، وقيل: مع مصعب بن عمير[٢] ويقال: إنه اللواء الأعظم[٣].

وقيل: إنه (ص) سأل عمن يحمل لواء المشركين، فقيل له: طلحة بن أبي طلحة، فأخذ اللواء من علي ودفعه إلى مصعب بن عمير، لأنه من بني عبد الدار، وهم أصحاب اللواء في الجاهلية[٤].

وكان لواء الأوس مع أسيد بن حضير، ولواء الخزرج مع حباب بن المنذر، وقيل: مع سعد بن عبادة، كذا يقولون.

اللواء مع علي (ع) فقط:

ونقول:

لا يصح ما ادعوه من أن اللواء كان مع مصعب بن عمير، أو أنه أخذه من علي، وأعطاه لمصعب. والصحيح هو أنه كان مع علي «عليه السلام» في أحد، وبدر، وفي كل مشهد. ويدل على ذلك:

---

(١) الأوائل لأبي هلال ج ١ ص ١٨٣. والثقات لإبن حبان ج ١ ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥، وراجع: البحار ج ٢٠ ص ٤٩، وتفسير القمي ج ١ ص ١١٢.

(٢) مغازي الواقدي ج ١ ص ٢١٥، وشرح النهج للمعتزلي ج ١٤ ص ٢٢٧، وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٢٢.

(٣) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٢٦ عن المنتقى.

(٤) أنساب الأشراف ج ١ ص ٣١٧، وشرح النهج للمعتزلي ج ١٤ ص ٢٣٢، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٢٠.

١ ـ ما تقدم في غزوة بدر: من أن علياً (ع) كان صاحب لواء رسول الله (ص) في بدر، وفي كل مشهد.

٢ ـ عن ابن عباس، قال: لعلي بن أبي طالب (ع) أربع ما هن لأحد: هو أول عربي وعجمي صلى مع رسول الله «صلى الله عليه وآله». وهو صاحب لوائه في كل زحف. وهو الذي ثبت معه يوم المهراس؛ وفر الناس. وهو الذي أدخله قبره[١].

٣ ـ عن ابن عباس: كان علي أخذ راية رسول الله يوم بدر. قال [الحكم] الحاكم: وفي المشاهد كلها[٢].

٤ ـ وعن مالك بن دينار: سألت سعيد بن جبير وإخوانه من القراء: من كان حامل راية رسول الله (ص)؟ قالوا: كان حاملها علي (رض).

وفي نص آخر: أنه لما سأل مالك سعيد بن جبير عن ذلك غضب سعيد، فشكاه مالك إلى إخوانه من القراء، فعرّفوه: أنه خائف من الحجاج. فعاد وسأله، فقال: كان حاملها علي (رض). هكذا سمعت من عبد الله بن عباس[٣].

وفي نص آخر عن مالك بن دينار قال: قلت لسعيد بن جبير: من كان صاحب راية رسول الله (ص)؟

قال: إنك لرخو اللبب.

---

(١) مستدرك الحاكم ج ٣ ص ١١١، وتلخيصه للذهبي بهامشه، ومناقب الخوارزمي ص ٢١ / ٢٢، وإرشاد المفيد ص ٤٨، وتيسير المطالب ص ٤٩.

(٢) ذخائر العقبى ص ٧٥، والرياض النضرة المجلد الثاني، جزء ٤ ص ١٥٦.

(٣) راجع: مستدرك الحاكم ج ٣ ص ١٣٧ وصححه وقال: له شاهد من حديث زنفل العرفي، وفيه طول فلم يخرجه الحاكم، ومناقب الخوارزمي ص ٢٥٨ / ٢٥٩، وذخائر العقبى ص ٧٥ عن أحمد في المناقب.

فقال لي معبد الجهني: أنا أخبرك: كان يحملها في المسير ابن ميسرة العبسي، فإذا كان القتال؛ أخذها علي بن أبي طالب رضي الله عنه(١).

٥ ـ عن جابر: قالوا: يا رسول الله، من يحمل رايتك يوم القيامة؟ قال: من عسى أن يحملها يوم القيامة، إلا من كان يحملها في الدنيا، علي بن أبي طالب؟! وفي نص آخر: عبر باللواء بدل الراية(٢).

٦ ـ وحينما مر سعد بن أبي وقاص برجل يشتم علياً، والناس حوله في المدينة، وقف عليه، وقال: يا هذا، على ما تشتم علي بن أبي طالب؟ ألم يكن أول من أسلم؟ ألم يكن أول من صلى مع رسول الله «صلى الله عليه وآله»؟ ألم يكن أزهد الناس؟ ألم يكن أعلم الناس؟ وذكر حتى قال: ألم يكن صاحب راية رسول الله (ص) في غزواته؟(٣).

وظاهر كلامه هذا: أن ذلك كان من مختصاته صلوات الله وسلامه عليه.

---

(١) الطبقات الكبرى ط ليدن ج ٣ ص ١٥ قسم ١.

(٢) هامش ص ١٨٠ من احتجاج الطبرسي، والرياض النضرة المجلد الثاني ج ٣ ص ١٧٢ عن نظام الملك في أماليه، وكفاية الطالب ص ٣٣٦ وقال: ذكره محدث الشام ـ أي ابن عساكر ـ في ترجمة علي (ع) من كتابه بطرق شتى عن جابر، وعن أنس، وكنز العمال ج ١٥ ص ١١٩، وراجع ص ١٣٥ عن الطبراني، ومناقب أمير المؤمنين لإبن المغازلي ص ٢٠٠، وعمدة القاري ج ١٦ ص ٢١٦، ومناقب الخوارزمي ص ٣٥٨.

(٣) مستدرك الحاكم ج ٣ ص ٥٠٠، وصححه على شرط الشيخين هو والذهبي في تلخيص المستدرك، وحياة الصحابة ج ٢ ص ٥١٤/ ٥١٥. وأظن أن القضية كانت مع سعد بن مالك أبي سعيد الخدري، لأن سعد بن أبي وقاص كان منحرفاً عن أمير المؤمنين. ويشير إلى ذلك ما ذكره الحاكم في مستدركه ج ٣ ص ٤٩٩ من أن أبا سعيد قد دعا على من كان ينتقص علياً فاستجاب الله له.

٧ ـ عن مقسم: أن راية النبي (ص) كانت تكون مع علي بن أبي طالب، وراية الأنصار مع سعد بن عبادة، وكان إذا استحر القتال كان النبي (ص) مما يكون تحت راية الأنصار[1].

٨ ـ عن عامر: إن راية النبي (ص) كانت تكون مع علي بن أبي طالب، وكانت في الأنصار حيثما تولوا[2].

وقد يقال: إن هذين النصين الواردين تحت رقم ٧ و ٨ لا يدلان على أن الراية كانت دائماً مع علي «عليه السلام» بصورة أكيدة وصريحة، وإن كان يمكن أن يقال: إن ظاهرهما هو ذلك.

٩ ـ عن ثعلبة بن أبي مالك، قال: كان سعد بن عبادة صاحب راية رسول الله (ص) في المواطن كلها؛ فإذا كان وقت القتال أخذها علي بن أبي طالب[3].

١٠ ـ قال ابن حمزة: «وهل نقل أحد من أهل العلم: أن علياً كان في جيش إلا وهو أميره؟»[4].

١١ ـ وفي حديث المناشدة: أن علياً «عليه السلام» قال: نشدتكم الله، هل فيكم أحد صاحب راية رسول الله (ص) منذ يوم بعثه الله إلى يوم قبضه، غيري؟!

---

(١) المصنف لعبد الرزاق ج ٥ ص ٢٨٨، وراجع: فتح الباري ج ٦ ص ٨٩ عن أحمد عن ابن عباس بإسناد قوي.

(٢) المصنف لعبد الرزاق ج ٥ ص ٢٨٨.

(٣) أسد الغابة ج ٤ ص ٢٠، وأنساب الأشراف ج ٢ ص ١٠٦ لكن فيه: ميسرة العبسي بدل سعد بن عبادة.

(٤) الشافي لإبن حمزة ج ٤ ص ١٦٤.

قالوا: اللهم لا[١].

وبالنسبة لخصوص واقعة أحد نقول:

١ ـ **عن علي قال**: كسرت يده يوم أحد، فسقط اللواء من يده؛ فقال رسول الله (ص): دعوه في يده اليسرى، فإنه صاحب لوائي في الدنيا والآخرة[٢].

٢ ـ قد ورد في احتجاج الإمام الحسن المجتبى صلوات الله وسلامه عليه بفضائل أمير المؤمنين (ع) على معاوية، وعمرو بن العاص، والوليد الفاسق ورد قوله: «وأنشدكم الله، ألستم تعلمون: أنه كان صاحب راية رسول الله (ص) يوم بدر، وإن راية المشركين كانت مع معاوية، ومع أبيه، ثم لقيكم يوم أحد، ويوم الأحزاب، ومعه راية رسول الله (ص)، ومعك ومع أبيك راية الشرك إلخ»[٣].

٣ ـ **قال ابن هشام**: «لما اشتد القتال يوم أحد، جلس رسول الله (ص) تحت راية الأنصار، وأرسل إلى علي: أن قدم الراية. فتقدم علي؛ فقال: أنا أبو القصم. فطلب أبو سعيد بن أبي طلحة. وهو صاحب لواء المشركين منه البراز، فبرز إليه علي، فضربه علي فصرعه[٤].

وهذا معناه: أنه «عليه السلام» كان صاحب الراية العظمى، فأمره (ص) بالتقدم، ثم طلب منه صاحب لواء المشركين البراز، لأنه إذا

---

(١) المسترشد في إمامة علي (ع) ص ٥٧.

(٢) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٣٤، والرياض النضرة المجلد الثاني ج ٤ ص ١٥٦ عن ابن الحضرمي، وذخائر العقبى ص ٧٥ بلفظ. «ضعوه».

(٣) كفاية الطالب ص ٣٣٦، وشرح النهج للمعتزلي ج ٦ ص ٢٨٩، والغدير ج ١٠ ص ١٦٨ عنه.

(٤) السيرة النبوية لإبن هشام ج ٣ ص ٧٨، وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٢٧.

سقطت الراية العظمى انكسر الجيش وانهزم.

٤ ـ وقال القوشجي: في غزاة أحد جمع له الرسول (ص) بين اللواء والراية[1].

٥ ـ عن أبي رافع قال: كانت راية رسول الله (ص) يوم أحد مع علي، وراية المشركين مع طلحة بن أبي طلحة[2].

٦ ـ ويظهر من بعض الروايات الفرق بين اللواء والراية، وقد قالوا: إن الراية كانت في يد قصي، ثم انتقلت في وُلْدِه حتى انتهت إلى النبي (ص)، فأعطاها رسول الله (ص) لعلي في غزاة ودّان، وهي أول غزاة حمل فيها راية مع النبي (ص)، ثم لم تزل مع علي في المشاهد، في بدر وأحد.

وكان اللواء يومئذ في بني عبد الدار، فأعطاه رسول الله (ص) لمصعب بن عمير، فاستشهد، ووقع اللواء من يده، فتشوقته القبائل؛ فأخذه رسول الله (ص)، فدفعه إلى علي، فجمع له يومئذ الراية واللواء، فهما إلى اليوم في بني هاشم[3].

ويظهر أن هذا هو مراد القوشجي من كلامه الآنف.

لا فرق بين اللواء والراية:

ونقول: إن هذه الروايات تنافي ما تقدم عن ابن عباس، وجابر، وقتادة، من أنه «عليه السلام» كان صاحب لوائه (ص) في كل زحف.

وقد دلت النصوص المتقدمة على أن علياً (ع) هو صاحب لواء

---

(١) شرح التجريد للقوشجي ص ٤٨٦.

(٢) اللآلي المصنوعة ج ١ ص ٣٦٥.

(٣) الإرشاد للشيخ المفيد ص ٤٨.

رسـول الله (ص)، وهو أيضـاً صاحب رايـة رسول الله، لـو كان ثمـة فـرق بينهما.

ونحن نشك في ذلك، لأن بعض أهل اللغة ينصون على عدم الفرق [١]، فإن كلا منهما عبارة عما يجعله القائـد من الأقمشة في طـرف رمح أو نحوه.

ونجـد وصف اللواء بـالأعـظم تـارة[٢]، ووصف الـرايـة بـالعـظمى أيضاً[٣].

إلا أن يقـال: إن مصعب بن عمير كـان صاحب لـواء المهاجـرين، فلما استشهد في أحد صار لواؤهم إلى علي، فعلي «عليه السلام» صاحب راية ولواء رسول الله، وهو أيضاً صاحب لـواء المهاجـرين. ولعل هـذا هو الأظهر.

وقد تقدم بعض الكلام حول هذا الموضوع في غزوة بدر أيضاً، فلا نعيد.

عدة وعدد المسلمين :

ثم توجّه رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلّم» إلى أحد ومعه: ألف رجل، ويقال: تسعمائة، وزاد بعضهم خمسين.

منهم مئة دارع.

---

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٤٧.

(٢) راجع حياة الصحابة ج ١ ص ٤٣١، وتاريخ ابن عساكر ترجمة علي (ع) بتحقيق المحمودي ج ١ ص ١١٠ والمنتقى.

(٣) كما في قول ابن أبي الحديد عن هزيمة الشيخين في خيبر

وللراية العظمى وقد ذهبا بها ملابس ذل فوقها وجلابيب

ليس معهم فرس[١].

وقيل: مع النبي (ص) فرسه، وفرس لأبي بردة بن نيار[٢].

وقيل: كان معهم فرس واحد[٣].

رجوع المنافقين:

ويظهر مما يأتي: أنه (ص) خرج نحو أحد من ثنية الوداع، شامي المدينة.

ورجع ابن أبي مما بين المدينة وأحد بمن معه من المنافقين، وأهل الريب. وكانوا ثلاثمائة رجل، وقال: محمد عصاني وأطاع الولدان؟ سيعلم. ما ندري علام نقتل أنفسنا وأولادنا ها هنا أيها الناس؟

فرجعوا. وتبعهم جابر بن عبد الله الأنصاري يناشدهم الله في أنفسهم، وفي نبيهم، فقال ابن أبي: لو نعلم قتالاً لاتبعناكم، ولو أطعتنا لرجعت معنا.

وقيل: إن النبي (ص) أمرهم بالإنصراف، لكفرهم[٤].

فبقي (ص) في سبعمائة من أصحابه، أو ستمائة.

وبرجوع ابن أبي سقط في أيدي بني حارثة وبني سلمة، ثم عادوا إلى الموقف الحق، قال تعالى: **﴿إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا﴾**

---

(١) وفاء الوفاء ج ١ ص ٢٨٤ و ٢٨٥ عن ابن عقبة، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٢١، وفتح الباري.

(٢) تاريخ الطبري ج ٢ ص ١٩٠، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٢١.

(٣) مجمع الزوائد ج ٦ ص ١١٧ عن الطبراني، وحياة الصحابة ج ٣ ص ٧٦٩ عن كنز العمال ج ٣ ص ١٣٥ عن الطيالسي.

(٤) سيرة مغلطاي ص ٤٩.

الآية.

وروي بسند رجاله ثقات: أنه بعد أن جاوز النبي (ص) ثنية الوداع، إذا هو بكتيبة خشناء، فقال (ص): من هؤلاء؟ قالوا: عبد الله بن أبي بن سلول في ستمائة من مواليه اليهود. فقال: وقد أسلموا؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: مروهم فليرجعوا، فإننا لا ننتصر بأهل الكفر على أهل الشرك. أو: فإننا لا نستعين بالمشركين على المشركين[1].

الخيانة وآثارها:

إن من الطبيعي: أن يكون لانخذال ابن أبي ورجوعه بمن معه من المنافقين أثر سيء على نفوس المسلمين ومعنوياتهم، فإن حدوث الخيانة هذه قد كانت أحد الأسباب الرئيسية لتهيؤ بعض المسلمين نفسياً للهزيمة في المعركة، وهم بنو حارثة، وبنو سلمة.

وقد حكى الله ذلك بقوله: **﴿إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا﴾**[2].

وقد جاءت هذه الخيانة في لحظات حرجة وحساسة، قد مهدت الطريق، ومنحت العذر لمن تبقى من المنافقين للفرار في أحرج اللحظات، وأخطرها على الإسلام والمسلمين بصورة عامة.

وهذا يؤيد، ويؤكد سلامة موقفه (ص) في إرجاعه في غزوة بدر من لم يكن مسلماً، وعدم قبوله باشتراك بعض اليهود في حرب أحد، حيث أرجع كتيبتهم كما سلف. ولذلك شواهد كثيرة في حياته (ص) يجدها

---

(١) وفاء الوفاء ج ١ ص ٢٨٣، وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٢٢ عن الوفاء، والطبراني في الكبير والأوسط بسند رجاله ثقات، وذكر مثل ذلك عن الكشاف ومعالم التنزيل والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٢٠، وشرح النهج للمعتزلي ج ١٤ ص ٢٢٧، ومغازي الواقدي ج ١ ص ٢١٥.

(٢) آل عمران: ١٢٢.

المتتبع في السيرة النبوية.

وقد أشار الله تعالى إلى الأثر السيء لمواقف المنافقين في العديد من الآيات، فهو تعالى يقول: ﴿**لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً**﴾[١].

ويعطي قاعدة عامة في التعامل مع غير المؤمنين، فيقول: ﴿**ولا تركنـوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار**﴾[٢] إلى غير ذلك مما لا مجال لتتبعه.

وبعد هذا، فإننا نعرف عدم صحة ما روي عن الزهري، قال: «كان يهود يغزون مع النبي (ص)؛ فيسهم لهم كسهام المسلمين»[٣].

وما ذلك إلا لأنه قد ﴿**زُيِّن للذين كفروا الحياة الدنيا، ويسخرون من الذين آمنوا**﴾[٤]، ولأن: ﴿**الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت**﴾[٥]. ومن هذا المنطلق، قال ابن أبيّ هنا: ما ندري علام نقتل أنفسنا وأولادنا؟.

ومن جهة ثانية، فإن المنافقين واليهود كانوا يلتقون مع المشركين في الهدف مرحلياً؛ لأنهم جميعاً لا يستطيعون أن يروا انتصار الإسلام والمسلمين في المنطقة، لأنهم ـ وهم الذين لا همّ لهم إلا الدنيا ـ يرون ذلك يضر بمصالحهم، وبموقعهم السياسي، والإجتماعي، والإقتصادي في المنطقة.

---

(١) التوبة: ٤٧.

(٢) هود: ١١٣.

(٣) مصنف عبد الرزاق ج ٥ ص ١٨٨، وسنن البيهقي ج ٩ ص ٥٣، ونقل عن ابن أبي شيبة.

(٤) البقرة: ٢١٢.

(٥) النساء: ٧٦.

وإذا حارب اليهود والمنافقون إلى جانب المسلمين، فإنما يفعلون ذلك إما تمهيداً للخيانة بهم، وإسلامهم إلى أعدائهم، وإما طمعاً في المال والغنائم. ومن يقاتل من أجل ذلك، فلا يستطيع أن يقدم على الأخطار، ولا أن يضحي بنفسه، بل إنما يكون مع المسلمين ما دام النصر حليفهم، حتى إذا رأى أنهم في خطر، فإنه لابد أن يخذلهم في أحرج اللحظات، وهذا ما سوف يؤثر تأثيراً سلبياً على معنوياتهم، ومن ثمّ على مستقبلهم ومصيرهم أيضاً.

سؤال وجوابه :

ويبقى سؤال، وهو: أنه إذا كان الحال كذلك، فلماذا يقبل النبي (ص) المنافقين في جيش المسلمين؟ مع أن ذلك يشكل خطراً عليهم؟! ولماذا لا يفضحهم ويكشفهم للناس؟! وإذا كان يمنع اليهود وغيرهم من الكفار من المشاركة، فلماذا لا يتخذ تدبيراً معيناً يمنع به المنافقين من الحضور في ساحة الحرب؟!

والجواب يتلخص في النقاط التالية:

١ ـ لقد كان النبي (ص) واقعاً بين محذورين، كل منهما صعب وخطير.

أحدهما : سلبية خروج المنافقين إلى الحرب، وقد حددها الله سبحانه، حينما قال: ﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً، ولأوضعوا خلالكم، يبغونكم الفتنة﴾[1].

وكان (ص) يستر ذلك عليهم ما داموا لم يظهروا هم أنفسهم ذلك، من خلال أفعالهم ومواقفهم، وأقوالهم.

الثاني : سلبية إبقاء المنافقين في المدينة، يسرحون ويمرحون،

---

(١) التوبة: ٤٧.

وربما يكون الخطر في ذلك أعظم مما لو اصطحبهم معه في الحرب، لأن ذلك يفسح المجال لهم للتآمر، من دون أن يكون ثمة من يستطيع دفع كيدهم، ورد بغيهم.

وما قضية تبوك إلا الدليل القاطع على ما نقول، حيث اضطر الرسول الأعظم (ص) إلى إبقاء خليفته ووصيه، ومن هو منه بمنزلة هارون من موسى في المدينة، حينما شعر أن تخلف المنافقين عن الخروج إلى تبوك يحمل في طياته أخطاراً جساماً، لا يمكن لأحد مواجهتها إلا النبي (ص)، أو أخوه علي «عليه السلام».

وقد رجح (ص) هذا على ذاك ليرد كيدهم، ويفشل مؤامراتهم، ولأجل ذلك كان يخرجهم معه إلى الحرب.

٢ ـ ثم إن النفاق قد لا يتخذ صفة العنف، بل يظهر المنافق الإسلام حفاظاً على مصالحه، أو لأسباب خاصة أخرى، مع عدم إبائه عن الدخول فيه، وتقبّله طبيعياً له، فهو لا يهتم بهدم الإسلام والكيد له. فتبرز الحاجة ـ والحالة هذه ـ إلى إعطائهم الفرصة للتعرف أكثر فأكثر على تعاليم الإسلام وأهدافه، ولكي يعيشوا أجواءه من الداخل، وليكتشفوا ما أمكنهم من أسرار عظمته وأصالته، فتلين له قلوبهم، وتخضع له عقولهم. ولا أقل من أن أبناءهم، ومن يرتبط بهم، يصبح أقدر على ملامسة واقع المسلمين، والتفاعل مع تعاليم الإسلام ما دام أنه يعيشها بنفسه، وتقع تحت سمعه وبصره.

وهذا بالذات ما كان يهدف إليه الإسلام من التألف على الإسلام، وإعطاء الأموال والأقطاع، وحتى المناصب والقيادات لمن عرفوا بـ «المؤلفة قلوبهم»، بالإضافة إلى ما كان يهدف إليه من دفع كيدهم وشرهم.

وما تقدم يفسر لنا السبب الذي جعل رسول الله (ص) كان يقبل

بوجهه وحديثه على أشر القوم، يتالفهم بذلك، حتى إن عمرو بن العاص ظن بنفسه أنه خير القوم. ثم صار يسأل النبي (ص) عن المفاضلة بين نفسه وغيره، فلما عرف: أنهم أفضل منه، قال: «فلوددت أني لم أكن سألته»[1].

٣ ـ إن سكوته (ص) عن المنافقين، وقبولهم كأعضاء في المجتمع الإسلامي، إنما يريد به المحافظة على من أسلم من أبنائهم، وإخوانهم، وآبائهم، وأقاربهم، حتى لا تنشأ المشاكل العائلية الحادة فيما بينهم؛ ولا يتعرض المسلمون منهم للعقد النفسية، والمشكلات الإجتماعية، التي ربما تؤثّر على صمودهم واستمرارهم.

٤ ـ وكذلك، فإن اتخاذ أي إجراء ضد المنافقين، لربما يكون سبباً في تقليل إقبال الناس على الإسلام، وعدم وثوقهم بمصيرهم، وما سوف يؤول إليه أمرهم معه فيه، ولا سيما إذا لم يستطيعوا أن يتفهّموا سر ذلك الإجراء، ولا أن يطلعوا على أبعاده وخلفياته.

ولسوف يأتي: أن سبب إظهار وحشي للإسلام، هو أنه كان معروفاً عن النبي (ص): أنه كان لا يتعرض لمن يظهر الإسلام بشيء يسوءه.

٥ ـ إن اتخاذ أي إجراء ضد المنافقين معناه: فتح جبهة جديدة، كان بالإمكان تجنبها، واضطرار هؤلاء الساكتين ظاهراً، انصياعاً لظروفهم، إلى المجاهرة بالعداء، والإعلان بالتحدي، وهم عدو داخلي كثير العدد، وخطير جداً، يعرف مواضع الضعف، ومواضع القوة، ويكون بذلك قد أعطاهم المبرر للإنضمام إلى الأعداء، العاملين ضد الإسلام والمسلمين.

وواضح أن تصرفاً كهذا ليس من الحكمة ولا من الحنكة في شيء،

---

(١) راجع: مجمع الزوائد ج ٩ ص ١٥ عن الطبراني بإسناد حسن، وفي الصحيح بعضه بغير سياقه. وحياة الصحابة ج ٢ ص ٧٠٦ عن الترمذي في الشمائل ص ٢٥.

لأنه يأتي في ظرف يحتاج فيه الإسلام إلى تمزيق أعدائه وتفريقهم؛ حيث لا يستطيع مواجهتهم جميعاً في آن واحد.

بقي أمران:

أحدهما: لقد نزلت آيات قرآنية كثيرة تفضح المنافقين، وتظهر أفاعيلهم، وتنقل أقاويلهم، وتبيِّن أوصافهم بدقة وبتفصيل. كما أن النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله وسلّم» نفسه قد حاول أن يحدَّ من فعالية المنافقين ما أمكنه، وذلك بتنبيه الصحابة إلى خططهم ومؤامراتهم، والكشف عن حقيقتهم ووجودهم، وتحذير الناس منهم، وذكر أفعالهم وأوصافهم باستمرار، حتى حينما كان النبي (ص) في مكة.

بل لقد اتخذ (ص) أحياناً إجراءات عملية ضدهم، كهدم مسجد الضرار، وغير ذلك مما يظهر جلياً في الآيات القرآنية الكثيرة، والمواقف النبوية المختلفة.

وهذا بطبيعته يمثل حصانة ومناعة للمسلمين ضد النفاق والمنافقين ومكائدهم.

الثاني: إنه يظهر مما تقدم: أنه كان ثمة كتيبة لليهود بقيادة ابن أبي، وقد أرجعها رسول الله (ص) من الطريق. ثم رجع ابن أبي مع طائفة من المنافقين. بل يظهر من بعض النصوص: أن المنافقين قد رجعوا من نفس أحد[1].

والذي نخشاه هو أن تكون هذه الرواية مكذوبة بهدف التغطية على فساد ابن أبي ورجوعه بالمنافقين من وسط الطريق.

إرجاع الصغار:

وقد ردّ رسول الله (ص) مَن استصغرهم، ومنعهم من الخروج إلى

---

(١) مغازي الواقدي ج ١ ص ٢١٩، وشرح النهج للمعتزلي ج ٤ ص ٢٣٠.

الحرب، مثل: ابن عمرو بن ثابت، وسمرة بن جندب، ورافع بن خديج، ثم سمح (ص) لرافع؛ لأنه رام. وكان يتطاول من الشغف على الخروج.

فيقال: إن سمرة قال لزوج أمه: أذِن لرافع وردني، وأنا أصرعه؟! فأمرهما (ص) بالمصارعة؛ فصرعه سمرة بن جندب؛ فأذن له أيضاً[١].

الريب فيما ينقل عن سمرة:

ونحن نرتاب فيما نقل عن سمرة بن جندب، وذلك لما يلي:

١ ـ إن ابن الأثير يذكر: أن صاحب هذه القضية هو جابر بن سمرة حليف بني زهرة[٢] وليس سمرة بن جندب.

٢ ـ إن سمرة لم يكن مستقيماً ولا مراعياً للشرع في تصرفاته ومواقفه. فحياة سمرة، وتاريخه، ونفسيته، وروحيته، سواء في حياة النبي (ص)، أو بعد وفاته، كل ذلك يأبى عن نسبة مثل ذلك إليه.

أما في حياة النبي (ص)، فإننا نجد: أنه هو صاحب العذق الذي كان في حائط الأنصاري، وبيت الأنصاري في ذلك الحائط أيضاً؛ فكان سمرة يمرّ إلى نخلته، ولا يستأذن، فكلّمه الأنصاري، فأبى، فشكاه إلى النبي (ص)، فكلمه النبي (ص) فأبى أن يستأذن. فساومه النبي (ص)، وبذل له ماشاء من الثمن فأبى أيضاً. فبذل له نخلة في الجنة في مقابلها، فأبى أيضاً.

فقال رسول الله (ص) حينئذ للأنصاري: إذهب فاقلعها، وارم بها إليه؛ فإنه لا ضرر ولا ضرار[٣].

---

(١) تاريخ الطبري ج ٢ ص ١٩١، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٢٠، وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٢٢، ومغازي الواقدي ج ١ ص ٢١٦، وشرح النهج ج ٤ ص ٢٢٧.

(٢) الكامل ج ٢ ص ١٥١.

(٣) راجع: شرح النهج للمعتزلي ج ٤ ص ٧٨، والكافي ج ٥ ص ٢٩٢ و ٢٩٤، ومن =

كما أنه هو نفسه ـ كما في الروضة ـ الذي ضرب رأس ناقة النبي (ص) فشجها، فشكته إلى رسول الله (ص)[١]

وأما بعد وفاة النبي (ص)، فإنه قتل من المسلمين ما لا يحصى؛ حتى إن زياد ابن أبيه استخلفه على البصرة، وأتى الكوفة مدة وجيزة، فقتل ثمانية آلاف[٢]، كما عن الطبري. وقتل سبعة وأربعين رجلاً من بني عدي في غداة واحدة، كلهم قد جمع القرآن[٣]. وكان يقتل من يتشهد الشهادتين، ويبرأ من الحرورية[٤].

وبعد موت زياد أقره معاوية على البصرة ستة أشهر ثم عزله؛ فقال: لعن الله معاوية، لو أطعت الله كما أطعت معاوية لما عذبني أبداً[٥] وكان يخرج من داره مع خاصته ركباناً فلا يمر بطفل، ولا عاجز، ولا حيوان إلا سحقه هو وأصحابه، وهكذا إذا رجع. فلم يكن يمر عليه يوم إلا وله قتيل أو أكثر[٦].

وبذل معاوية له مئة ألف، ليروي: أن آية: ﴿ومن الناس من

= لا يحضره الفقيه ج ٣ ص ٢٣٣ و١٠٣، والتهذيب ج ٧ ص ١٤٧، والوسائل ج ١٧ ص ٣٤٠ و٣٤١، والبحار ج ١٠٠ ص ١٢٧ ط جديد وط قديم ج ٨ ص ٦٧٥، ومصابيح السنة للبغوي ج ٢ ص ١٤، والسنن الكبرى ج ٦ ص ١٥٧، وسنن أبي داود ج ٣ ص ٣١٥، والدر المنثور ج ٦ ص ٣٥٧ عن ابن أبي حاتم وراجع: قاموس الرجال ج ٥ ص ٨.

(١) قاموس الرجال ج ٥ ص ٨ عن الروضة.

(٢) تاريخ الأمم والملوك ج ٥ ص ٢٣٧ ط دار المعارف بمصر.

(٣) قاموس الرجال ج ٥ ص ٨.

(٤) قاموس الرجال ج ٥ ص ٩.

(٥) تاريخ الأمم والملوك ج ٥ ص ٢٩١ ط دار المعارف.

(٦) قاموس الرجال ج ٥ ص ٩ عن الطبري.

يعجبك قوله في الحياة الدنيا. إلى قوله: والله لا يحب الفساد﴾[1] نزلت في علي «عليه السلام»، وأن آية: **﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله، والله رؤوف بالعباد﴾**[8]، نزلت في ابن ملجم؛ فلم يقبل، فبذل له مئتي ألف، ثم ثلاثمائة. فلما بذل له أربعمائة ألف، قبل، وروى ذلك[3].

كما أن سمرة هذا قد حضر مقتل الحسين، وكان من شرطة ابن زياد، وكان يحرض الناس على الخروج إلى قتال الإمام الحسين «عليه السلام»[4].

هذا هو سمرة، وهذه هي نفسيته، وأفاعليه، فإن كان حقاً هو صاحب القضية المتقدمة، وهو بعيد في الغاية، فلابد وأن يكون هدفه هو **الحرب من أجل المـال أو الجاه، وغيـره من المكاسب الـدنيويـة، مهما كانت تافهة وحقيرة.**

٣ ـ وإن من الأمور التي شاعت وذاعت، ورواها المحدثون والمؤرخون بشكل واسع قول رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلّم» في سمرة، وأبي هريرة، وأبي محذورة: آخركم موتاً في النار. فكان سمرة آخرهم موتاً[5].

وتأويل ذلك: بأن سمرة قد مات في قدر مملوءة ماءاً حاراً[6]. لا

---

(١) البقرة: ٢٠٤. (٢) البقرة: ٢٠٧.

(٣) شرح النهج للمعتزلي ج ٤ ص٧٣.

(٤) راجع: قاموس الرجال ج ٥ ص ٨ ـ ١٠ وشرح النهج للمعتزلي ج ٤ ص ٧٧ و ٧٨ و ٧٩.

(٥) راجع: قاموس الرجال، والإصابـة ج ٢ ص ٧٩، وشرح النهج للمعتزلي ج ٤ ص ٧٨.

(٦) راجع: الإصابة ج ٢ ص ٧٩، والإستيعاب بهامشها ج ٢ ص ٧٨.

يصح، لأنه خلاف الظاهر، فإن ظاهر الكلام: أن المراد هو النار الأخروية، كما هو المتبادر، لا أن موته بسبب أن النار تجعل الماء حاراً، ثم يقع فيه؛ فإن ذلك ـ بالإضافة إلى أنه مجاز لا مبرر له إلا إرادة تبرئة ساحة رجل له أمثال تلك الجنايات والعظائم ـ لا يصح، إذ لو كان هو المراد لكان الأصح هو التعبير بقوله: «بالنار»، لا «في النار»، أو يقول: في الماء الحار، ونحو ذلك.

فهذه الكرامة له، والتي تقول: إنه كان يتشوق للمشاركة في الحرب، رغم صغر سنه، ثم مصارعته لرافع، لا تناسب كل ما أشرنا إليه آنفاً، ولا تنسجم مع واقع سمرة ونفسيته. ولعل سر تكرم محبيه عليه بهذه الفضيلة، هو طاعته الخارقة لمعاوية، ومعاونته لابن زياد، وتحريضه على قتل الحسين، وغير ذلك.

ولو أننا قبلنا صدور ذلك منه؛ فإنه ـ ولا شك ـ قد انقلب على عقبيه بعد ذلك، ولا تنفعه أمثال هذه الأمور، بعد أن كانت عاقبته هي: النار.

ملاحظة:

ولايخفى: أن هذا الكلام منه (ص) في حق هؤلاء الثلاثة من شأنه أن يسقطهم عن الإعتبار جميعاً، إذ لوكان واحد منهم مستقيم الطريقة لم يجز وضعه في دائرة من يحتمل في حقه ذلك.

وهذا أسلوب فذ في اسقاط خطط الذين يريدون تكريس رموز، واشخاص يريدون أن يقوموا بدور غير مسؤول ويمس مستقبل الأمة، ويؤثر على دينها، وعلى كل وجودها ولو عن طريق تزوير نصوص الدين وأحكامه، والعبث برسومه وأعلامه.

الحراسة وقصة ذكوان:

ونزل (ص) في مكان في الطريق، وعين محمد بن مسلمة في

خمسين آخرين لحراسة الجيش. ويقولون: ثم قال: من يحرسنا الليلة؟

فقام رجل، فقال: أنا.

فسأله عن اسمه، فقال: ذكوان.

فأجلسه.

ثم سأل الثانية، فقام رجل، فقال: أنا.

فسأله عن اسمه فقال: أبو سبع.

فأجلسه.

وفي الثالثة قام رجل وتسمى بابن عبد القيس، فأجلسه.

ثم أمر بقيام الثلاثة. فقام ذكوان وحده.

فسأله عن الباقين.

فأخبره أنه هو صاحب الأسماء الثلاثة، فكان هو الذي حرسه(١).

قال المعتزلي: قلت: قد تقدم هذا الحديث في غزوة بدر، وظاهر الحال أنه مكرر، وأنه إنما كان في غزاة واحدة. ويجوز أن يكون قد وقع في الغزاتين، ولكن على بعد(٢).

الشك في قصة ذكوان:

ونحن نستبعد قصة ذكوان هذه وذلك لما يلي:

١ ـ إننا لا نستطيع أن نصدق: أن النبي (ص) كان ساذجاً إلى حدّ

---

(١) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٢٢/ ٤٢٣، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٢١، ومغازي الواقدي ج ١ ص ٢١٧، وشرح النهج للمعتزلي ج ٤ ص ٢٢٨.

(٢) شرح النهج للمعتزلي ج ٤ ص ٢٢٨/ ٢٢٩.

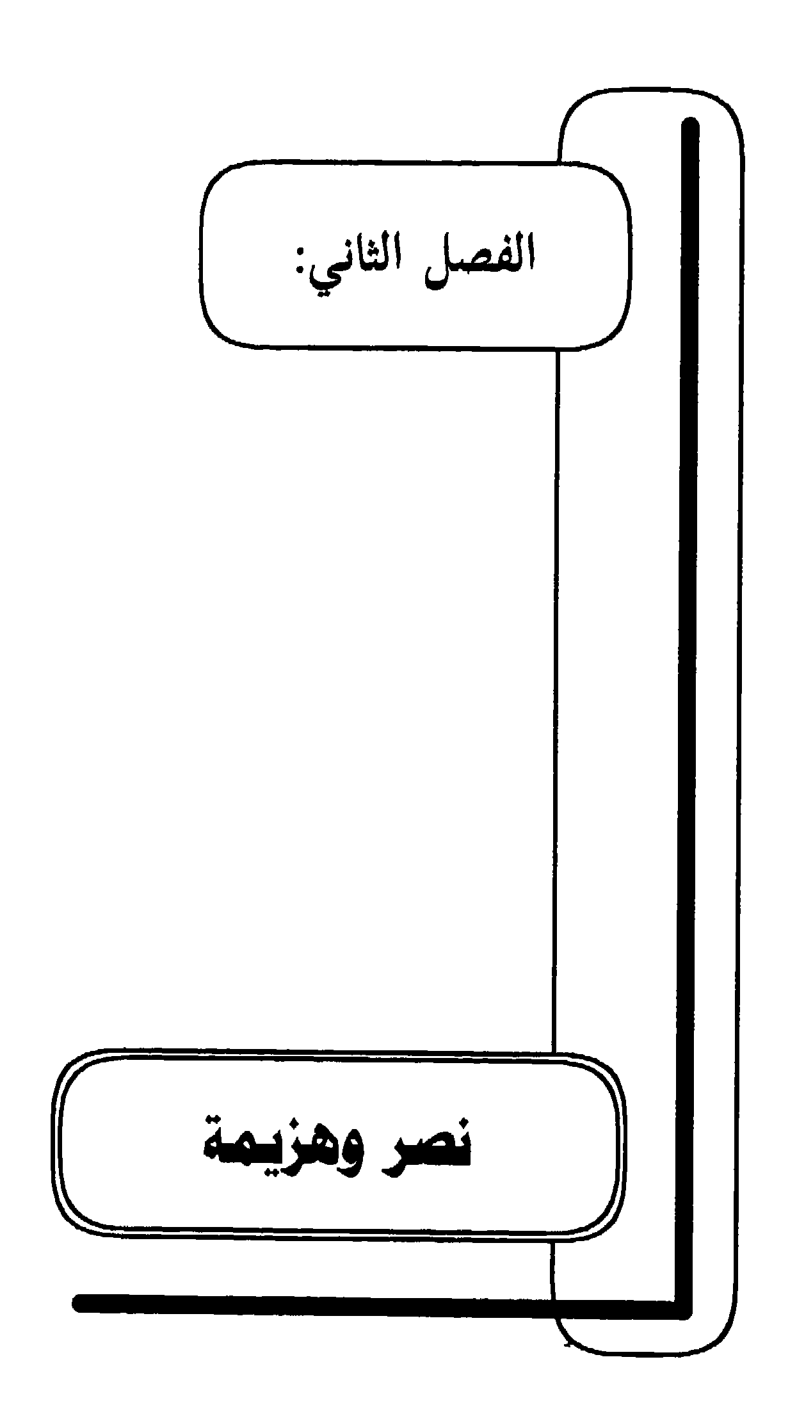
أنه لا يستطيع أن يدرك: أن الذي أجابه في المرات الثلاث، بل الأربع، هو شخص واحد، حتى سأله عن الباقين!!

٢ ـ ثم إننا لم نفهم المبرر لعدم إجابة غير ذكوان من المسمين الذين يبلغ عددهم حوالي سبعمائة رجل، وفيهم أعظم المؤمنين، وكثيرون من الغيارى على حياة الرسول وأصحابه، ويفدونه بأرواحهم، وبكل غال ونفيس.

ولم تكن الحراسة بذلك الأمر، الذي لا مناص من مواجهة الخطر على النفس فيه. وإن كان يحتمل فيها ذلك. وأين كان علي «عليه السلام» عنه في تلك الليلة، مع أنه هو الذي كان يتولى حراسته عادة.

٣ ـ إننا لا نفهم المبرر لأمره (ص) إياه بالجلوس في المرات الثلاث!! ولِمَ لمْ يوافق على طلبه من المرة الأولى؟!

٤ ـ إن النزول في الطريق، وبيات ليلة فيه موضع شك أيضاً إذ لم تكن المسافة بين المدينة وبين جبل أحد كبيرة إلى حدٍ يحتاج معها إلى أن يبيت في الطريق إليه.



الفصل الثاني:

نصر وهزيمة



التعبئة للقتال :

ويقولون: إنه لما وصل النبي (ص) إلى منطقة القتال، اختار أن ينزل إلى جانب جبل أحد، بحيث يكون ظهرهم إلى الجبل.

ثم عبأ أصحابه، وصار يسوي صفوفهم؛ حتى إنه ليرى منكب الرجل خارجاً، فيؤخره.

وأمرهم أن لا يقاتلوا أحداً حتى يأمرهم.

وكان على يسار المسلمين جبل إسمه جبل عينين، وهو جبل على شفير قناة، قبلي مشهد حمزة، عن يساره[1]. وكانت فيه ثغرة؛ فأقام عليها خمسين رجلاً من الرماة، عليهم عبد الله بن جبير، وأوصاه: أن يردوا الخيل عنهم، لا يأتوهم من خلفهم. وفي رواية قال: إن رأيتمونا تختطفنا الطير، فلا تبرحوا من مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم، وأوطأناهم؛ فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم[2].

وحسب نص آخر: احموا ظهورنا؛ فإن رأيتمونا نقتل؛ فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا قد غنمنا، فلا تشركونا[3].

---

(١) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٢٣.

(٢) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٢٣ عن البخاري.

(٣) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٢٤، عن الطبراني والحاكم، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٢٢.

وكان شعاره يوم أحد: أمت. أمت.

ويقولون أيضاً: إنه «صلى الله عليه وآله وسلّم» قد ظاهر بين درعين، كما نص عليه الحاكم، وطائفة من المؤرخين.

ويقول الواقدي: إنه كان قد لبس قبل وصوله إلى أحد درعاً، فلما وصل إلى ساحة الحرب لبس درعاً أخرى، ومغفراً وبيضة فوق المغفر[1].

ومن جهة أخرى: فقد عبأ المشركون قواهم، استعداداً للحرب، وأرسل أبو سفيان إلى الأنصار: خلوا بيننا وبين ابن عمنا؛ فننصرف عنكم؛ فلا حاجة بنا إلى قتالكم، فردوا عليه بما يكره[2].

ونذكر هنا ما يلي:

ألف: المظاهرة بين درعين:

إننا نشك في أنه (ص) قد ظاهر بين درعين في الوقت الذي يرى فيه أن غالب أصحابه لا درع لهم يحميهم من سيوف المشركين، فضلاً عن أن يكون لهم درعان. ولم يكن النبي (ص) ليميّز نفسه عنهم، بل كان من عادته أن يجعل نفسه كأحدهم. مع أنه يعلم: أنه هو المستهدف بالدرجة الأولى. وهذه هي أخلاق النبوة. وذلك هو سيماء الأفذاذ من الرجال، وعباد الله الصالحين.

إلا أن يقال: إن المسلمين أنفسهم قد أصروا عليه بأن يظاهر بين درعين، من أجل الحفاظ عليه (ص)، كما كانوا يقومون بحراسته (ص) ليلاً من أجل ذلك أيضاً. ويكون (ص) قد قبل منهم ذلك لتطمئن قلوبهم، ويهدأ روعهم.

---

(١) مغازي الواقدي ج ١ ص ٢١٩، وشرح النهج للمعتزلي ج ١٤ ص ٢٣٠.

(٢) الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ١٥١.

ونقول: إن ذلك لا يصح أيضاً، لأن النبي (ص) كـان ملاذاً للنـاس حين الحرب، وكانـوا يلجأون إليـه في الشدائـد والأهوال. ولم يكن أحـد أقرب منه إلى العدو، وكان يقـدم أحباءه وأهـل بيته في الحـرب، ولا نجد مبرراً بعد هذا للمظاهرة بين درعين، لا سيما مع وجود المنافقين، ومن في قلوبهم مـرض، ومع وجـود اليهود وغيـرهم من الأعداء، الـذين سـوف لا يسكتون عن أمر كهذا، بل سـوف يستفيدون منـه لتضليل النـاس، وخداع ضعـاف النفوس، والسـذج والبسطاء. ولـم يكن النبي (ص) ليسجـل على نفسه سابقة كهذه أصلاً.

ب : المنطق القبلي لدى أبي سفيان:

إن محاولة أبي سفيان استعمال المنطق القبلي حين قال: خلوا بيننـا وبين ابن عمنا إنما كانت لتفريق الناس عن النبي(ص)؛ ليتمكن من القضاء على حـركته من أسهـل طريق؛ فـلا يتعرض للعـداوات الحـادة بينـه وبين المدنيين، ولا للخسائر الكثيرة في الأرواح، ولا لتغيير المعادلات السياسية في المنطقة. إلى غير ذلك من الإعتبارات الكثيرة في جو كهذا.

ولكن فأله قد خاب، فقـد وجد: أن الإسـلام والمسلمين لا يأبهـون لمنطق كهذا، وأصبح المسلم أخاً للمسلم أياً كان، ومن أي قبيلة كـانت. أما أبو سفيان وأصحابه فعدوّ محارب، حتى ولو كانوا آباءهم، أو أبناءهم، أو إخوانهم، أو عشيرتهم، أو غيرهم.

أبو دجانة، والسيف :

ويقولون: إنه (ص) أخذ سيفاً، وقال: من يأخذ هذا السيف بحقه، فـطلبه جمـاعة، منهم الـزبير. وفي نصـوص أخـرى: أبـو بكـر، وعمـر، وتضيف رواية الينابيع علياً أيضاً؛ فلم يعطهم إياه.

فسأله أبو دجانة: ما حقه؟

فقال: أن تضرب به العدو حتى ينحني. فطلبه أبو دجانة؛ فأعطاه إياه، فجعل يتبختر بين الصفين، فقال (ص): إنها لمشية يبغضها الله إلا في هذا الموطن.

فقاتل أبو دجانة قتالاً عظيماً، حتى حمل على مفرق رأس هند ـ التي كانت تحوش المسلمين بهجماتها ـ ثم عدل السيف عنها؛ لأنها صرخت، فلم يجبها أحد؛ فكره أن يضرب بسيف رسول الله إمرأة لا ناصر لها[1].

ملاحظات على هذه الرواية:

ونقول:

١ ـ إن قضية عرضه السيف على أصحابه، ومنعه من البعض، وإعطائه لأبي دجانة قد تكون صحيحة.

ولكن ما تقدم عن الينابيع، من ذكر علي «عليه السلام» فيمن لم يعطه (ص) السيف في غير محله. كيف؟ وسيأتي: أنه لم يثبت أمام ذلك الجيش الهائل سوى أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه. وهذا يقرب: أنه «عليه السلام» كان يدرك: أنه لم يكن هو المقصود للنبي (ص) في دعوته للمسلمين، لأخذ السيف بحقه؛ لأنه كان يعرف موقعه ودوره في المعركة.

---

(١) راجع نصوص هذه الرواية المختلفة في: لباب الآداب ص ١٧٦، وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٢٤/ ٤٢٥، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٢٢/ ٢٢٣/ ٢٢٥، وشرح النهج للمعتزلي ج ١٤ ص ٢٥٧، والبداية والنهاية ج ٤ ص ١٦/ ١٧، وفيهما ذكر عمر والزبير، ومغازي الواقدي ج ١ ص ٢٥٩، وحياة الصحابة ج ١ ص ٥٧٥ ـ ٥٧٧ عن غير واحد، وينابيع المودة، إلى غير ذلك من المصادر الكثيرة التي لا مجال لتعدادها.

ولنا أن نحتمل هنا ـ بسبب ما عرفناه وما ألفناه من هؤلاء الرواة والمحدثين ـ: أن إضافة إسم علي في الرواية، قد كانت من أجل الحفاظ على كرامة وشخصية الطالبين والممنوعين الحقيقيين عن السيف في هذا الموقف.

فإنهم لم تكن مواقفهم الحربية تأبى عن مثل هذا، حيث لم تُؤْثَر عنهم مواقف حربية شجاعة في ساحات الجهاد، بل أثر عنهم العكس من ذلك تماماً.

٢ ـ **إننا لا نفهم**: لماذا يرفض رسول الله (ص) إعطاء السيف للزبير، ولأبي بكر، وعمر، بعد طلبهم إياه، قبل أبي دجانة، ولماذا لا يجربهم، ليظهر مواهبهم ومواقفهم؟! ولماذا يواجههم أمام الناس بهذا الرفض الفاضح والقاسي، حتى لقد وجدوا في أنفسهم من منعه لهم؟.

ولربما يقال: إنه أراد أن يعطيه أنصارياً؛ ليقتدي به الأنصار.

وجوابه: إنه قد كان اللازم حينئذٍ: أن يوضح ذلك لهم بكلمة، أو بإشارة، حتى لا يتعرض الممنوعون لسوء ظن الناس بهم، أو حتى لا ينسبوا للفشل والعجز، وتصير كرامتهم في معرض الإمتهان.

وإن كنا سنرى: أن هؤلاء الممنوعين لم يكونوا في المستوى المطلوب، وكان أبو دجانة أولى منهم بهذا التكريم، لأن هذه القضية قد جرتْ لو صحت بعد عودة المسلمين من الهزيمة. وسيأتي بعض الكلام في ذلك إن شاء الله.

٣ ـ **إن ما ذكروه**: من أن هنداً كانت تقاتل المسلمين وتحوشهم قد كذبته أم عمارة رحمها الله؛ فراجع[1].

ولا ندري من أين حصلت هند على هذه البسالة النادرة، التي

---

(١) مغازي الواقدي ج ١ ص ٢٧٢، وشرح النهج للمعتزلي ج ١٤ ص ٢٦٨.

تجعلها في عداد أعظم فرسان التأريخ؟ ولماذا لم يعُدها المؤرخون من فرسان الدهر، وشجعان ذلك العصر؟!

كما أن من المعلوم: أنه (ص) قد كان يوصي سراياه وبعوثه وصايا عديدة، منها: أن لا يقتلوا إمرأة، ولا ولا إلخ.

٤ ـ إن من الواضح مدى التشابه بين ما تذكره هذه القضية عن تبختر أبي دجانة بين الصفين، وقول النبي (ص) له، وبين ما كان من تبختر علي «عليه السلام» يوم الخندق، فاعترض عمر على ذلك، ونبّه النبي (ص) إلى مشيته «عليه السلام». فأجابه النبي (ص) بهذا الجواب بعينه. وستأتي مصادر هذه القضية هناك، وأنها ثابتة بلا ريب.

ويبعد أن تتعدد الواقعة بكل خصوصياتها. كما أنه بعد قضية أبي دجانة في أحد لا يبقى مورد لاعتراض عمر في الخندق، إذ نستبعد عدم اطلاعه على ما جرى في أحد، إن لم يكن هو نفسه هو الذي اعترض آنئذٍ كما تعودناه منه في المواقف المختلفة، حتى لينـدر أن تجد في التاريخ اعتراضاً على النبي لغيره!!.

ولا أقل من حضوره وشهوده الأحداث عن قرب، فإنه ممن طلب السيف، ورُفض طلبه؛ فإذا كان ما جرى يوم الخندق هو الصحيح، وإذا كان ثمة تبديل وتغيير في الأسماء والأشخاص فقط؛ فلا عجب، فإنما هي شنشنة نعرفها من أخزم.

وعلى كل حال، فإن مشية علي «عليه السلام» يوم الخندق، كان الهدف منها هو الإفتخار بعظمة وبعزة الإسلام، وذل أعدائه حتى في حال انتصارهم من جهة. ثم الحرب النفسية لأعدائه، والتأثير على معنوياتهم من جهة أخرى.

نشوب الحرب، وقتل أصحاب اللواء:

وكـان أول من رمى بسهم في وجوه المسلمين أبـو عامـر الفـاسق في خمسين ممن معه، بعد أن حاول استمالة قومه من الأوس؛ فردّوا عليـه بما يكره، فتراموا مع المسلمين، ثم ولوا مدبرين.

وحـرض أبو سفيـان بني عبد الـدار، حـاملي لـواء المشـركين على الحرب، وجعل النساء يضربن بالدفوف، ويحرضنهم بالأشعار.

وطلب طلحة بن أبي طلحة، حامل لواء المشركين البراز، فبرز إليـه علي «عليه السلام» فقتله. فسر رسول الله (ص) بذلك، وكبّر تكبيراً عالياً.

ويقال: إن طلحة سأل علياً: من هو؟. فأخبـره فقال: قـد علمت يا قضم: أنه لا يجسر عليّ أحد غيرك[1].

وقـد ضربـه علي (ع) على رأسه، ففلق هـامته إلى مـوضع لحيتـه، وانصرف علي «عليه السلام» عنه، فقيل له: هـلا ذففت عليه؟! قـال: إنه لمـا صرع استقبلني بعـورته؛ فعـطفتني عليـه الـرحم. وقـد علمت أن الله سيقتله، وهو كبش الكتيبة[2].

---

(١) فعن أبي عبد الله «عليه السلام»: أن رسول الله (ص) كان بمكة لم يجسر عليه أحد؛ لموضع أبي طالب، وأغروا به الصبيان، وكانوا إذا خرج رسول الله (ص) يرمونه بالحجارة والتراب، وشكا ذلك إلى علي (ع)، فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله (ص)، إذا خرجت فاخرجني معك، فخرج رسول الله (ص) ومعه أمير المؤمنين (ع)، فتعرض الصبيان لرسول الله (ص) كعادتهم، فحمل عليهم أمير المؤمنين، وكان يقضمهم في وجوههم، وآنافهم، وآذانهم، فكان الصبيان يرجعون باكين إلى آبائهم، ويقولون: قضمنا علي، قضمنا علي، فسمي لذلك: «القُضَم». راجع: البحار ج ٢٠ ص ٥٢، وتفسير القمي ج ١ ص ١١٤، وأشار إلى ذلك أيضاً في نهاية ابن الأثير.

(٢) مغازي الواقدي ج ١ ص ٢٢٦، وشرح النهج للمعتزلي ج ١٤ ص ٢٣٦ وغير ذلك.

وفي رواية أخرى: إنه صلوات الله وسلامه عليه قال: إنه ناشدني الله والرحم؛ فاستحييت. وعرفت أن الله قد قتله[1].

وقيل: إن ذلك كان حينما قتل «عليه السلام» أبا سعيد بن أبي طلحة. وثمة كلام آخر في المقام لا أهمية له.

قال ابن هشام: «لما اشتد القتال يوم أحد، جلس رسول الله (ص) تحت راية الأنصار، وأرسل إلى علي: أن قدّم الراية، فتقدم علي، وقال: أنا أبو القصم (والصحيح: أبو القضم)؛ فطلب أبو سعيد بن أبي طلحة ـ وكان صاحب لواء المشركين ـ منه البراز، فبرز إليه علي، فضربه، فصرعه».

ثم ذكر قصة انكشاف عورته حسبما تقدم[2].

واقتتل الناس، وحميت الحرب. وحارب المسلمون دفاعاً عن دينهم، وعن وطنهم، الذي فيه كل مصالحهم، ويتوقف على حفظه مستقبلهم ووجودهم. حاربوا فئة حاقدة، تريد الثأر لقتلاها في بدر، وهي أكثر منهم عدداً، وأحسن عدّة.

ثم شد أصحاب رسول الله (ص) على كتائب المشركين، فجعلوا يضربون وجوههم، حتى انتقضت صفوفهم، ثم حمل اللواء عثمان بن أبي طلحة، أخو طلحة السابق، فقُتِل، ثم أبو سعيد أخوهما، ثم مسافع؛ ثم كلاب بن طلحة بن أبي طلحة، ثم أخوه الجلاس، ثم أرطأة بن شرحبيل، ثم شريح بن قانط، ثم صواب، فقتلوا جميعاً؛ وبقي لواؤهم مطروحاً على الأرض، وهُزِموا، حتى أخذته إحدى نسائهم، وهي عمرة بنت علقمة

---

(١) تاريخ الطبري ج ٢ ص ١٩٤، والكامل لإبن الأثير ج ١ ص ١٥٢، ووفاء الوفاء ج ١ ص ٢٩٣، والأغاني ج ١٤ ص ١٦.

(٢) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٢٧.

الحارثية، فرفعته، فتراجعت قريش إلى لوائها، وفيها يقول حسان:

ولــولا لــواء الحــارثيـة أصبحــوا   يباعون في الأسواق بالثمن البخس

ويقال: إن أصحاب اللواء بلغوا أحد عشر رجلاً[1].

قـال الصادق «عليـه السلام»، بعـد ذكره قتـل أميـر المؤمنين «عليـه السلام» لأصحاب اللواء: «وانهزم القوم، وطـارت مخزوم، فضحهـا علي «عليه السلام» يومئذ»[2].

كمـا أن رماة المسلمين الـذين كـانـوا في الشعب قـد ردّوا حمـلات عـديدة لخيـل المشركين، حيث رشقـوا خيلهم بالنبـل، حتى ردّوهـا على أعقابها.

وقبل المضي في الحديث نسجل هنا ما يلي:

ألف: بنو مخزوم، وأهل البيت:

ولعل ما تقدم هو سرّ حقد خـالد بن الـوليد المخـزومي ـ الذي كـان على ميمنة المشركين في أحد ـ على أمير المؤمنين «عليـه السلام»، الـذي قتل عدداً من فراعنتهم[3].

وقد تقدم في أوائل هذا الجزء حين الكلام عن خطبة علي (ع) لبنت أبي جهل بعض ما يشير إلى حقد خالد هذا، فلا نعيد.

وقد روى الحاكم، عن النبي «صلى الله عليه وآله» قـوله: «إن أهـل بيتي سيلقون من بعدي من أمتي قتلاً وتشريداً. وإن أشد قـومنا لنـا بغضاً: بنو أمية، وبنو المغيرة، وبنو مخزوم»[4].

---

(١) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٢٧.

(٢) الإرشاد للمفيد ص٥٢، والبحار ج ٢٠ ص ٨٧ عنه.

(٣) شرح النهج للمعتزلي ج ١٥ ص ٨٤.

(٤) مستدرك الحاكم ج ٤ ص ٤٨٧.

ب : الزبير والمقداد على الخيل:

وثمة رواية تفيد: أن الزبير والمقداد كانا على الخيل، وحمزة بالجيش بين يديه (ص)، وأقبل خالد الذي كان على ميمنة المشركين، وعكرمة بن أبي جهل على الميسرة، فهزمهم الزبير والمقداد، وحمل النبي (ص)، فهزم أبا سفيان[1].

ونحن لا نصدق هذه الرواية؛ فقد تقدم: أنه لم يكن مع النبي (ص) خيل. وجاء في بعض الروايات: أنه كان ثمة فرس واحد، أو فرسان: فرس للنبي، والآخر لأبي بردة بن نيار كما تقدم.

إلا أن يقال: إن المراد: أنه كان في مقابل خيل المشركين: الزبير والمقداد. ولكن ذلك بعيد عن سياق الكلام، ولا سيما إذا لم يكن معهما خيل.

أما العشرة أفراس التي غنمها المسلمون يوم بدر، فلعلها قد بيعت، أو نفقت، أو كان بعضها في حوزة من لم يشاركوا في حرب أحد، ممن رجع مع ابن أبيّ أو غيرهم.

ثم إننا لا ندري أين كان علي «عليه السلام»، الذي قتل نصف قتلى المشركين أو أكثر كما سيأتي؟!. ولماذا لا تتعرض له هذه الرواية، ولا تدلنا على دوره في هذه الحرب؟!.

ج : إخلاص علي (ع)، وعطفه على كبش الكتيبة:

وأما أن علياً انصرف عن قتل حامل لواء المشركين، لأنه قد عطفته عليه الرحم، فلا يمكن أن يصح؛ لأن علياً لم يكن ليرحم من حادّ الله، ورسوله، وكان كبش كتيبة المشركين، الذين جاؤا لاستئصال شأفة الإسلام

---

(١) الكامل لإبن الأثير ج ٢ ص ١٥٢.

والمسلمين. ونحن نعلم: أن علياً (ع) كان في كل أعماله مخلصاً لله تعالى كل الإخلاص. وقد قدمنا الإشارة إلى موقفه حينما قتل عمرو بن عبد ودّ فلا نعيد.

فالظاهر أن الصحيح: هو أنه ناشده الله والرحم، واستقبله بعورته فانصرف عنه. وهو بلاء تعرّض له أمير المؤمنين مع غيره أيضاً، كعمرو بن العاص، وبسر بن أبي أرطأة في وقعة صفين، كما هو معلوم.

نعم لقد انصرف عنهم جميعاً، بدافع من كرم النفس، وطاعة الله. فهو حين يقتل قومه يقتلهم طاعة لله، وحين ينصرف عنهم ينصرف لكرم النفس والنبل والشرف، وطاعة لله أيضاً. حيث لم يكن ثمة حاجة للتذفيف عليه، مع مشاهدة ما لا يحسن مشاهدته منه ـ عورته ـ وقد علم أن الله سيقتله من ضربته تلك، التي فلقت هامته إلى موضع لحيته.

ولاننسى أن نشير هنا إلى أنه إذا بلغ السيف إلى موضع لحيته، فإنه لن يكون قادراً على مناشدة أحد.

د : من قتل أصحاب اللواء:

إن من الثابت: أن علياً أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام، هو الذي قتل جميع أصحاب اللواء وكانوا أحد عشر رجلاً، ولا يُعْتَنى بتفصيلات طائفة من المؤرخين في من قتل هذا، ومَنْ قتل ذاك، ونستند في ذلك إلى ما يلي:

١ ـ قال الطبري، وابن الزبير، وغيرهما: «وكان الذي قتل أصحاب اللواء علي، قال أبو رافع: قال: فلما قتلهم أبصر النبي (ص) جماعة من المشركين إلخ».

وستأتي المصادر الكثيرة جداً لهذا النص حين الكلام عن مناداة جبرئيل:

لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي

وقد نصّ على أنه «عليه السلام» هو الذي قتل أصحاب اللواء عدد جمّ من المؤرخين وغيرهم[1]، وبعضهم ـ كالإسكافي ـ ذكر ذلك في مقام الحجاج والإحتجاج. ولو كان ثمة مجال لإنكار ذلك، لم يجرؤ على إيراده في مقام كهذا.

٣ ـ وعن أبي عبد الله، عن أبيه «عليهما السلام»، قال: كان أصحاب اللواء يوم أحد تسعة، قتلهم علي بن أبي طالب عن آخرهم إلخ[2].

ويمكن تأييد ذلك بما سيأتي إن شاء الله، من أن أمير المؤمنين (ع) قد قتل نصف بل أكثر قتلى المشركين في معركة أحد.

لماذا التزوير!؟.

فإذا كان هذا هو الصحيح في هذه القضية، وإذا كنا نلاحظ كثيراً: أنهم في مقام تفصيلاتهم الأخرى في هذا المقام، وفي غيره أيضاً، يحاولون إعطاء كثير من الإمتيازات لأولئك الذين لم تكن لهم علاقات حسنة بأهل البيت (ع). بل كان لغالبهم عداوات كبيرة مع علي وأهل بيته، وعلاقات وثيقة بأعدائهم ومناوئيهم.

إذا كان كذلك، فإننا نستطيع أن نعرف سرّ محاولة صرف الأنظار هنا

---

(١) راجع: شرح النهج للمعتزلي ج ١٣ ص ٢٩٣ عن الإسكافي، وليراجع: آخر العثمانية للجاحظ ص ٣٤٠، وشرح التجريد للقوشجي ص ٤٨٦، ومجمع البيان ج ٢ ص ٥١٣، والبحار ج ٢٠ ص ٢٦ و ٤٩ و ٦٩ و ٨٧، وتفسير القمي ج ١ ص ١١٣، والإرشاد للشيخ المفيد ص ٥٢، وعن الخصال ج ٢ ص ١٢١ و ١٢٤.

(٢) الإرشاد للشيخ المفيد ص ٥٢، والبحار ج ٢٠ ص ٨٧ عنه.

عن رجل الجهاد الحقيقي، الذي كان ولا يزال شوكة جارحة في أعين أعداء الدين الحق، الذين يحاربون الله ورسوله بالسلاح تارة، وبالكذب والدعايات المسمومة أخرى، وبالتحريف والتزوير ثالثة، وهكذا.

ومن الممكن أن يكون بعض ما ذكروه عن غير علي صحيحاً أيضاً، وأنهم قد قتلوا بعض المشركين. ولكن من المؤكد: أنه لم يكن لهم دور بهذا المستوى المعروض فعلاً، ولا هم قتلوا أصحاب اللواء. ولكن مناوئي أهل البيت قد بدلوا الأسماء كيداً منهم وحقداً.

ومن هنا فلا مانع من أن يكون أحدهم، وهو حمزة، قد قتل بطلاً من غير أصحاب اللواء من المشركين بأن ضربه بالسيف فقطع يده وكتفه، حتى بلغ مؤتزره، فبدا سحره (أي رئته)، ثم رجع، وقال: أنا ابن ساقي الحجيج[1].

ولسوف يأتي إن شاء الله المزيد من الكلام فيما يرتبط بهذا الموضوع.

٥ : مبارزة أبي بكر لولده:

ويقولون: إن أبا بكر دعا ابنه عبد الرحمان للبراز يوم أحد، وكان عبد الرحمان من أشجع قريش، وأشدهم رماية[2]!! فقال له النبي (ص): متّعنا بنفسك، أما علمت أنك مني بمنزلة سمعي من بصري، فأنزل الله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾**[3].

---

(١) السيرة النبوية لدحلان (بهامش السيرة الحلبية) ج ٢ ص ٢٨، وأنساب الأشراف ج ١ ص ٥٤.

(٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٦٨.

(٣) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٦٩ و ٢٢٤ وفيها عن علي ما يؤيد هذا، والعثمانية =

وقد ذكرت قصة شبيهة بهذه لأبي بكر وابنه في يوم بدر أيضاً. لكن فيها: أن عبد الرحمان هو الذي دعا أباه للبراز، . ولكن لم يذكر فيها نزول الآية بهذه المناسبة[١]. كما أن أكثر المصادر لم تذكر قوله: أما علمت أنك مني بمنزلة إلخ.

وفي بعض السير: أن أبا بكر قال لولده يوم بدر وهو مع المشركين: أين مالي يا خبيث؟. فقال له عبد الرحمان كلاماً معناه: إنه لم يبق إلا عدة الحرب، التي هي السلاح، وفرس سريعة الجري، وجنان يقاتل عليه شيوخ الضلال[٢].

ولنا على ما ذكر ملاحظات:

١ ـ أما بالنسبة لمال أبي بكر الذي طالب به ولده، فيردّه قولهم: إن أبا بكر حمل ماله كله حين هاجر من مكة إلى المدينة، حتى إن أباه أبا قحافة لما جاء وسأل: إن كان أبقى لأهله شيئاً، اضطرت أسماء لأن تضع الحصى في كيس وتلمسه إياه على أنه نقود[٣] وقد تقدم بعض الحديث حول ثروة أبي بكر حين الكلام على قضية الغار، فليراجع ما ذكرناه هناك.

٢ ـ وأما نزول الآية، في أبي بكر في هذه المناسبة فلاندري: هل

= للجاحظ ص ٦٢ ولم يذكر نزول الآية وكذا في الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ١٥٦، وشرح النهج للمعتزلي ج ١٤ ص ٢٥٦ مثله، ومغازي الواقدي ج ١ ص ٢٥٧، وملحق العثمانية ص ٣٣٠ و ٣٤٠، والبحار ج ٢٠ هامش ص ١٠٣ عن كشف الغمة، وعن المقريزي في الإمتاع.

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٦٨، والإستيعاب هامش الإصابة ج ٢ ص ٣٩٩/ ٤٠٠ وراجع: غزوة بدر، فقد أشرنا إلى هذه الرواية هناك أيضاً.

(٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٦٩، وسيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٩١.

(٣) تقدمت مصادر ذلك في هذا الكتاب في فصل هجرة الرسول الأعظم (ص) حين الحديث حول شراء أبي بكر للموالي ونفقاته.

نصدق هذا؟! أم نصدق قولهم: إن أبا بكر سمع والده أبا قحافة يذكر النبي (ص) بشرّ؛ فلطمه لطمة سقط منها، فنهاه النبي (ص) أن يعود لمثلها.

فقال: والله، لو حضرني سيف لقتلته به فنزلت الآية[١].

وهذا يعني أن الآية مكية وليست مدنية قد نزلت في أحد، لأن أبا قحافة قد بقي في مكة إلى حين الفتح.

كما أن هذا ينافي ما قيل في تفسير هذه الآية، من أن المراد: الدعوة إلى الحرب، أو إلى القرآن[٢]. ومقتضى ما ذكر في قصته: أنه دعاه لترك الحرب، وليبقى حياً ويمتعهم بنفسه.

٣ ـ قال ابن ظفر في الينبوع: «لم يثبت أن أبا بكر دعا ابنه للمبارزة، وإنما هو شيء ذكر في كتب التفسير»[٣].

٤ ـ ولما ذكر الجاحظ في عثمانيته هذه الحادثة متبجحاً بها، أجابه الإسكافي بقوله: «ما كان أغناك يا أبا عثمان عن ذكر هذا المقام المشهور لأبي بكر، فإنه لو تسمعه الإمامية لأضافته إلى ما عندها من المثالب، لأن قول النبي «صلى الله عليه وآله»: «إرجع» دليل على أنه لا يحتمل مبارزة أحد، لأنه إذا لم يحتمل مبارزة ابنه، وأنت تعلم حنو الإبن على الأب، وتبجيله له، وإشفاقه عليه، وكفه عنه، لم يحتمل مبارزة الغريب الأجنبي.

وقوله: «ومتعنا بنفسك» إيذان بأنه كان يقتل لو خرج، ورسول الله كان أعرف به من الجاحظ. فأين حال هذا الرجل من حال الرجل الذي

---

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٦٩.

(٢) راجع الدر المنثور ج ٣ ص ١٧٦ عن ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن إسحاق.

(٣) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٦٩.

صلي بالحرب، ومشى إلى السيف بالسيف، فقتل السادة والقادة، والفرسان والرجالة»[1].

٥ ـ وأخيراً . . فإن عائشة تقول: ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن، غير أن الله أنزل عذري[2]. وحتى عذرها هذا لا يمكن أن يكون قد نزل فيها كما اثبتناه في كتابنا حديث الإفك.

فكيف تكون الآية قد نزلت بهذه المناسبة؟!.

هزيمة المشركين:

ويقولون: إنه لما قتل أصحاب اللواء، وانتكست راية المشركين، صاروا كتائب متفرقة، وصار أصحاب الثغرة يرمون المشركين، و«اقتتل الناس قتالاً شديداً، وأمعن في الناس حمزة، وعلي، وأبو دجانة في رجال من المسلمين، وأنزل الله نصره على المسلمين، وكانت الهزيمة»[3].

وعلى حد تعبير الديار بكري: «وقاتل علي في رجال من المسلمين»[4].

وانهزموا، واتبعهم المسلمون، يضعون السيف منهم حيث شاؤا، حتى أجهضوهم، ووقعوا ينتهبون العسكر، ويأخذون ما فيه من الغنائم.

وقد روى كثير من الصحابة ممن شهد أحداً، قال كل واحد منهم:

---

(١) شرح النهج للمعتزلي ج ١٣ ص ٢٩٤ وص ٢٨١، وليراجع آخر كتاب العثمانية ص ٣٤٠ وليراجع ص ٢٣٠.

(٢) صحيح البخاري ط سنة ١٣٠٩ ج ٣ ص ١٢١، وتفسير ابن كثير ج ٤ ص ١٥٩، والدر المنثور ج ٦ ص ٤١، وفتح القدير ج ٤ ص ٢١. وراجع: الغدير ج ٨ ص ٢٤٧.

(٣) الكامل لإبن الأثير ج ١ ص ١٥٣.

(٤) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٢٧.

والله، إني لأنظر إلى هند وصواحبها منهزمات، وما دون أخذهن شيء لمن أراده، ولكن لا مرد لقضاء الله[1].

ويذكرون هنا أيضاً: أن سعد بن أبي وقاص قتل بطلاً آخر، رماه بسهم، ثم أخذ يسلبه درعه، فنهض إليه نفر، فمنعوه سلبه، وكان أجود سلب لمشرك درع فضفاضة، ومغفر، وسيف جيد، يقول سعد: «ولكن حيل بيني وبينه».

ويذكرون كذلك: أن عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، قد قتل أحد فرسان المشركين؛ فنذرت أم المقتول: أن تشرب في قحف رأس عاصم الخمر، وجعلت لمن جاءها به مئة من الإبل؛ فلما قتل يوم الرجيع، وأرادوا أن يأخذوا لها رأسه حمته الدبر ـ أي جماعة النحل والزنابير ـ وثمة تفصيلات أخرى تقال هنا لا مجال لتتبعها.

وسنتكلم عن قضية حماية الزنابير لرأس عاصم في الجزء التالي من هذا الكتاب إن شاء الله.

ونحن نشير هنا إلى ما يلي:

ألف: لماذا لم يُسَبْ من نساء قريش أحد!

ومع أن الفرصة كانت متاحة لسبي نساء قريش في أحد، ولكن لم يُسْبَ أحد منهن. بل نجد: أنه لم يسب لقريش أحد طيلة حروبها مع المسلمين في مدة عشر سنين.

وهذا في الحقيقة لطف إلهي، ونعمة عظيمة على الإسلام وعلى المسلمين، وذلك:

---

(١) مغازي الواقدي ج ١ ص ٢٢٩، وشرح النهج للمعتزلي ج ١٤ ص ٢٣٩ عنه، ومجمع البيان ج ٢ ص ٥١٣، وغير ذلك كثير.

أولاً: لأن سبي نساء قريش لسوف يوقع بعض المسلمين من المهاجرين في حرج نفسي وإجتماعي، ربما تكون له آثار سيئة على موقعه في الإسلام والمسلمين. بل ربما يوجب ذلك حرجاً لبعض المسلمين من الأنصار من أهل المدينة أنفسهم، لأن العلاقات النسبية عن طريق التزويج كانت موجودة بين مكة والمدينة. حتى إن بعض قتلى اللواء في أحد كانت أمهم أوسية.

ثم إن ذلك سوف يؤثر على موقف كثير من المكيين من الإسلام، رفضاً أو قبولاً؛ فإن دخولهم على مجتمع قد عاملهم هذه المعاملة القاسية، في أكثر القضايا حساسية، عاطفياً، واجتماعياً، (بل ربما توجب لهم ـ على حد فهمهم وزعمهم ـ عار الدهر) سوف يكون صعباً جداً، ولا سيما إذا كان لا بد وأن يطلب منهم: التعامل مع هذا المجتمع بروح الصفاء، والمحبة والأخوة. وأنّى يمكنهم ذلك بعد الذي كان.

ثانياً: إنه إذا كان لم يسب لقريش أحد، ولم تستطع أن تنسى ثارات بدر، وأحد، وسائر المعارك. حتى إن حرب صفين ـ كما قالت أم الخير بنت الحريش ـ كانت لإحن بدرية، وأحقاد جاهلية، وضغائن أحدية، وثب بها معاوية حين الغفلة؛ ليدرك ثارات بني عبد شمس[1].

بل إن مجزرة كربلاء، وفاجعة قتل الإمام الحسين «عليه السلام» وأهل بيته وأصحابه، كانت لها دوافع بدرية، وإحن أحدية أيضاً، فقد قال اللعين يزيد بن معاوية:

ليت أشياخي ببدر شهدوا　　جزع الخزرج من وقع الأسل
لأهلّوا واستهلوا فرحاً　　ثم قالوا: يا يزيد لا تشل

---

(١) العقد الفريد ط دار الكتاب ج ٢ ص ١١٥، وصبح الأعشى ج ١ ص ٢٩٧، وبلاغات النساء ص ٥٧، وفي الغدير ج ٩ ص ٣٧١، ونهاية الأرب ج ٧ ص ٢٤١.

قـد قتلنـا القـرم من أشيـاخهم   وعـدلنـا ميـل بـدر فـاعتـدل

ولمـا وصل رأس الحسين «عليـه السلام» إلى المـدينـة رمى مـروان بالرأس نحو قبر النبي (ص)، وقال: يا محمـد يوم بيـوم بدر[1] وقيـل: إن الذي قال هذا هو الأشدق، كما في مثالب أبي عبيدة[2].

هذا كله عدا عن واقعة الحرة، وسائر المواقف العدائية لقريش تجاه أهل البيت، وأصحابهم، وشيعتهم. فلو أن النبي (ص) كان قد سبى أحداً من قريش؛ فما هي الحالة التي يمكن تصورها لزينب، وسبايا كربـلاء؟! اللواتي تجرّعن الغصص، وواجهن أفظع المصائب والبلايا، على يد يزيد الغادر الأثيم، وأعوانه، أعوان الشيطان؟! ومع ذلك نجدهم يقـولون: إنـه إمـام مجتهد، أو أنـه كان مجتهـداً متـأولاً مخـطئـاً[3]. مـع أنهم يقـولـون بالتصويب في الإجتهاد. وهل ليزيد حظ من العلم، فضـلاً عن نيل شـرف الإجتهاد؟! فإنا لله وإنا إليه راجعون!!

ب : مقارنة:

قـال المعتزلي: «قلت: شتـان بين علي وسعد، هـذا يجاحش على السلب، ويتأسف على فواتـه، وذاك يقتل عمـرو بن عبد ود يـوم الخندق، وهو فارس قريش، وصنديـدها، ومبـارزه؛ فيعرض عن سلبـه؛ فيقال لـه: كيف تركت سلبه، وهو أنفس سلب؟! فيقول: كرهت أن أبزّ السبّي ثيـابه.

---

(١) شرح النهج للمعتزلي تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ج ٤ ص ٧١، ٧٢ عن الإسكافي.

(٢) راجع: الغدير ج ١٠ ص ٢٦٤.

(٣) الفصل لإبن حزم ج ٤ ص ٨٩، وتاريخ ابن كثير ٧/ ٢٧٩ و٨/ ٢٢٣ وج ١٣ ص ٩، والغدير ٩/ ٩٣/ ٣٩٤ عنهم. والعواصم من القواصم. وكذا قالوا في ابن ملجم أيضاً كما ذكره في الغدير عنهم أيضاً، فراجع الصفحات المشار إليها.

فكأن حبيباً [يعني أبا تمام الطائي رحمه الله] عناه بقوله:

إن الأسـود أسود الغـاب همتهـا   يوم الكريهة في المسلوب لا السلب[1]»

الهزيمة بعد النصر:

ويقولون: لما رأى أصحاب الثغرة المشركين قد انهزموا، وأن المسلمين يغنمون، اختلفوا، فبعضهم ترك الثغرة للغنيمة.

وفي معالم التنزيل: إنهم قالوا: نخشى أن يقول رسول الله (ص): من أخذ شيئاً فهو له، ولا يقسم الغنائم ـ كما لم يقسمها يوم بدر[2].

وقال بعضهم: وكانوا فوق العشرة، أو دونها ـ: لا نخالف أمر رسول الله (ص).

ولما سأل رسول الله (ص) التاركين لمراكزهم عن سبب ذلك، قالوا: تركنا بقية إخواننا وقوفاً، فقال: بل ظننتم: أنا نغل؛ فلا نقسم لكم. فأنزل الله تعالى: **﴿وما كان لنبي أن يغلّ، ومن يغلل يأت بما غلّ﴾** ـ الآية ـ وقال بعضهم: وأنزل الله: **﴿منكم من يريد الدنيا، ومنكم من يريد الآخرة﴾**.

فلما رأى خالد قلة من على الثغرة، وخلاء الجبل، واشتغال المسلمين بالغنيمة، ورأى ظهورهم خالية، صاح في خيله، فمر بهم، وتبعه عكرمة في جماعة؛ فحملوا على من بقي في الثغرة؛ فقتلوهم جميعاً، ثم حملوا على المسلمين من خلفهم. ورأت قريش المنهزمة عودة

---

(١) شرح النهج للمعتزلي ج ١٤ ص ٢٣٧.

(٢) الظاهر: أن هذه جملة إعتراضية، زادها الرواة تبرعاً، وإلا فقد تقدم: أنه (ص) قد قسم الغنائم في بدر، بل لقد ادّعوا ـ وإن كان ذلك كذباً ـ: أنه(ص) قد أسهم لمن لم يكن قد حضرها، فكيف بغيره. فراجع.

رجالها للحرب، ورفعت الحارثية لواءهم الذي كان ملقى على الأرض؛ فعادوا إلى الحرب من جديد.

وإذا كان المسلمون قد تفرقوا، وانتقضت صفوفهم، ولم يعودوا صفاً واحداً كالبنيان المرصوص، يشد بعضه بعضاً، وفقدوا الإرتباط بقيادتهم الحكيمة، وهم في طلب المغنم، فمن الطبيعي أن لا يتمكنوا من مقاومة هذه الحملة الضارية، وأن يضيعوا بين أعدائهم، فكان همٌّ كل واحد منهم أن ينجو بنفسه فقد ـ أهّمتهم أنفسهم ـ على حد تعبير القرآن الكريم.

لا سيما وأن أحد المشركين قد قصد مصعب بن عمير وهو يذب عن رسول الله، فظن أنه الرسول فقتله، (فيقال: إن اللواء كان معه، فأخذه أبو الروم.

ويقال: بل أخذه ملك في صورة مصعب. والذي عليه المحققون: أن النبي (ص) أعطاه علياً(ع)، وقد قدمنا أن الظاهر هو أن هذا اللواء خاص، وليس هو لواء الجيش، الذي كان مع علي (ع). ونادى قاتل مصعب ـ أو غيره ـ: أن محمداً قد قتل؛ فازداد المشركون جرأة، وهُزِم المسلمون الذين، لم يستطيعوا جمع شملهم، ولمّ شعثهم. وثبت علي (ع) وحده معه (ص)، يدافع عنه.

وخلص العدو إلى رسول الله (ص)، وكُلِمَت شفته، وشُجَّ في وجهه، ونشبت حلقتان من الدرع في وجهه الشريف، ودُثّ بالحجارة، حتى وقع لشقه. كذا يقولون.

ويقولون أيضاً: إن أبا عبيدة هو الذي انتزع حلقتي الدرع من وجهه الشريف فسقطت ثنيتاه، فكان أحسن الناس هتماً. وقيل: بل انتزعهما أبو بكر، وقيل: طلحة، وقيل: عقبة بن وهب[1].

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٣٥، ومغازي الواقدي ج ١ ص ٢٤٧، وشرح النهج =

ولابـد أن يكون انتـزاعها بعـد عودة المسلمين من هـزيمتهم، كمـا سنـرى. كما أن الـذي كسر ربـاعيتـه (ص) لم يـولـد لـه ولـد، إلا وابتلي بالهتم، كما يقال.

تصحيح وتوضيح:

وقد تصدّى الإمام الصادق «عليه السلام» لتصحيح بعض ما كان يشاع حول أن النبي (ص) قد ترك موضعه وتراجع حتى بلغ الغار الذي في جبل أحد، فأوضح «عليه السلام» أن النبي (ص) لم يتزحزح من موقفه ولم يتراجع قيد شعرة.

كما أنه «عليه السلام» لم يكن قد نقص من خلقته شيء، ولم تكسر رباعيته، فقد روي عن الإمام الصادق (ع): أنه قد ردّ ذلك، فقد قال له الصباح بن سيابة: «كسرت رباعيته كما يقول هؤلاء؟!

قال: لا والله، ما قبضه الله إلا سليماً، ولكنه شج في وجهه.

قلت: فالغار في أحد الذي يزعمون: أن رسول الله (ص) صار إليه؟!

قال: والله، ما برح مكانه. وقيل له: ألا تدعو عليهم؟ قال: «اللهم أهد قومي» إلخ[1].

ولعلهم أرادوا بـذلـك أن يثبتـوا الهـزيمـة للنبي ليخف العـار عن المنهزمين الذين يحبونهم.

الرسول يدعوهم في اخراهم :

وحين هزم المسلمون، جعل الرسول (ص) يدعوهم في أخراهم:

= للمعتزلي ج ١٥ ص ٣٣، وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٣١. وليلاحظ مدى الإختلاف في هذا!!

(١) البحار ج ٢٠ ص ٩٦، وإعلام الورى ص ٨٣.

إليّ عباد الله، إلي عباد الله، إليّ يا فلان، إليّ يـا فلان، وهم يصعـدون ولا يلوون، ولا يعرّج عليه أحد، والنبل يأتي إليه من كل ناحية.

واستمروا في هزيمتهم حتى الجبل، وفيهم: أبو بكر، وعمر، وطلحة، وسعد بن أبي وقاص، وغيرهم. أما عثمان فقد استمر في هزيمته ثلاثة أيام، وستأتي نصوص ذلك كله بعد صفحات إن شاء الله تعالى.

علي (ع)، وكتائب المشركين :

وحين انهزم الناس غضب، «صلى الله عليه وآله وسلّم»، ونظر إلى جنبه، فإذا علي «عليه السلام»؛ فقال: ما لك لم تلحق ببني أبيك؟!

فقال «عليه السلام»: يا رسول الله، أكفر بعد إيمان؟! إن لي بك أسوة[1].

ويقول النص التاريخي: كان الذي قتل أصحاب اللواء علي، قاله أبو رافع.

وصارت تحمل كتائب المشركين على رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فيقول: يا علي، اكفني هذه؛ فيحمل عليهم، فيفرقهم، ويقتل فيهم.

حتى قصدته كتيبة من بني كنانة، فيها بنو سفيان بن عويف الأربعة فقال له (ص): اكفني هذه الكتيبة، فيحمل عليها، وإنها لتقارب خمسين فارساً، وهو «عليه السلام» راجل، فما زال يضربها بالسيف حتى تتفرق عنه ثم تجتمع عليه هكذا مراراً حتى قتل بني سفيان بن عويف الأربعة وتمام العشرة منها، ممن لا يعرف بأسمائهم فقال جبريل «عليه السلام»: يا محمد، إن هذه المواساة، لقد عجبت الملائكة من مواساة هذا الفتى!

---

(١) البحار ج ٢٠ ص ٩٥ و١٠٧ عن إعلام الورى، وروضة الكافي ص ١١٠.

فقال (ص): وما يمنعه، وهو مني وأنا منه؟!

فقال جبريل: وأنا منكما.

ثم سمع مناد من السماء:

لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلاّ علي

فسُئِل (ص) عنه؛ فقال: هذا جبريل[1].

قال المعتزلي: «. . . قلت: وقد روى هذا الخبر جماعة من المحدثين، وهو من الأخبار المشهورة، ووقفت عليه في بعض نسخ مغازي محمد بن إسحاق، ورأيت بعضها خالياً منها، وسألت شيخي

---

(١) النص المتقدم في أكثره للمعتزلي في شرح النهج ج ١٤ ص ٢٥٠/ ٢٥١ عن الزاهد اللغوي غلام ثعلب، وعن محمد بن حبيب في أماليه، وراجع ج ١٣ ص ٢٩٣، وراجع الرواية في الأغاني ط ساسي ج ١٤ ص ١٨، وتاريخ الطبري ج ٢ ص ١٩٧، والكامل لإبن الأثير ج ٢ ص ١٥٤، وفرائد السمطين، الباب الخمسون ج ١ ص ٢٥٧، ومجمع الزوائد ج ٦ ص ١١٤ و١٢٢ عن البزار وعن الطبراني، وكنز العمال ج ١٥ ص ١٢٦، والبداية والنهاية ج ٦ ص ٥، واللآلي المصنوعة ج ١ ص ٣٦٥، وتفسير القمي ج ١ ص ١١٦، والبحار ج ٢٠ ص ٥٤ و ٩٥ و ١٠٥ و١٠٧ و ١٠٢ عن القمي، وعلل الشرايع ص ٧ باب ٧، والإرشاد ص ٤٦، وإعلام الورى وتفسير فرات ص ٢٤/ ٢٦، وروضة الكافي ص ١١٠، وعيون أخبار الرضا ج ١، وحياة الصحابة ج ١ ص ٥٥٩، وربيع الأبرار ج ١ ص ٨٣٣، ومناقب الخوارزمي ص ١٠٣، إلا أن فيه: أن ذلك كان في بدر. والغدير ج ٢ ص ٥٩ ـ ٦١ عن العديد من المصادر، وسيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٠٦، وتاريخ ابن عساكر ترجمة علي (ع) بتحقيق المحمودي ج ١ ص ١٤٨/ ١٤٩/ ١٥٠، وفي هامشه عن الفضائل لأحمد بن حنبل، الحديث رقم ٢٤١، والمعجم الكبير للطبراني ج ١ ص ٣١٨، وغاية المرام ص ٤٥٧، وفضائل الخمسة من الصحاح الستة ج ١ ص ٣٤٣، والرياض النضرة المجلد الثاني ج ٣ ص ١٣١، وعن علي بن سلطان في مرقاته ج ٥ ص ٥٦٨ عن أحمد في المناقب.

عبد الوهاب بن سكينة رحمه الله عن هذا الخبر، فقال: هذا الخبر صحيح إلخ»[١].

وبعد أن صدّ أمير المؤمنين «عليه السلام» تلك الكتائب لم يعد منهم أحد[٢].

وأصيب أمير المؤمنين بجراح كثيرة، قال أنس بن مالك: «أتي رسول الله (ص) بعلي (ع) يومئذ وفيه نيف وستون جراحة، من طعنة، وضربة، ورمية. فجعل رسول الله (ص) يمسحها وهي تلتئم بإذن الله تعالى كأن لم تكن[٣].

وقبل أن نتابع حديثنا نسجل ما يلي:

ألف: استشهاد حمزة رضوان الله عليه:

وبعد قتل أصحاب الألوية، واشتداد الحرب، قال وحشي: والله، إني لأنظر إلى حمزة يهدّ الناس هدّاً، بسيف ما يبقي شيئاً، مثل الجمل الأورق. فاختبأ وحشي خلف شجرة، أو حجر، ورصد حمزة حتى مرّ عليه، بعد قتله سباع بن عرفطة بن عبد العزى، وقبله أبا نيار، فأتاه من ورائه[٤] فدفع عليه حربته، فأصابت ثُنّته... فأقبل حمزة نحوه، فغلب، فوقع؛ فلما مات جاءه وحشي، وأخذ حربته، وشغل المسلمون عن وحشي بهزيمتهم[٥].

---

(١) شرح النهج للمعتزلي ج ١٤ ص ٢٥١.

(٢) الإرشاد للشيخ المفيد ص ٥٣، والبحار ج ٢٠ ص ٨٨.

(٣) البحار ج ٢٠ ص ٢٣، ومجمع البيان ج ٢ ص ٥٠٩.

(٤) البدء والتاريخ ج ٤ ص ٢٠١.

(٥) إرشاد المفيد ص ٥٠، والبحار ج ٢٠ ص ٨٤.

ورجع وحشي إلى العسكر، ومكث فيه، ولم يكن له بغيره حاجة. وأعطته هند ثوبها وحليها، ووعدته عشرة دنانير بمكة.

نعم، عشرة دنانير لقاتل أسد الله وأسد رسوله!!.

استطراد حول وحشي:

ولما عاد وحشي إلى مكة أُعتق. ويقال: إنه ندم على ما فعل، لأنه لم يُعتق[١]. فلما كان فتح مكة هرب إلى الطائف؛ فقيل له: «ويحك، إنه والله لا يقتل أحداً من الناس دخل دينه» فذهب مع الوفد إلى المدينة. وقبل أن يقع نظر النبي (ص) عليه شهد شهادة الحق. فلما رآه النبي (يقال: إنه طلب منه: أن يحدثه كيف قتل حمزة، ففعل) وقال له (ص): غيّب وجهك عني، فكان يتنكبه حيث كان؛ لئلا يراه حتى قبضه الله[٢].

قال ابن إسحاق: فبلغني: أن وحشياً لم يزل يحدّ في الخمر حتى خلع من الديوان. فكان عمر بن الخطاب يقول: قد علمت: أن الله لم يكن ليدع قاتل حمزة. ثم مات غريقاً في الخمر[٣].

ونعلق على ما تقدم بأمور:

الأول: قد يقال: إن كلمة عمر في حق وحشي تشير إلى أن الله تعالى سوف يخذل قاتل حمزة، ولا يمدّه بالتوفيقات والعنايات والألطاف؛ بل يطبع على قلبه بما عصى واعتدى.

---

(١) راجع: السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٤٤، والطبري ج ٢ ص ١٩٥.

(٢) راجع في ذلك: تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٢٦، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٤٩، وحياة الصحابة ج ١ ص ٥٧٢، والبداية والنهاية ج ٤ ص ١٨ عن ابن إسحاق. وقال في آخره: وأخرجه البخاري، عن جعفر بن عمر.

(٣) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٤٩، وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٢٦، وإسعاف الراغبين، بهامش نور الأبصار ص ٨٦.

ولكن الحقيقة هي خلاف هذا التوجيه، فإن عمر ـ على ما يظهر ـ كان يذهب إلى أبعد من ذلك، فهو يقول: إن الله سوف لا يدع قاتل حمزة، بل سوف يلاحقه في كل مكان لينتقم منه بصورة مباشرة، وسوف لا يدعه وشأنه، ولن يفسح له المجال لإصلاح نفسه، ولعمل الخير، وملازمة التقوى.

إذن، فشرب وحشي للخمر هو نتيجة لهذا التصميم الإلهي على الإنتقام من هذا الرجل. ومعنى ذلك هو أن شربه للخمر كان من فعل الله سبحانه، ووحشي كان مجبوراً على ذلك.

نقول هذا لأن لدينا الكثير من الدلائل والشواهد على أن عمر كان لا يزال يعتقد بالجبر الإلهي، وأن جهود النبي (ص) لم تفلح في قلع هذه الرواسب من نفسه، ونفوس الكثيرين ممن كانوا قد عاشوا في الجاهلية، وتربوا على مفاهيمها وأفكارها. وقد ذكرنا طائفة من النصوص والمصادر لهذا الموضوع في كتابنا: «أهل البيت في آية التطهير، أواخر الفصل الخامس من القسم الأول».

والذي نعتقده وهدانا إليه القرآن والإسلام والعقل، هو أن الله تعالى لم يكن ليجبر عباده على شيء، وإنما هم يعصون ويطيعون بملء إختيارهم. ولسنا هنا بصدد تحقيق ذلك.

الثاني: إن وحشياً قد أسلم؛ لأن من عادة النبي «صلى الله عليه وآله» أن لا يقتل أصحابه، كما أنه لما طلب عمر من النبي (ص) أن يقتل ابن أبيّ المنافق، أجابه (ص): دعه، لا يتحدث الناس: أن محمداً يقتل أصحابه[1].

---

(١) المصنف ج ٩ ص ٤٦٩ عن ابن المديني، والحميدي عن ابن عيينة، وأخرجه مسلم. وصحيح البخاري ط سنة ١٣٠٩ ج ٣ ص ١٣٢، ومجمع الزوائد ج ٦ ص ٢٣١.

ولما رجعوا من أحد إلى المدينة، وأرجف بهم المنافقون، وأظهروا الشماتة، طلب عمر بن الخطاب من النبي «صلى الله عليه وآله»: أن يأمره بقتلهم، فرفض (ص) ذلك؛ لأنه مأمور أن لا يقتل من يتشهد الشهادتين[١].

وحين كان (ص) يقسّم مالاً، اعترض عليه أحدهم بأنه لا يعدل، فغضب (ص) حتى احمرت وجنتاه، فقال: ويحك فمن يعدل إذا لم أعدل؟!

فقال أصحابه: ألا تضرب عنقه؟.

فقال: لا أريد أن يسمع المشركون أني أقتل أصحابي[٢].

وقد قال (ص) ذلك أيضاً حين أراد عبدالله بن عبدالله بن أبيّ أن يقتل أباه فراجع[٣].

نعم، وهذه هي الخطة الحكيمة والصحيحة، لأن قتله لأصحابه، معناه:

١ ـ أن لا يرغب أحد بعد في الدخول في الإسلام لأنه لا يرى فيه عصمة لنفسه، ولا يطمئن لمستقبله ووجوده. كما أن من دخل فيه يجد نفسه مضطراً للتخلي عنه، واختيار طريق الردّة، فيما لو صدر منهم أي عمل سيء أحياناً له مساس بالحالة العامة، أو بشخص النبي (ص) دون ما يقع في نطاق التعدي على حقوق الآخرين وحرماتهم.

---

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٥٦ ولهذا نظائر أيضاً لا مجال لتتبعها ستأتي في أواخر هذا الجزء، أواخر فصل بعدما هبت الرياح.

(٢) كنز العمال ج ١١ ص ٢٩٥ عن ابن جرير، والبداية والنهاية ج ٧ ص ٢٩٧ و ٢٩٨ عن أحمد، ومسلم، والنسائي.

(٣) الدر المنثور ج ٦ ص ٢٢٥ عن عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وسعيد بن منصور، والبخاري، ومسلم، والترمذي، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل.

٢ ـ أن يفسح المجال أمام أعداء الإسلام للقيام بحملة دعائية ضده، ومنع الناس من التعرف عليه والإهتداء بهديه، حيث يطعن أعداؤه عليه بأنه (ص) كسائر الملوك الذين يستفيدون من الناس حتى يحققوا أهدافهم، ثم يقتلون من ناصرهم على الظن والتهمة.

٣ ـ إن ذلك ربما يدفع ضعفاء النفوس، ممن أظهروا الإسلام إلى التخلي عنه، ابتعاداً بأنفسهم عن مواطن الخطر بزعمهم.

٤ ـ أضف إلى ما تقدم: أن ذلك منه (ص) لربما يتخذ من قِبَل حكام الجور والإنحراف ذريعة لقتل الأبرياء، والتخلص من خصومهم السياسيين، ثم يحتجون بأن رسول الله (ص) قد فعل ذلك.

٥ ـ كما أنه لا يبقى مجال للتعصبات القبلية، التي ربما تؤدي إلى خروج قبيلة بكاملها من الإسلام. ولعله لأجل ذلك نجد أبا سفيان لا يثأر لأبي أزيهر الدوسي، وكان في جواره، ومنع ولده من ذلك أيضاً، وقال له: «أتريد أن تفرق بين قريش؛ فيقوى علينا محمد؟ لعمري ما بدوس عجز عن طلب ثأرهم»[1].

٦ ـ هذا كله عدا عن أنه (ص) لو فعل ذلك، لخسر أبناء المقتولين، وإخوانهم، وكثيراً من عشائرهم، وأصبحت علاقاتهم به لا تقوم على أساس الحب، بل على أساس الخوف من سلطانه، الأمر الذي سوف يدفع الكثيرين منهم للبحث عن منافذ للفرار، والتخلص من هيمنة رجل قتل أحباءهم بالأمس، ولربما تصل النوبة إليهم اليوم أو غداً.

الثالث: إن موقف الرسول الأعظم «صلى الله عليه وآله وسلّم» من وحشي، وقوله له: غيِّب وجهك عني، إن دل على شيء؛ فإنما يدل على أن وحشياً لم يكن مسلماً حقاً؛ إذ لا يمكن أن يقول النبي (ص) ذلك

---

(١) نسب قريش لمصعب الزبيري ص ٣٢٣.

لمسلم مؤمن؛ بسبب ما كان قد ارتكبه حين كفره، فإن الإسلام يجبّ ما قبله.

وعليه فإن التشهّد بالشهادتين، وإن حقن دم وحشي، إلا أنّه إنما أسلم حينما رأى البأس، بعد أن أهدر النبي «صلى الله عليه وآله» دمه. فإسلامه وإيمانه لا ينفعه؛ لأنه في الحقيقة لم يكن مستنداً إلى الإختيار، ولا إلى القناعة الوجدانية والعقلية بهذا الدين. وأعتقد: أنه لولا شبهة: أن النبي (ص) إنما قتل مسلماً، وما سوف يوجب ذلك من تبلبل في الأفكار، ومن ضرر على الإسلام، لكان للنبي (ص) أن يقتله. وإن أعماله الشنيعة والقبيحة، وسيرته الخبيثة بعد ذلك لتدل دلالة واضحة على أنه لم يسلم، وإنما استسلم، تماماً كما كان الحال بالنسبة لطلقاء مكة، أبي سفيان وأصحابه.

ب : هل يدعو النبي (ص) على قومه؟!:

وقد رووا عن أنس: أن النبي (ص) جعل يمسح الدم عن وجهه، ويقول: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم، وهو يدعوهم إلى ربهم، فأنزل الله تعالى: **﴿ليس لك من الأمر شيء، أو يتوب عليهم، أو يعذبهم، فإنهم ظالمون﴾**[1].

---

(١) راجع: الجامع الصحيح للترمذي ج ٥ ص ٢٢٧، وفتح الباري ج ٨ ص ١٧١ وج ٧ ص ٢٨١، وصحيح البخاري ج ٣ ص ١٦، وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٢٩ عن ابن إسحاق، والترمذي، والنسائي، وشرح النهج للمعتزلي ج ١٥ ص ٤، ومغازي الواقدي ج ١ ص ٢٤٥، ومجمع البيان ج ٢ ص ٥٠١، والبحار ج ٢٠ ص ٢١، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٣٤، والدر المنثور ج ٢ ص ٧٠/ ٧١ عن: ابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، وابن جرير، والنسائي، وابن المنذر، والنحاس في ناسخه، وابن أبي حاتم، وعبد الرزاق، والبيهقي في الدلائل، ونصب الراية ج ٢ ص ١٢٩.

وقيل: إنه (ص) جعل يلعن أبا سفيان، وصفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحرث بن هشام ـ وأضافت بعض الروايات: عمرو بن العاص ـ فنزلت الآية، فتيب عليهم كلهم[1].

وقيل: إنه (ص) همّ أن يدعو عليهم، فنهاه الله تعالى بهذه الآية؛ لعلمه بأن فيهم من يؤمن، فكف عن الدعاء عليهم[2].

ونحن نشك في صحة ما تقدم، وذلك لما يلي:

١ ـ تناقض الروايات المتقدمة.

٢ ـ إنهم يقولون: إن سبب نزول الآية هو: أنه (ص) كان يقنت في صلاته بعد الركوع، ويدعو على مضر، وفي صلاة الفجر يدعو على بعض الأحياء العربية، فنزل قوله تعالى: **﴿ليس لك من الأمر شيء﴾**[3].

وسيأتي ذلك في الجزء الآتي من هذا الكتاب في فصل القنوت والدعاء على القبائل.

وفي نص آخر: إنه (ص) كان يلعن فلاناً وفلاناً من المنافقين،

---

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٣٤، والدر المنثور ج ٢ ص ٧١ عن: أحمد، والبخاري، والترمذي، والبيهقي في الدلائل، وابن جرير، والنسائي، وابن أبي حاتم، وصحيح البخاري ج ٣ ص ١٦، وراجع ج ٤ ص ١٧١ و ٧٤ وج ٢ ص ٧٣، وفتح الباري ج ٨ ص ١٧٠، ونصب الراية ج ٢ ص ١٢٧ و ١٢٩، ونيل الأوطار ج ٢ ص ٣٩٨، وراجع: سنن البيهقي ج ٢ ص ٢٠٧ و ٢٠٨، والجامع الصحيح للترمذي ج ٥ ص ٢٢٧ و ٢٢٨، ومسند أحمد ج ٢ ص ٩٣.

(٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٣٤/ ٢٤١، وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٢٩، والدر المنثور ج ٢ ص ٧١ عن ابن جرير.

(٣) الدر المنثور ج ٢ ص ٧١ عن البخاري ومسلم، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس في ناسخه، والبيهقي في سننه، ومجمع البيان ج ٢ ص ٥٠١، والبحار ج ٢٠ ص ٢١ عنه.

فأنزل الله سبحانه الآية[1].

وفي أخرى: أن الآية قد نزلت، حينما أساء رجل من قريش الأدب مع النبي (ص)، حيث كشف عن استه بحضرته، فدعا عليه (ص) ثم أسلم، فحسن إسلامه[2].

٣ ـ إنهم يقولون: إنه (ص) قد قال حين شج في وجهه: اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون[3].

٤ ـ وأخيراً لو كانت الآية المباركة المذكورة نازلة «ردّاً على النبي (ص)، لم يبق ثمة مناسبة بينها وبين الآية التي قبلها.

ولم يمكن تفسير هذه الآية تفسيراً معقولاً ومقبولاً، وخصوصاً قوله تعالى: ﴿أو يتوب عليهم﴾، فإنه عطف على الآية قبلها، والآيتان هما:

﴿ليقطع طرفاً من الذين كفروا، أو يكبِتَهم، فينقلبوا خائبين. ليس لك من الأمر شيء، أو يتوب عليهم، أو يعذبهم، فإنهم ظالمون. ولله ما في السماوات وما في الأرض، يغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء﴾[4].

---

(١) الدر المنثور ج ٢ ص ٧١ عن النحاس في ناسخه، وعبد بن حميد والمحلى ج ٤ ص ١٤٤، وسنن البيهقي ج ٢ ص ٩٨، و٢٠٧، والمنتقى ج ١ ص ٥٠٣، وليس فيه عبارة: «ناساً من المنافقين» وراجع: سنن النسائي ج ٢ ص ٢٠٣، وصحيح البخاري ج ٣ ص ٧٤ وج ٤ ص ١٧١، والإحسان في تقريب صحيح ابن حبان ج ٥ ص ٣٢٥/ ٣٢٦، ومسند أحمد ج ٢ ص ١٤٧ و٩٣، وعن شرح معاني الآثار ج ١ ص ٢٤٢.

(٢) الدر المنثور ج ٢ ص ٧١ عن ابن إسحاق، والنحاس في ناسخه.

(٣) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٣٢ عن ابن عائذ، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٥٦، ومجمع البيان ج ٢ ص ٥٠١، والبحار ج ٢٠ ص ٢١ و٩٦ عنه، وعن إعلام الورى.

(٤) آل عمران: ١٢٧ ـ ١٢٩.

والمعنى: أن نصر الله لكم ببدر، وإمداده لكم بالملائكة، وغير ذلك من أمور، إنما هو ليقطع الله منهم طرفاً، ويقلّل عدتهم بالقتل والأسر، أو ليخزيهم ويغيظهم، أو ليتوب عليهم، أو ليعذبهم.

فأما القطع والكبت؛ فلأن الأمر إليه (أي إلى الله) لا لك يا محمد، لتمدح أو تذم، وقد ذكر هذا بنحو الجملة الإعتراضية بين الأقسام المتقدمة. وأما التوبة والعذاب؛ فلأن الله هو المالك لكل شيء؛ فيغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء[١].

فلا ربط للآية إذن بالكلام المنسوب إلى النبي (ص). ولو كان الكلام منفصلاً عما قبله كما تقتضيه الروايات المتقدمة، لورد سؤال: إن قوله: «أو يتوب عليهم» معطوف على ماذا؟![٢].

هذا، ويجب أن لا ننسى أن ثمة يداً تحاول أن تثبت الإيمان للأربعة المتقدم ذكرهم، وهم: أبو سفيان، وصفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحرث بن هشام ـ ولغيرهم من أعوانهم ـ ممن صارت السلطة فيما بعد إلى قومهم وأبنائهم. مع أنهم من الطلقاء والمنافقين المؤلفة قلوبهم، ومع أنه قد صدرت منهم أمور تدل على أنهم لم يسلموا، وإنما استسلموا كما سنذكره عن خصوص أبي سفيان في أواخر غزوة أحد إن شاء الله تعالى.

استطراد هام:

ومما يلفت النظر هنا قولهم المتقدم: إنه (ص) جعل يلعن صفوان وأبا سفيان إلخ. فنزلت الآية، فتيب عليهم كلهم.

---

(١) راجع تفسير الميزان ج ٤ ص ٩.

(٢) سنعود إلى توضيح هذه الآية في الجزء الخامس من هذا الكتاب، في فصل القنوت والدعاء على القبائل.

وأعجب من ذلك: أن نجد ابن كثير يدعي، بالنسبة لدعاء النبي (ص) على معاوية بقوله: «لا أشبع الله بطنه، قال: فما شبع بعدها»[١]: أن معاوية قد انتفع بهذا الحديث دنيا وآخرة: أما في الدنيا فكان بعدما يأكل الكثير يقول: والله ما أشبع وإنما إعياء، وهذه نعمة ومعدة يرغب فيها كل الملوك. وأما في الآخرة، فقد أتْبَعَ مسلم هذا الحديث بالحديث الذي رواه البخاري، وغيرهما من غير وجه، عن جماعة من الصحابة: أن رسول الله (ص) قال: اللهم إنما أنا بشر (وفي رواية: اللهم إنما محمد بشر يغضب كما يغضب البشر) فأيما عبد سببته، أو جلدته، أو دعوت عليه، وليس لذلك أهلاً، فاجعل ذلك كفارة وقربة تقربه بها عندك يوم القيامة» (وفي نص: سببته أو لعنته أو جلدته، فاجعلها له زكاة ورحمة. أو: فاجعل ذلك له قربة إليك)[٢]. قال ابن كثير: «فركّب مسلم من الحديث الأول وهذا الحديث فضيلة لمعاوية، ولم يورد له غير ذلك»[٣].

وثمة نصوص منقولة عن مصادر كثيرة حول شبع بطن معاوية لا مجال لإيرادها هنا. وقد علق عليها العلامة الأميني بما هو مفيد فليراجع[٤].

أما نحن فنكتفي هنا بالإشارة إلى الحديث الآخر، فنسجل ما يلي:

---

(١) صحيح مسلم ج٨ ص٢٧، والبداية والنهاية ج ٨ ص ١١٩.

(٢) راجع هذه النصوص في: صحيح مسلم ج ٨ ص ٢٧، وج ٢ ص ٣٩١ كتاب البر والصلة، والغدير ج ١١ ص ٨٩، وج ٨ ص٢٥٢ عنه، ومسند أحمد ج ٥ ص ٤٣٧ و٤٣٩، وج ٦ ص ٤٥، وج ٢ ص ٣٩٠ و٤٨٨ و٤٩٣ و٤٩٦، وج ٣ ص ٣٣ و٣٩١ و٤٠٠، وصحيح البخاري ج ٤ ص ٧٨، ودلائل الصدق ج ١ ص ٤١٦، وراجع: نسب قريش لمصعب ص ٢١٩، وأسد الغابة ج ٥ ص ٤٨٥، والمصنف ج ٥ ص ٢١٤، وج ١١ ص ١٨٩، وج ٩ ص ٤٦٩.

(٣) البداية والنهاية ج ٨ ص ١١٩ والغدير عنه.

(٤) راجع: الغدير ج ١١ص ٨٩/ ٩٠.

١ ـ روي عنه (ص) أنه قال: المؤمن لا يكون لعاناً[1] وقال، وقد أبى الدعاء على المشركين: إني لم أبعث لعاناً، وإنما بعثت رحمة[2]، فلم يلعنهم ولا دعا عليهم. وقال (ص) لما لعنت جارية ناقتها: لا تصاحبنا ناقة عليها لعنة[3]، وروي عنه (ص) ماهو قريب من ذلك حينما سمع رجلاً لعن ناقته[4].

وقال سلمة بن الأكوع: كنا إذا رأينا الرجل يلعن أخاه، رأينا أن قد أتى باباً من الكبائر[5].

وجاء في اللعنة أحاديث كثيرة لا مجال لتتبعها[6].

٢ ـ وقد ذكر في الرواية: السباب. مع أنه (ص) قال: سباب المؤمن فسوق.

وقال (ص): المستّبان شيطانان يتهاتران ويتكاذبان. وغير ذلك[7].

(١) مستدرك الحاكم ج ١ ص ١٢ و٤٧، والغدير ج ١١ ص ٩٠ عنه. وبقية المصادر ستأتي في الجزء السادس في فصل القنوت والدعاء على القبائل.

(٢) الغدير ج ١١ ص ٩١ وج ٨ ص ٢٥٢، وصحيح مسلم ج ٨ ص ٢٤، وصحيح البخاري ج ٤.

(٣) الغدير ج ١١ ص ٩٢، وصحيح مسلم ج ٨ ص ٢٣، وراجع: الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٤٧٤، ومسند أحمد ج ٦ ص ٧٢ و٢٥٨ و١٣٨ وج ٤ ص ٤٢٩ و ٤٢٠ و٤٢٣، وسنن الدارمي ج ٢ ص ٢٨٨، وسنن أبي داود ج ٣ ص ٢٦، ودلائل الصدق ج ١ ص ٤١٦ و٤١٧ .

(٤) الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٤٧٤، والغدير ج ١١ ص ٩٢.

(٥) الغدير ج ١١ ص ٩٢، والترغيب والترهيب ج ٣ ص ٤٧٢.

(٦) راجع هذه الأحاديث في الغدير للعلامة الأميني ج ١١ ص ٨٩ ـ ٩٣ وج ٨ ص ٢٥٢ عن كثير من المصادر، ودلائل الصدق ج ١ ص ٤١٦.

(٧) الغدير ج ١١ ص ٩١ وج ٨ ص ٢٥٢ عن البخاري ج ١، ومسلم، والترمذي، =

٣ ـ وأما أن النبي بشر يرضى ويغضب ، فإنه (ص) هو نفسه قال لعبْد الله بن عمرو: أكتب عني في الغضب والرضا، فوالذي بعثني بالحق نبياً، ما يخرج منه إلّا حق، وأشار إلى لسانه[١].

٤ ـ وكان (ص) كما وصفه أمير المؤمنين لا يغضب للدنيا؛ فإذا أغضبه الحق، لم يعرفه أحد، ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له[٢].

٥ ـ وعنه (ص): المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده[٣].

٦ ـ وروى البخاري في كتاب الأدب: أنه (ص) لم يكن سبّاباً، ولا فحّاشاً، ولا لعاناً[٤].

٧ ـ وقد قال تعالى: ﴿الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً﴾.

وبعد هذا فإننا نعرف: أنه لا قيمة لقولهم: إن من خصائصه (ص)

= والنسائي، وابن ماجة، والطبراني، والحاكم والدارقطني، وأحمد، والطيالسي، والهيثمي، والسيوطي، والمناوي.

(١) الغدير ج ١١ ص ٩١ وج ٦ ص ٣٠٨ و ٣٠٩، وسنن الدارمي ج ١ ص ١٢٥، وإحياء العلوم ج ٣ ص ١٧١ عن أبي داود، ومستدرك الحاكم ج ١ ص ١٠٤/ ١٠٥، وتلخيصه للذهبي (مطبوع بهامشه)، وجامع بيان العلم ج ١ ص ٨٥ وراجع: ج ٢ ص ٦٢ و٦٣، وليراجع أيضاً: سنن أبي داود ج ٣ ص ٣١٨، والزهد والرقائق ص ٣١٥، والمصنف للصنعاني ج ٧ ص ٣٤ و ٣٥ وج ١١ ص ٢٣٧.

(٢) الغدير ج ١١ ص ٩٢ عن الترمذي في الشمائل.

(٣) صحيح البخاري ج ١ ص ٦.

(٤) صحيح البخاري ج ٤ ص ٣٧ و ٣٨، ودلائل الصدق ج ١ ص ٤١٧ و ٤١٦، وصحيح مسلم ج ٨ ص ٢٤، والغدير ج ١١ ص ٩١ وج ٨ ص ٢٥٢.

جواز لعن من شاء بغير سبب[١].

قال المظفر رحمه الله: «نعم ربما يلعن بعض المنافقين وفراعنة الأمة، الذين ينزون على منبره نزو القردة، لكشف حقائقهم؛ إذ يعلم بابتلاء الأمة بهم، كبني أمية الشجرة الملعونة في القرآن.

لكن أتباعهم وضعوا الحديث الذي صيروا فيه اللعنة زكاة، ليُعمّوا على الناس أمرهم، ويجعلوا لعن النبي (ص) لهم لغواً، ودعاءه على معاوية بأن لا يشبع الله بطنه باطلاً، فجزاهم الله تعالى عن نبيهم ما يحق بشأنهم»[٢].

ولا تذهب نفسك عليهم حسرات:

ومما يلفت النظر هنا: أننا نجد النبي «صلى الله عليه وآله وسلّم»، مع ما نالته به قريش، كان يقول ـ وفي تلك اللحظات بالذات ـ: اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون.

وما ذلك إلا لأنه رجل هادف، وطبيب دوّار بطبّه، لا يكرههم، ولا يعاديهم، لأنهم عدو، وإنما هو يكره كفرهم، وانحرافهم، وأعمالهم الشاذة، التي تعود أولاً وأخيراً بالدمار عليهم وعلى إخوانهم من بني الإنسان. ولقد كان يذوب حسرة وشفقة عليهم، حتى عاتبه الله تعالى بقوله: ﴿ولا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾[٣].

نعم، إن النبي (ص) يرأف على عدوّه، وتذهب نفسه حسرات

---

(١) الغدير ج ١١ ص ٩٣ عن الخصائص الكبرى ج ٢ ص ٢٤٤، والمواهب اللدنية ج ١ ص ٣٩٥.

(٢) دلائل الصدق ج ١ ص ٤١٧، وراجع الغدير ج ١١ ص ٨٩ ـ ٩٤.

(٣) فاطر: ٨.

عليه، ويهتم ويبذل كل غال ونفيس في سبيل إنقاذه. وليس أشد على الإنسان من أن يعيش قضية شخص، ويعيش مشكلته، ويبذل كل ما في وسعه من أجل إنقاذه، وإذا به يرى ذلك الغير يعاديه ويعلن الحرب عليه، ويعمل على قتله، من أجل أن يحتفظ بذلك الإنحراف بالذات، وفي سبيل الإبقاء على تلك المشاكل نفسها.

ومن أجل ذلك احتاج الأنبياء إلى أعظم مراتب الصبر، كما يظهر من الآيات القرآنية.

وقد أشرنا من قبل إلى أنه في حرب الجمل، حينما حارب علي «عليه السلام» البغاة، خرج صائح يحذر جيش عائشة من سيف الأشتر، وجندب بن زهير[1].

ونرى: أن هذا الصائح إنما فعل ذلك عن رأي علي «عليه السلام» ورضاه، لأنه يريد إعلاء كلمة الله تعالى بأقل قدر ممكن من الخسائر؛ لأنه يحب لهم الهداية، ولا يريد أبداً لهم الضلالة والغواية. وكان (ع) ـ كأخيه ـ تذهب نفسه حسرات عليهم، كما يظهر من كلماته المرّة المعبرة عن غصته وآلامه.

هذا، عدا عن أن ذلك من أساليب الحرب النفسية، التي تعجّل في كسر شوكتهم، وتحطيم كبريائهم.

لم يثبت في أُحُد غير علي (ع):

وأما عن الذين ثبتوا يوم أحد، فنجد الروايات مختلفة جداً، وتذكر أرقاماً متعددة من واحد إلى ثلاثين.

والصحيح هو أن علياً وحده هو الذي ثبت يوم أحد، وفرّ الباقون. ويدل على ذلك:

(١) لباب الآداب ص ١٨٧، والإصابة ج ١ ص ٢٤٨، والجمل ص ١٩٤.

١ ـ قال القوشجي، بعد أن ذكر قتل علي «عليه السلام» لأصحاب اللواء: «فحمل خالد بن الوليد بأصحابه على النبي (ص)؛ فضربوه بالسيوف، والرماح والحجر، حتى غشي عليه، فانهزم الناس عنه سوى علي (ع)؛ فنظر النبي (ص) بعد إفاقته، وقال: اكفني هؤلاء، فهزمهم علي عنه، وكان أكثر المقتولين منه»[1].

٢ ـ وقد قالوا: «كان الفتح يوم أحد بصبر علي (رض)»[2].

وقد يقال: إن هذا النص لا يدل على فرارهم، وإنما هو يدل على عظيم جهاد علي (ع) وصبره..

٣ ـ عن ابن عباس، قال: لعلي أربع خصال، هو أول عربي وعجمي صلى مع النبي (ص)، وهو الذي كان لواؤه معه في كل زحف، وهو الذي صبر معه يوم المهراس (أي يوم أحد)، انهزم الناس كلهم غيره، وهو الذي غسله وأدخله قبره[3].

٤ ـ ما سنذكره ـ بعد الحديث عن موقف علي ـ من أن من يذكرونهم: أنهم ثبتوا؛ لا ريب في فرارهم، كما تدل عليه النصوص. وقبل أن نشير إلى هذه الناحية لابد من إلماحة موجزة إلى ما يمكن أن يقال حول ثبات علي (ع) في هذا الموقف.

انه مني، وأنا منه:

إن قول النبي (ص) عن علي (ع): إنه مني وأنا منه، لابد أن نتدبر

(١) شرح التجريد ص ٤٨٦، ودلائل الصدق ج ٢ ص ٣٥٧ عنه.

(٢) نور الأبصار ص ٨٧، والإرشاد للمفيد ص ٥١ و٥٢، والبحار ج ٢٠ ص ٦٩ و٨٦ و٨٧ و١١٣، والإحتجاج ج ١ ص ١٩٩/ ٢٠٠.

(٣) مستدرك الحاكم ج ٣ ص ١١١، ومناقب الخوارزمي ص ٢١/ ٢٢، وراجع: إرشاد المفيد ص ٤٨، وتيسير المطالب ص ٤٩.

معناه ومغزاه. وهو قريب من قوله (ص): حسين مني وأنا من حسين.

ولعل المراد: أن أمير المؤمنين «عليه السلام» هو من شجرة النبي، وسائر الناس من شجر شتى، هذه الشجرة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء. وهو «عليه السلام» من طينة رسول الله (ص)، لحمه لحمه، ودمه دمه.

وهو من النبي (ص) سلوكاً، وعقيدة، ومبدأ، ونضالاً، وأدباً، وخلوصاً، وصفاء، إلخ. كما أن النبي (ص) هو الذي صنع علياً، وعلّمه، وثقفه، وأدبه.

ومن الجهة الأخرى، فإن النبي (ص) أيضاً من علي، حيث إن الوجود الحقيقي للنبي الأكرم (ص) إنما هو بوجود دينه، ومبدئه، وفكره، وعقيدته، وسلوكه، ومواقفه؛ فهذا النبي هو من علي، وعلي هو الذي سوف يبعثه من جديد من خلال إحيائه لمبادئه، وفضائله، وآدابه، وعلومه، وغير ذلك.

وهكذا كان؛ فلولا علي لم يبق الإسلام، ولا حُفِظ الدين. حتى إننا نجد أحدهم يصلي خلف علي «عليه السلام» مرة؛ فيقول: إنه ذكّره بصلاة رسول الله (ص)[1]. هذه الصلاة التي لم يبق منها إلا الأذان، وحتى الأذان فإنهم قد غيّروه[2].

ويلاحظ هنا: أنه (ص) قد قدّم قوله: «إنه مني»، تماماً كما قدم قوله: «حسين مني»، لأن صناعة النبي (ص) لهم سابقة على إحيائهم لدينه. فثقافة، وفكر، ونفسية، ودين، وخصائص، وآداب النبي (ص)، لسوف يبعثها علي والحسين «عليهما السلام»؛ وهكذا العكس.

ومن هنا صح للنبي (ص) أن يقول: أنا وأنت يا علي أبوا هذه

---

(١) و(٢) راجع مصادر ذلك في الجزء الأول من هذا الكتاب.

الأمة[١].

كما أنه ليس من البعيد أن يكون جبريل قد كان يستفيد ويتعلم من النبي (ص) وعلي (ع)؛ ولأجل ذلك قال: وأنا منكما. وقد ناشدهم أمير المؤمنين بهذه القضية بالذات في قضية الشورى[٢]، وذلك يؤكد مغزاها العميق، ومدلولها الهام.

لا سيف الا ذو الفقار:

وإن مناداة جبرئيل بـ «لا سيف إلا ذو الفقار إلخ»، لها مغزى عميق أيضاً، فإنها تأتي تماماً في مقابل ما فعله الذين فرّوا وجلسوا يتآمرون ـ هل يرسلون ابن أبيّ لأبي سفيان ليتوسط لهم عنده؟ أم أن كونهم من قومهم، وبني عمهم يجعلهم لا شيء عليهم، أم يرجعون إلى دينهم الأول؟ ـ كما سيأتي ـ فإن كل ذلك يدل على أن الذي كان سيفه خالصاً لله حقاً هو أمير المؤمنين «عليه السلام» فإنه لا سيف خالصاً لله، وفي سبيل الله، إلا سيفه ذو الفقار.

وهذا السيف هو الذي قال عنه أمير المؤمنين «عليه السلام» في رسالته إلى بعض عماله، يتهدده على تلاعبه بأموال الأمة، مشيراً إلى هذا: «ولأضربنك بسيفي الذي ما ضربت به أحداً إلا دخل النار»[٣].

لأنه لا يقتل به إلا مستحقها، ولأجل هذا صار لهذا السيف شرف ومجد، وتفرّد بين سائر السيوف بأنه في يد علي الذي هو نفس النبي

---

(١) راجع كتابنا: دراسات وبحوث في التاريخ والإسلام ج ٢ بحث: الحب في التشريع الإسلامي وبحث آخر في نفس الكتاب حول: الوحدة الإسلامية أسسها ومنطلقاتها.

(٢) البحار ج ٢ ص ٦٩، عن الخصال ج ٢ ص ١٢١ و ١٢٤.

(٣) نهج البلاغة ج ٣ ص ٧٤ بشرح عبده الكتاب رقم ٤١.

(ص).

كما أن أمير المؤمنين (ع) هو الذي كان الله ورسوله، وجهاد في سبيله، أحب إليه من كل شيء حتى من نفسه؛ وجراحه الكثيرة جداً شاهد صدق على ذلك.

أما غير علي (ع)، فقد كانت نفسه ـ بدرجات متفاوتة طبعاً ـ أحب إليه من الله ورسوله، وجهاد في سبيله. ولأجل ذلك تخلى عن كل ذلك، حينما رأى نفسه تلك في خطر. بل لقد همّ بعضهم بأن يتخلى حتى عن دينه، حيث قال: «إرجعوا إلى دينكم الأول»!

بل نجد البعض يرى: أن عشيرته الكافرة أحب إليه من الله ورسوله، وجهاد في سبيله، ومن دينه؛ فنراه يقول: «نلقي إليهم بأيدينا، فإنهم قومنا وبنو عمنا»[١].

ويلاحظ: أن أكثر ذلك الكلام قد كان من المهاجرين على وجه العموم!!.

كما أن أولئك كلهم لا فتوّة لهم، ولا رجولة عندهم. وعلي (ع) وحده هو الفتى، لأنه يملك نفسه، ولا تملكه نفسه، أما هم، فإن نفوسهم تملكهم؛ فتهلكهم.

ولعل مما يشير إلى ما ذكرنا: أننا نجد الله تعالى يؤكد في الآيات النازلة في أحد على أنه قد كان ثمة اتجاه إلى امتحان أصحاب النبي (ص) هؤلاء، وتمحيصهم. ثم هو يبين لهم مدى ارتباطهم بنبيهم الأعظم «صلى الله عليه وآله وسلّم» ويبين لهم: أن أمر هذا النبي (ص) لا يهمهم، بل هو إن مات أو قتل انقلبوا على أعقابهم. ونحن نكتفي هنا بذكر الآيات

---

(١) راجع: السيرة النبوية لدحلان (مطبوع بهامش السيرة الحلبية) ج ٢ ص ٣٣، وراجع: السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٢٧، والمغازي للواقدي ج ١ ص ٢٨٠، وراجع: البحار ج ٢٠ ص ٢٧ وغير ذلك.

التالية:

﴿إن يمسسكم قرح، فقد مسّ القوم قرح مثله، وتلك الأيام نداولها بين الناس، وليعلم الله الذين آمنوا، ويتخذ منكم شهداء، والله لا يحب الظالمين. وليمحص الله الذين آمنوا، ويمحق الكافرين أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم، ويعلم الصابرين. ولقد كنتم تَمَنَّون الموت من قبل أن تلقوه؛ فقد رأيتموه وأنتم تنظرون. وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم إلخ﴾[1].

وخلاصة الأمر: إننا نجد هؤلاء يفرون هنا، ولا يثبت إلا علي «عليه السلام»، ويتركون النبي (ص) عرضة للشدائد والبلايا، وعلي «عليه السلام» وحده هو الذي يثبت، ويدفع عن هذا الرسول «صلى الله عليه وآله»، ويرد عنه، تماماً كما كان «عليه السلام» في بدر يحارب، ثم يرجع ليتفقد الرسول (ص) كما تقدم.

والدليل على أنهم قد اهمّتهم أنفسهم، ولم يهتموا بحفظ نفس الرسول: أننا نجدهم ـ بعد سنوات ـ لا يعنيهم موت الرسول الأعظم (ص)، في قليل ولا كثير، حتى لقد أخرج ابن سعد، عن عبد الرحمن بن سعيد بن يربوع، قال: جاء علي بن أبي طالب (رض) يوماً متقنعاً متحازناً، فقال له أبو بكر (رض): أراك متحازناً.

فقال علي: إنه عناني ما لم يعنك!!

قال أبو بكر: اسمعوا ما يقول، أنشدكم الله، أترون أحداً كان أحزن على رسول الله (ص) مني[1]؟!

---

(١) آل عمران: ١٤٠ ـ ١٤٤.

(٢) حياة الصحابة ج ٢ ص ٨٤، وكنز العمال ج ٧ ص ١٥٩ عن ابن سعد.

فإن علياً لم يكن يراهم محزونين على النبي (ص)، ولا مهتمين بأمره، ولا حتى حين وفاته، بل لم يكن يعنيهم أمره أصلاً، حتى اضطر أبو بكر إلى هذا الإستشهاد؛ لإنقاذ موقفه. ولابد أن يكون قد استشهد من هم على رأيه، وعلى مثل موقفه، من المقربين إليه.

بل نجد النبي (ص) نفسه يلمح للصحابة: أن غيرهم يحبه أكثر منهم. فقد روي أنه قال: إن قوماً يأتون من بعدي، يودّ أحدهم أن يفتدي رؤيتي بأهله وماله[١].

بل إننا نجده (ص) يفضل الذين يأتون بعده ولم يروه، على أصحابه، كما يظهر من عدد من الروايات[٢].

الفّارون في أحد:

ومما يدل على أنه لم يثبت غير علي (ع): أن من تحاول بعض الروايات التأكيد على ثباتهم لا ريب في فرارهم، فيلاحظ التعمّد والإصرار على ثبات طلحة، وسعد بن أبي وقاص، وغيرهم.

ونكتفي هنا بذكر عبارة الشيخ الطوسي رحمه الله، حيث قال: «ذكر البلخي: أن الذين بقوا مع النبي (ص) يوم أحد، فلم ينهزموا ثلاثة عشر رجلاً، خمسة من المهاجرين: علي (ع)، وأبو بكر، وطلحة، وعبد الرحمان بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، والباقون من الأنصار. فعلي وطلحة لا خلاف فيهما، والباقون فيهم خلاف»[٣].

وفي نص آخر: «أفرد النبي (ص) في تسعة، سبعة من الأنصار

---

(١) مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٦٦ عن البزار، وحياة الصحابة ج ٢ ص ٤١٧ عنه.

(٢) مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٦٦ و ٦٧ عن أبي يعلى والبزار، وأحمد، وحياة الصحابة ج ٢ ص ٤١٦ و ٤١٧.

(٣) التبيان ج ٣ ص ٢٥.

ورجلين من قريش». ثم ذكر أن السبعة من الأنصار قد قتلوا أيضاً[١].

ورغم ذلك كله نقول: لا ينبغي الريب في أن علياً (ع) وحده هو الذي ثبت وفرّ الباقون جميعاً؛ حتى طلحة وغيره. ولبيان ذلك؛ نقول:

فرار سعد:

إن مما يدل على فرار سعد:

١ ـ ما تقدم من أنه لم يثبت سوى علي «عليه السلام».

٢ ـ عن السدي: لم يقف إلا طلحة، وسهل بن حنيف[٢].

ولعل عدم ذكر علي «عليه السلام» بسبب أن ثباته إجماعي، لم يرتب فيه أحد.

٣ ـ وعند الواقدي: أنه لم يثبت سوى ثمانية، وعدّهم، وليس فيهم سعد. أما الباقون ففرّوا والرسول يدعوهم في أُخراهم[٣].

٤ ـ ويعدّ الإسكافي، وابن عباس، وغيرهم مَن ثبت يوم أحد، وليس فيهم سعد[٤].

٥ ـ وسلمة بن كهيل يقول: لم يثبت غير إثنين، علي، وأبو دجانة[٥].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ج ١ ص ٤١٢ عن أحمد، وراجع ص ٤١٥ عن دلائل النبوة للبيهقي بنحو آخر.

(٢) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٢٠١، ودلائل الصدق ج ٣ ص ٣٥٦ عنه.

(٣) مغازي الواقدي ج ١ وشرح النهج عنه، ودلائل الصدق ج ٢ ص ٣٥٦ عن الأول.

(٤) راجع شرح النهج ج ١٣ ص ٢٩٣، وآخر العثمانية ص ٢٣٩.

(٥) المصدر المتقدم.

٦ ـ عن سعد، قال: لما جال الناس عن رسول الله (ص) تلك الجولة تنحيت، فقلت: أذود عن نفسي، فإما أن استشهد، وإما أن أنجو. إلى أن قال: فقال رسول الله (ص): أين كنت اليوم يا سعد؟!

فقلت: حيث رأيت[١].

فرار طلحة:

ويدل على فراره:

١ ـ جميع ما تقدم في أنه لم يثبت سوى علي (ع).

٢ ـ ويدل على ذلك أيضاً قول سلمة بن كهيل المتقدم.

٣ ـ إنتهى أنس بن النضر إلى عمر بن الخطاب، وطلحة بن عبيد الله، في رجال من المهاجرين والأنصار، وقد ألقوا بأيديهم، فقال: ما يحبسكم؟

قالوا: قتل رسول الله.

فقال: فما تصنعون بالحياة بعده؟! قوموا، فموتوا على مثل ما مات عليه رسول الله (ص). ثم استقبل القوم؛ فقاتل حتى قُتِل[٢].

---

(١) مستدرك الحاكم ج ٣ ص ٢٦، ودلائل الصدق ج ٢ ص ٣٥٦.

(٢) تاريخ الطبري ج ٢ ص ١٩٩، والكامل لإبن الأثير ج ٢ ص ١٥٦، والثقات لإبن حبان ج ١ ص ٢٢٨، والسيرة النبوية لإبن كثير ج ٣ ص ٦٨، وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٣٤ عن ابن إسحاق، وسيرة ابن هشام ج ٣ ص ٨٨، والدر المنثور ج ٢ ص ٨١ عن ابن جرير، وقاموس الرجال ج ٢ ص ١٢٥، ودلائل الصدق ج ٢ ص ٣٥٦ عن الدر المنثور، والبداية والنهاية ج ٤ ص ٣٤، وحياة الصحابة ج ١ ص ٥٣١ عنه. ولكن قد اقتصر في مغازي الواقدي ج ١ ص ٢٨٠، وشرح النهج للمعتزلي ج ١٤ ص ٢٨٦ على ذكر عمر فقط، وتفسير القرآن العظيم ج ١ ص ٣١٤، وسيرة ابن إسحاق ص ٣٣٠، والأغاني ج ١٤ ص ١٩.

ويروي السدي: أنه خاف هو وعثمان أن يدال عليهم اليهود والنصارى، فاستأذنا رسول الله (ص) بالخروج إلى الشام ليأخذ أحدهما العهد لنفسه من اليهود، ويأخذه الآخر من النصارى، فرفض (ص) طلبهما[1].

فرار أبي بكر:

ويدل على فراره:

١ ـ جميع ما تقدم في ثبات أمير المؤمنين «عليه السلام». وما تقدم في فرار سعد، ما عدا الحديث الأخير المختص بسعد.

٢ ـ عن عائشة: كان أبو بكر إذا ذكر يوم أحد بكى، ثم قال: ذاك كان يوم طلحة. ثم أنشأ يحدث، قال: كنت أول من فاء يوم أحد؛ فرأيت رجلاً يقاتل مع رسول الله (ص)؛ فقلت: كن طلحة، حيث فاتني ما فاتني، يكون رجلاً من قومي[2].

وحسب نص آخر، عن عائشة، عن أبيها: لما جال الناس عن

(١) نهج الحق ص ٣٠٦ و٣٠٧، وتفسير الخازن ج ١ ص ٤٧١، وتفسير ابن كثير ج ٢ ص ٦٨ من دون تصريح بالإسم.

(٢) منحة المعبود في تهذيب مسند الطيالسي ج ٢ ص ٩٩، وطبقات ابن سعد ج ٣ ص ١٥٥، والسيرة النبوية لإبن كثير ج ٣ ص ٥٨، وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٣١، عن الصفوة، وابن أبي حاتم، والبداية والنهاية ج ٤ ص ٢٩ عن الطيالسي، وكنز العمال ج ١٠ ص ٢٦٨ و ٢٦٩ عن الطيالسي، وابن سعد، وابن السني، والشاشي، والبزار، والدار قطني في الأفراد، وأبي نعيم في معرفة الصحابة، والطبراني في الكبير والأوسط، وابن عساكر، والضياء في المختارة. وقد صرح في مقدمة الكنز بصحة ما يعزوه لبعض هؤلاء، وحياة الصحابة ج ١ ص ٢٧٢ عن ابن سعد وعن الكنز عمن تقدم بإضافة ابن حبان، ودلائل الصدق ج ٢ ص ٣٥٩ عن الكنز أيضاً.

رسول الله (ص) يوم أحد كنت أول من فاء إلى رسول الله (ص)، فبصرت به من بُعد، فإذا برجل قد اعتنقني من خلفي مثل الطير، يريد رسول الله (ص)؛ فإذا هو أبو عبيدة. قال الحاكم: صحيح الإسناد[1].

ولكن ما أراده أبو بكر لم يصل إليه، فإن طلحة كان قد فرّ أيضاً كما فرّ هو، ولكنه فاء إلى رسول الله (ص) قبله.

ثم إننا لا نستطيع أن نوافق أبا بكر على هذه الروح القبلية التي كانت تستبد به، وتهيمن على فكره وعقله وروحه، حتى في هذه اللحظات الحرجة والخطيرة، حيث يتمنى أن يكون رجلاً من قومه!!.

٣ ـ قال الأمير أسامة بن منقذ: لما دوّن عمر الدواوين، جاء طلحة بنفر من بني تميم يستفرض لهم. وجاء أنصاري بغلام مصفر سقيم، فسأل عنه عمر؛ فأخبر أنه البراء بن أنس بن النضر، ففرض له في أربعة آلاف، وفرض لأصحاب طلحة في ستمائة؛ فاعترض طلحة. فأجابه عمر:

«إني رأيت أبا هذا جاء يوم أحد، وأنا وأبو بكر قد تحدثنا: أن رسول الله قتل؛ فقال: يا أبا بكر، ويا عمر، ما لي أراكما جالسين؟! إن كان رسول الله قتل؛ فإن الله حي لا يموت إلخ»[2].

٤ ـ قال زيد بن وهب لإبن مسعود: وأين كان أبو بكر وعمر؟ قال: كانا ممن تنحى[3].

٥ ـ قال المظفر رحمه الله ما معناه: إنه كيف يتصور ثبات أبي بكر في ذلك اليوم الهائل، وحومة الحرب الطاحنة التي لم يسلم فيها حتى

---

(١) مستدرك الحاكم ج ٣ ص ٢٧، وتلخيصه للذهبي بهامش نفس الصفحة، ودلائل الصدق ج ٢ ص ٣٥٩ عن المستدرك، ومجمع الزوائد ج ٦ ص ١١٢ عن البزار.

(٢) لباب الآداب ص ١٧٩، وليراجع: حياة محمد لهيكل ص ٢٦٥.

(٣) الإرشاد للشيخ المفيد ص ٥٠، والبحار ج ٢٠ ص ٨٤ عنه.

النبي (ص)، فضلاً عن علي «عليه السلام» كيف يتصور ثباته في ظروف كهذه، وما أصاب وما أصيب، وكيف يسلم، وهو قد ثبت ليدفع عن النبي (ص) السيوف، والرماح والحجارة؟ ولا سيما مع ما يزعمه أولياؤه من أنه قرين النبي (ص) في طلب قريش له، حتى بذلوا في قتله ما بذلوه في قتل النبي (ص)؟ ثم أتراهم ينعون إصبع طلحة، ولا ينعون جراحة أبي بكر[1]؟!.

٦ ـ روى مسلم: أن رسول الله قد أفرد في أحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش[2].

قال الشيخ المظفر: «إن أحد الرجلين علي، والآخر ليس أبا بكر؛ إذ لا رواية، ولا قائل في ثباته، وفرار سعد أو طلحة»[3].

هذا وقد ذكر في سحّ السحابة: أن الأنصار قد قتلوا جميعاً واحداً بعد واحد[3].

ولكن رواية أخرى تقول: إنهم سبعة من الأنصار، ورجل من قريش، وستأتي الرواية حين الحديث عن عدم ثبات أحد من المهاجرين سوى علي «عليه السلام».

٧ ـ ويرد الإسكافي على الجاحظ بقوله: «أما ثباته يوم أحد؛ فأكثر المؤرخين وأرباب السير ينكرونه»[5].

---

(١) راجع: دلائل الصدق للشيخ المظفر ج ٢ ص ٣٦٠.

(٢) صحيح مسلم ج ٥ ص ١٧٨ في أول غزوة أحد، ودلائل الصدق ج ٢ ص ٣٥٩، وتاريخ الخميس ج ١ ص ٣٤٦ عن سح السحابة.

(٣) دلائل الصدق ج ٢ ص ٣٥٩.

(٤) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٣٦.

(٥) شرح النهج للمعتزلي ج ١٣ ص ٢٩٣، وليراجع آخر العثمانية ص ٣٣٩.

٨ ـ لقد رووا بسند صحيح، عن ابن عباس؛ في قوله: «وشاورهم في الأمر»: أبو بكر وعمر.[١].

قال الرازي: «وعندي فيه إشكال؛ لأن الذين أمر الله رسوله بمشاورتهم، هم الذين أمره بالعفو عنهم، ويستغفر لهم. وهم المنهزمون؛ فهب أن عمر كان من المنهزمين؛ فدخل تحت الآية، إلا أن أبا بكر ما كان منهم؛ فكيف يدخل تحت هذه الآية»[٢].

وأجابه المظفر بقوله: «إن الإشكال موقوف على تقدير ثبات أبي بكر، وهو خلاف الحقيقة. هذا، والآية ظاهرة في الأمر بمشاورتهم للتأليف، كما يظهر من كثير من أخبارهم، ومثله الأمر بالعفو عنهم، والإستغفار لهم»[٣].

فرار عمر:

ويدل على فراره:

١ ـ ما تقدم في ثبات أمير المؤمنين فقط.

٢ ـ ما تقدم في فرار طلحة، وما جرى بينهم وبين أنس بن النضر.

٣ ـ ما تقدم في فرار أبي بكر، في حديث فرض عمر لإبن أنس بن النضر. وكذلك ما ذكره ابن مسعود. ثم ما قاله المظفر. ثم ما قاله مسلم، وعلق عليه المظفر. ثم ما ذكره ابن عباس، وعلق عليه الرازي، وأجابه

---

(١) مستدرك الحاكم ج٣ ص ٧٠، وتلخيصه للذهبي هامش نفس الصفحة، وصححاه على شرط الشيخين، والدر المنثور ج ٢ ص ٩٠ عن الحاكم، والبيهقي في سننه، وابن الكلبي، والتفسير الكبير للرازي ج ٩ ص ٦٧ عن الواحدي في الوسيط عن عمرو بن دينار، ودلائل الصدق ج ٢ ص ٣٥٩ عمن تقدم.

(٢) تفسير الرازي ج ٩ ص ٦٧.

(٣) دلائل الصدق ج ٢ ص ٣٥٩.

المظفر.

٤ ـ ما تقدم في فرار سعد.

٥ ـ عن كليب قال: خطبنا عمر، فكان يقرأ على المنبر آل عمران، ويقول: إنها أُحُدِية. ثم قال: تفرقنا عن رسول الله (ص) يوم أحد؛ فصعدت الجبل، فسمعت يهودياً يقول: قتل محمد. فقلت: لا أسمع أحداً يقول: قتل محمد، إلا ضربت عنقه.

فنظرت، فإذا رسول الله (ص)، والناس يتراجعون إليه؛ فنزلت: **﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾**[1].

وفي نص آخر: لما كان يوم أحد هزمناهم[2]، ففررت حتى صعدت الجبل، فلقد رأيتني: أنزو كأنني أروى[3]. وفي لفظ الواقدي: إن عمر كان يحدث، فيقول: لما صاح الشيطان: قتل محمد، قلت: أرقى الجبل كأنني أروية[4].

ونحن هنا لا ندري من أين جاء ذلك اليهودي الملعون، الذي نقل عنه عمر قوله: قتل محمد!! مع أنه (ص) قد رفض مشاركة اليهود في هذه الحرب، كما رفض ذلك في غيرها.

كما أننا لا ندري كيف نفسر تهديد عمر لهذا اليهودي بالقتل، مع

---

(١) الدر المنثور ج ٢ ص ٨٠، ودلائل الصدق ج ٢ ص ٣٥٨، وكنز العمال ج ٢ ص ٢٤٢ عن ابن المنذر، وحياة الصحابة ج ٣ ص ٤٩٧ عن الكنز ج ١ ص ٢٣٨، وفتح القدير ج ١ ص ٣٨٨.

(٢) لعل الصحيح: هزمنا ففررت. كما يقتضيه سياق الكلام.

(٣) الدر المنثور ج ٢ ص ٨٨ عن ابن جرير، وكنز العمال ج ٢ ص ٢٤٢، ودلائل الصدق ج ٢ ص ٣٥٨، وحياة الصحابة ج ٣ ص ٤٩٧، وكنز العمال ج ٢ ص ٢٤٢، وجامع البيان ج ٤ ص ٩٥، والتبيان ج ٣ ص ٢٥ / ٢٦.

(٤) شرح النهج ج ١٥ ص ٢٢.

أنه هو نفسه قد فر عن رسول الله (ص)، وأسلمه لأعدائه، فأين كان حماس عمر عنه في الدفاع عن النبي «صلى الله عليه وآله وسلّم» ضد المشركين؟! ولِمَ لم يقتل أحداً منهم؟ ولا حتى طيلة السنوات العشر، في عشرات الغزوات والسرايا التي اشترك فيها؟!

إن ذلك لعجيب حقاً، وأي عجيب!!

٦ ـ قال المعتزلي: قال الواقدي: لما صاح إبليس: إن محمداً قد قتل، تفرق الناس. إلى أن قال: وممن فر عمر وعثمان[١].

لكن يلاحظ أن إسم عمر قد حذف من المطبوع من مغازي الواقدي، وأثبته المعلق في هامش الصفحة على أنه قد ورد في بعض نسخ المغازي دون بعض[٢].

فليراجع ذلك بدقة، فقد تعودنا منهم مثل هذا الشيء الكثير!!

٧ ـ وبعد أن ذكر الواقدي إعتراض عمر على رسول الله (ص) في قضية الحديبية، قال عن النبي (ص): «ثم أقبل على عمر، فقال: أنسيتم يوم أحد؛ إذ تصعدون ولا تلوون على أحد، وأنا أدعوكم في أخراكم»[٣]؟!.

٨ ـ ما سيأتي من عدم قتل خالد لعمر، حينما كان عمر منهزماً.

٩ ـ وجاءته إمرأة أيام خلافته، تطلب برداً من بُرُدٍ كانت بين يديه، وجاءت معها بنت لعمر، فأعطى المرأة، وردّ ابنته. فقيل له في ذلك،

---

(١) شرح النهج للمعتزلي ج ١٥ ص ٢٤، ودلائل الصدق ج ٢ ص ٣٥٨، وراجع: غرائب القرآن (مطبوع بهامش جامع البيان) ج ٤ ص ١١٣.

(٢) راجع: مغازي الواقدي ج ١ ص ٢٧٧.

(٣) شرح النهج للمعتزلي ج ١٥ ص ٢٤، ودلائل الصدق ج ٢ ص ٣٥٨، ومغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٠٩.

فقال: إن أب هذه ثبت يوم أحد، وأب هذه فر يوم أحد، ولم يثبت[(١)].

١٠ ـ وقد اعترف عمر برعبه من علي «عليه السلام»، حينما تبع الفارّين وهو يقول لهم: شاهت الوجوه، وقطّت، وبطّت، ولطّت، إلى أين تفرون؟ إلى النار؟ ويقول: بايعتم، ثم نكثتم؟ فوالله لأنتم أولى بالقتل ممن أقتل إلخ . .[(٢)].

وقد اعترف الجاحظ بفرار عمر في عثمانيته أيضاً فراجع[(٣)].

١١ ـ وعلى كل حال، فإن فرار عمر من الزحف يوم أحد، وحنين، وخيبر، معروف، ويعدّه العلماء من جملة المطاعن عليه؛ لأن الفرار من الزحف من جملة الكبائر الموبقة، ولم يستطع المعتزلي أن يجيب على ذلك، بل اعترف به، واكتفى بالقول:

«وأما الفرار من الزحف، فإنه لم يفر إلا متحيزاً إلى فئة، وقد استثنى الله تعالى ذلك؛ فخرج به عن الإثم»[(٤)].

ولكن قد فات المعتزلي: أن ما جرى يوم أحد، لا يمكن الإعتذار عنه بما ذكر، لعدم وجود فئة لهم إلا الرسول (ص) نفسه، ، وقد تركوه، وفرّوا عنه، ولأن الله تعالى قد ذمّهم على هذا الفرار، وعلّله بأن الشيطان قد استزلّهم ببعض ما كسبوا، ثم عفا عنهم، ولو كان لا إثم في هذا الفرار؛ فلا حاجة إلى هذا العفو. هذا، وقد حقق العلامة الطباطبائي: أن المراد بالعفو هنا معنى عام، يشمل العفو عن المنافقين أيضاً، فراجع[(٥)].

---

(١) شرح النهج للمعتزلي ج ١٥ ص ٢٢.

(٢) البحار ج ٢٠ ص ٥٣، وتفسير القمي ج ١ ص ١١٤/ ١١٥.

(٣) العثمانية ص ١٦٩.

(٤) شرح النهج للمعتزلي ج ١٢ ص ١٧٩/ ١٨٠.

(٥) راجع تفسير الميزان ج ٤ ص ٥١.

وقد كان ثمة حاجة إلى التسامح في هذا الفرار، لأنه الأول من نوعه، ويأتي في وقت يواجه الإسلام فيه أعظم الأخطار داخلياً وخارجياً، مع عدم وجود إمكانات كافية لمواجهتها، ومواجهة آثار مؤاخذتهم بما اقترفوا.

واستمع أخيراً إلى ترقيع الرازي الذي يقول: «ومن المنهزمين عمر، إلا أنه لم يكن في أوائل المنهزمين ولم يُبعِد، بل ثبت على الجبل إلى أن صعد النبي (ص)»[١].

بارك الله في هذا الثبات، لكن لا في ساحة المعركة، بل فوق الجبل(!!).

ثم إننا لا ندري ما الفرق بين أن يكون المنهزم في أول الناس أو في وسطهم، أو في آخرهم؟! وما الفرق بين أن يُبْعِد في هزيمته وبين أن لا يُبعد!!

فرار الزبير:

وبعد هذا فلا نرى حاجة لإثبات فرار الزبير في أحد. بعد أن عرفنا أنه لم يثبت سوى أمير المؤمنين «عليه السلام». أو علي وأبو دجانة، وغير ذلك من نصوص تقدمت مع مصادرها.

وإن كان ثمة محاولات لإظهار الزبير على أنه فارس الإسلام، ورجل الحرب الذي لا يبارى ولا يجارى، حتى إننا لنجد عمر بن الخطاب يعتبره يعدل ألف فارس. وعند مصعب الزبيري!!: أنه أشجع الفرسان، وعلي أشجع الرجالة.

بل ويدّعون: أنه قد افتتح إفريقية وحده[٢].

---

(١) التفسير الكبير ج ٩ ص ٥١.

(٢) راجع لباب الآداب لأسامة بن منقذ ص ١٧٣ ـ ١٧٥.

مع أن مما لا شك فيه: أن إفريقية قد فتحت على عهد عثمان في سنة سبع أو ثمان وعشرين على يد عبد الله بن سعد بن أبي سرح[١]!!.

ونحن نعرف: أن الهدف هو إيجاد شخصيات بديلة، أو في قبال الإمام علي «عليه السلام»، الذي هو أشجع البشر، بعد إبن عمه محمد «صلى الله عليه وآله وسلّم». ولكن الله يأبى إلا أن يتم نوره، ويرد كيد الخائنين للحقيقة والتاريخ.

فرار عثمان:

وأما عثمان، فلا يختلف في فراره في أُحُدٍ إثنان. وهو موضع إجماع المؤرخين، وكان يُعيّر به. وقد رجع بعد ثلاثة أيام، فقال له رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلّم»: لقد ذهبتم فيها عريضة[٢]!!.

وعن ابن عباس وغيره: إن آية: ﴿إن الذين تولّوا منكم يوم التقى

---

(١) راجع: تاريخ الطبري وفتوح البلدان.

(٢) راجع: تفسير المنار ج ٤ ص ١٩١، والجامع لأحكام القرآن ج ٤ ص ٢٤٤، وفتح القدير ج ١ ص ٣٩٢، وتفسير القرآن العظيم ج ١ ص ٤١٤، وتفسير التبيان ج ٣ ص ٢٦، وتاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ٢٠٣، والإرشاد للشيخ المفيد ص ٥٠، والبحار ج ٢٠ ص ٨٤، والبداية والنهاية ج ٤ ص ٢٨، وشرح النهج للمعتزلي ج ١٥ ص ٢١ عن الواقدي لكن مغازي الواقدي المطبوع لم يصرح بالأسماء بل كنى عنها في ج ١ ص ٢٧٧ لكن في الهامش قال: في «نسخة عمر وعثمان»، والكامل لإبن الأثير ج ٢ ص ١٥٨، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٢٧، والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٥٥، والدر المنثور ج ٢ ص ٨٨ و ٨٩ عن ابن جرير وابن المنذر، وابن إسحاق وراجع: سيرة ابن إسحاق ص ٣٣٢، وجامع البيان ج ٤ ص ٩٦، وغرائب القرآن (مطبوع بهامش جامع البيان) ج ٤ ص ١١٣، والتفسير الكبير للرازي ج ٩ ص ٥٠ و ٥١، وأنساب الأشراف ج ١ ص ٣٢٦. وراجع عن فراره يوم أحد وتخلفه يوم بدر: محاضرات الراغب ج ٣ ص ١٨٤، ومسند أحمد ج ٢ ص ١٠١ وج ١ ص ٦٨، والصراط المستقيم للبياضي ج ١ ص ٩١.

الجمعان﴾ نزلت بعثمان[١].

بل في بعض النصوص: أن طلحة أراد أن يتنصّر، وعثمان أراد أن يتهوّد[٢].

لم يثبت من المهاجرين سوى علي (ع):

يقول حسان بن ثابت عن الأنصار؛ مشيراً إلى فرار المهاجرين:

سمّاهم الله أنصاراً لنصرهم ... دين الهدى، وعوان الحرب يستعر
وجاهدوا في سبيل الله واعترفوا ... للنائبات فما خافوا ولا ضجروا
والناس إلب علينا ثم ليس لنا ... إلا السيوف وأطراف القنا وزر
ولا يهرّ جناب الحرب مجلسنا ... ونحن حين تلظّى نارها سعر
وكم رددنا ببدر دونما طلبوا ... أهل النفاق وفينا أنزل الظفر
ونحن جندك يوم النعف من أحد ... إذ حزبت بطراً أشياعها مضر
فما ونينا وما خمنا، وما خبروا ... منا عثاراً وجل القوم قد عثروا[٣]

وأخيراً فقد تقدم: أن أبا بكر، وسعداً، وعمر، وعثمان، وطلحة والزبير كلهم من المهاجرين. وهنا نص يقول: إنه لم يثبت أحد من المهاجرين إلا رجل واحد، وسبعة من الأنصار قتلوا كلهم. ولا ريب في أن هذا المهاجري هو علي (ع)؛ للإجماع.

والنص هو: أخرج الإمام أحمد، عن أنس: أن المشركين لما رهقوا النبي (ص) يوم أحد ـ وهو في سبعة من الأنصار، ورجل من

---

(١) الدر المنثور ج ٢ ص ٨٨، وفتح القدير ج ١ ص ٣٩٢، وراجع: جامع البيان ج ٤ ص ٩٦.

(٢) قاموس الرجال ج ٥ ص ١٦٩.

(٣) ديوان حسان بن ثابت ص ٥٧.

قـريش ـ قـال: من يـردهم عنـا، وهـو رفيقي في الجنـة؟ فجـاء رجـل من الأنصار؛ فقاتـل حتى قتل. فلمـا رهقوه أيضـاً قال: من يـردهم عنا، وهـو رفيقي في الجنة؟.. فأجـابه أنصـاري آخر، وهكـذا، حتى قتل السبعـة. فقال رسول الله (ص): ما أنصفنا أصحابنا[1].

سر الاختلاف في من ثبت:

وبعد، فإننا يمكن أن نفهم: أن رجعة المسلمين إلى المعـركة بعـد هـزيمتهم لم تكن دفعة واحـدة، وإنما رجـع الأول فرأى عليـاً. ثم يرجـع آخر؛ فيرى علياً وأبا دجانة مثـلاً، ثم يرجـع آخر فيـرى خمسة، وهكـذا؛ فكل منهم ينقل ما رآه. حتى وصل العدد لدى بعض الناقلين إلى ثلاثين.

كما أن ما يؤثر عن بعض الصحابة من مواقف نضالية؛ لعله قـد كان بعد عودتهم إلى ساحة القتال.

ثبات أبي دجانة:

ولعل ذكر أبي دجانة في بعض الأخبـار، مرجعـه ذلك. وإلا، فـإننا نجد ابن مسعود ينكر ثباته، فقد قال: انهزم النـاس إلا علي وحده. وثـاب إلى النبي (ص) نفر، وكان أولهم: عاصم بن ثابت، وأبو دجانة[2].

ولكن يعكّر؛ على هذه الرواية: أنه قد جـاء في المطبـوع من كتاب الإرشاد للمفيد: أن أبا دجانـة قد ثبت هـو وسهل بن حنيف، كـانا قـائمين

---

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٦، وحياة الصحابة ج ١ ص ٥٣٣، وتقدمت الرواية عن صحيح مسلم ج ٥ ص ١٧٨ إلا أن فيه: رجلين من قريش. وكذا في تاريخ الخميس أيضاً.

(٢) قاموس الرجال ج ٥ ص ٧. ولكن يبـدو أن في الإرشاد تحريفاً، فراجع ص ٥٠ منه، وقارنها مع ما نقله عنه في البحار ج ٢٠، وقاموس الرجال.

على رأسه، بيد كل واحد منهما سيف ليذب عنه[1]. وثاب إليه من أصحابه المنهزمين أربعة عشر رجلاً[2].

ونحن لا نستبعد: أن يكون أبو دجانة قد ثبت، ولكن لا كثبات علي «عليه السلام». وإنما حارب أولاً بسيفه، ثم لما فرّ المسلمون صار يقي النبي (ص) بنفسه، ويترّس عليه[3]، كما تقدم عن سلمة بن كهيل أيضاً؛ حيث كان علي (ع) يصد الكتائب، ويجندل الأبطال، حتى نزل في حقه:

لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي

أو أن أول عائد إليه (ص) هو عاصم بن ثابت كما تقدم، فصار هو وسهل بن حنيف يذبان عن رسول الله (ص) إلى أن كثر المسلمون. وبعد عودة المسلمين من فرارهم أعطاه «صلى الله عليه وآله وسلّم» السيف بحقه، ومنعه عمر، والزبير، وأبا بكر، عقاباً لهم، وتقديراً واهتماماً في عودة أبي دجانة إلى ساحة الحرب، ومجال الطعن والضرب معززاً ومكرماً.

إلا أن يقال: إن أبا بكر وعمر لم يعودا إلى الحرب بعد فرارهما أصلاً، فلابد أن يكون عرض السيف على أبي دجانة وعليهم قدكان في المواجهة الأولى.

نحن، وشعر حسان المتقدم:

وأمام تصريحات المؤرخين الكثيرة جداً، والمقطوع بصحتها

(١) وفي ربيع الأبرار ج ١ ص ٨٣٣/ ٨٣٤: أن عماراً كان بين يدي النبي (ص) يذب عنه، والمقداد كان عن يمينه (ص).

(٢) البحار ج ٢٠ ص ٨٣، والإرشاد للمفيد ص ٥٠.

(٣) تفسير فرات ص ٢٤/ ٢٥، والبحار ج ٢٠ ص ١٠٤/ ١٠٥.

وتواترها، لا يسعنا قبول قول حسان المتقدم، الذي يقول فيه: إن الأنصار قد ثبتوا، وينسب الفرار إلى خصوص المهاجرين. إلا أن يكون مراده: أن المهاجرين أو أكثرهم لم يرجعوا إلى ساحة القتال، واستمروا فوق الجبل، والذين ثابوا إلى الحرب هم خصوص الأنصار. ولعل كرة العدو عليهم؛ قد ضعضعتهم، فانهزموا، ثم لما علموا بحياة الرسول كروا على عدوهم من دون أن يصعدوا الجبل، ولعل هذا هو الأقرب والأظهر.

تأويلات سقيمة للفرار:

ويقول البعض هنا ما ملخصه: إن فرقة استمروا في الهزيمة حتى المدينة، فما رجعوا حتى انقضى القتال. وفرقة صاروا حيارى حينما سمعوا بقتل النبي (ص)؛ فصار همّ الواحد منهم: أن يذب عن نفسه، ويستمر في القتال إلى أن يقتل. وفرقة بقيت مع النبي (ص)، ثم تراجعت إليهم الفرقة الثانية شيئاً فشيئاً لما عرفوا أنه حي. وما ورد في الإختلاف في العدد، فمحمول على تعدد المواطن في القصة؛ فقولهم: «فروا» أي بعضهم، أو أطلق ذلك باعتبار تفرقهم[1].

ونحن لا نريد أن نطيل في الرد على ذلك؛ فإن ما تقدم مما دل على أنه لم يثبت إلا فلان، أو فلان وفلان، وأن هذا قد فرّ، وذاك كذلك، وهكذا، يدفعه. وإلا لكان الفرار منحصراً في الثلاثة، بعثمان وصاحبيه. كما أنه لو صحّ ما ذكره فلا يبقى لعتاب الله لهم جميعاً بقوله: ﴿إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم﴾، معنى ولا فائدة.

لماذا كانت الهزيمة:

١ ـ إن من الواضح: أن السبب الأول لما لحق بالنبي (ص)

---

(١) راجع: وفاء الوفاء ج ١ ص ٢٩٢، وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٣٠.

وللهزيمة التي لحقت بالمسلمين، وما جرى عليهم من النكبات، والقتل الذريع، حتى لقد قتل منهم سبعون، وجرح أعداد هائلة ـ أيضاً ـ هو: أنهم عصوا، وتنازعوا، ففشلوا. قال تعالى: ﴿ولقد صدقكم الله وعده؛ إذ تحسّونهم[١] بإذنه، حتى إذا فشلتم، وتنازعتم في الأمر، وعصيتم، من بعد ما أراكم ما تحبون، منكم من يريد الدنيا، ومنكم من يريد الآخرة﴾[٢].

وتصريح القرآن بأنهم قد عصوا، وتنازعوا من بعد ما كان النصر منهم قاب قوسين أو أدنى، يكذّب ما يدعيه البعض: من أنهم قد تخيلوا انتهاء أمد أمر النبي (ص)، وإن هذا إجتهاد منهم[٣]. فإنه لو كان اجتهاداً لما كان معصية، مع أن القرآن يصرح بالمعصية.

والقول بأن المراد بالمعصية: المخالفة مطلقاً، ولو عن اجتهاد؛ خلاف ظاهر كلمة: «عصيتم».

فالنصر كان معهم، وحليفهم حتى تنازع الرماة، لأن بعضهم كان يريد الدنيا، وبعضهم يريد الآخرة.

أضف إلى ذلك: أن أمر الرسول كان صريحاً لهم في أن لا يتركوا مراكزهم، حتى يرسل إليهم، حتى ولو رأوهم مهزومين، أو حتى لو رأوهم يغنمون، ولذا قال رفقاؤهم: لا نخالف أمر رسول الله (ص). فكيف يصح بعد هذا أن يقال: إنهم تخيلوا انتهاء أمد أمره (ص)؟!.

وهكذا، فقد كانت معصية بعض الرماة، وتنازعهم سبباً في كل ما نال المسلمين من كوارث ونكبات آنئذ، قد أشرنا ولسوف نشير إن شاء الله

---

(١) الحس: القتل على وجه الإستيصال.

(٢) آل عمران: ١٥٢.

(٣) البوطي في: فقه السيرة ص ٢٦١.

إلى شطر منها.

٢ ـ وأيضاً، فقد كان لاغترارهم بأنفسهم، وبكثرتهم، أثر كبير في حلول الهزيمة بهم، فقد قالوا للنبي (ص): قد كنت في بدر في ثلاثمئة رجل؛ فأظفرك الله بهم، ونحن اليوم بشر كثير، نتمنى هذا اليوم، وندعو الله له، وقد ساقه الله إلى ساحتنا هذه[1]. وقد أشار الله تعالى في سورة آل عمران إلى هذا التمني للموت. فراجع الآيات[2].

وواضح: أن الإغترار بالكثرة يُفقِد العناصر المشاركة شعور الإعتماد على النفس، ويجعلهم يعيشون روح التواكل، واللامسؤولية.

٣ ـ ثم إن الله تعالى ما زال يؤيد المسلمين بنصره، حتى عصوا الرسول الأعظم «صلى الله عليه وآله وسلّم»، طمعاً في الدنيا، وإيثاراً لها على الآخرة. فكان لابد في هذه الحالة من إعادة التمحيص لهم، وابتلائهم؛ ليرجعوا إلى الله تعالى، وليميز الله المؤمن من المنافق؛ وليزداد الذين آمنوا إيماناً؛ لأن الإنسان ربما يغفل عن حقيقة العنايات الإلهية، والإمدادات الغيبية، حين يرى الإنتصارات تتوالى، فينسب ذلك إلى قدرته الشخصية. ولأجل ذلك نجد: أنهم حين غُلِبوا شكّوا في هذا الأمر، وقالوا: «هل لنا من الأمر شيء»؟ فجاءهم الجواب القاطع: ﴿قل: إن الأمر لله﴾. نعم، لابد إذن من إعادتهم إلى الله تعالى، وتعريفهم بحقيقة إمكاناتهم، وقدراتهم. ولسوف نعود عن قريب لبحث هذه النقطة إن شاء الله تعالى.

ومن جهة ثانية، فقد تقدم في غزوة بدر كلام هام للعلامة الطباطبائي، وفيه مقارنة بين بدر، وأحد وغيرها. وبيان لسر الإنتصار أولاً، ثم ما ظهر من إمارات الضعف أخيراً، فليراجع.

---

(١) المغازي للواقدي ج ١ ص ٢١١، وسيرة المصطفى ص ٣٩٦.

(٢) آل عمران الآيات: ١٤٣ و١٥٢ و١٥٣.

٤ ـ وإن الإنضباطية ـ خصوصاً حين يكون القائد حكيماً، فكيف إذا كان نبياً ـ هي أساس النجاح. ولربما تكون مخالفة أفراد معدودين، سبباً في دمار جيش بكامله، كما كان الحال في قضية أحد.

٥ ـ كما أن عناية الله تعالى بهم، وتسديده لهم، لا يعني الغاء جميع الأسباب الطبيعية كليةً، كما لا يعني أن هذه العناية، وذلك الإمداد مطلق غير مشروط؛ بل هو مشروط قطعاً بالسعي من قبلهم نحو الهدف الأسمى، والبذل والتضحيات التي تؤهلهم لأن يكونوا موضعاً لعنايات الله وألطافه، **﴿إن تنصروا الله ينصركم، ويثبت أقدامكم﴾**.

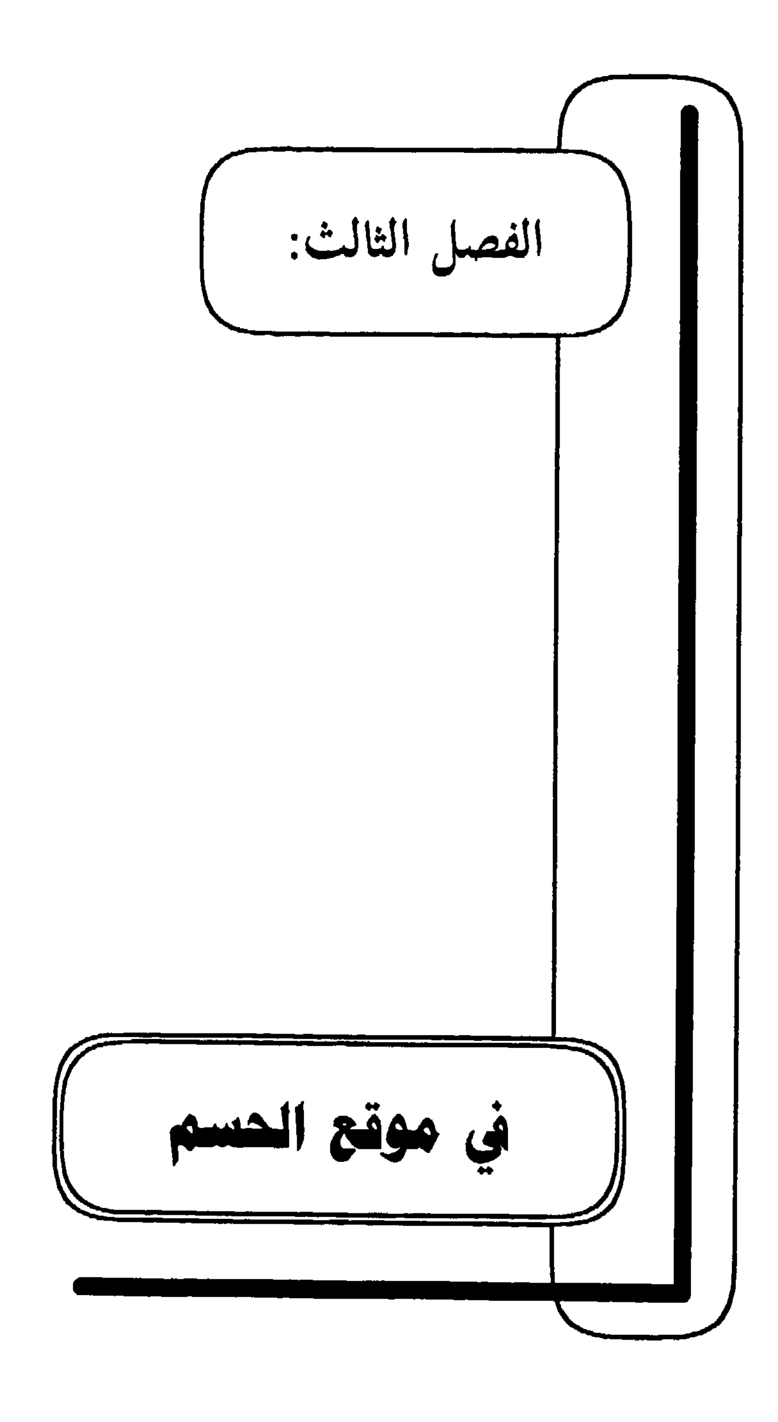
أو على الأقل لابد لاستمرار هذه العناية الإلهية من حفظ الحد الأدنى من الإرتباط بالقيادة، وتنفيذ أوامرها. وإلا لم يكن لهذه المواقف والحرب أثرها النفسي، والإجتماعي، والتربوي المطلوب.

٦ ـ قد ظهر مما تقدم: أن الذين تركوا مراكزهم قد ظنوا ـ أو ظن بعضهم ـ: أن رسول الله (ص) سيُغَلّ، أي يخونهم، فلا يقسم لهم. وهذا يدل على أن من بين هؤلاء من لم يكن على درجة حسنة من المعرفة والوعي، ولربما الإيمان أيضاً. ولو كان كذلك، فلا أقل من أن أخلاقياته وروحياته، بما في ذلك الإعراض عن الدنيا والإيثار، لم تكن بالمستوى المطلوب، إن لم نقل: إنه منافق يظهر الإيمان لأجل مصالح يراها، ويبطن الكفر.

ولعل الآية تشير إلى ظنهم السيء هذا، وتقرعهم عليه بأنه: **﴿ما كان لنبي أن يغلّ، ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة﴾**[1].

---

(١) آل عمران: ١٦١.



الفصل الثالث:

في موقع الحسم



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الرعب القاتل :

قد تقدم معنا : أن عمر بن الخطاب قد كان وهو فارّ مرعوباً من أمير المؤمنين «عليه السلام»، الذي تبع الفارّين، وهو يقول لهم : شاهت الوجوه ، وقطت، ولطّت، وبطت. إلى أين تفرّون؟ إلى النار؟ ويقول : بايعتم، ثم نكثتم ؛ فوالله لأنتم أولى بالقتل ممن أقتل إلخ .

ولكنهم قد استمروا في هزيمتهم لا يلوون على شيء، والرسول يدعوهم في أخراهم. حتى بلغوا الجبل، وبلغوا صخرة فيه .

وفشا في الناس: أن النبي «صلى الله عليه وآله وسلّم» قد قتل ؛ فقال بعض المسلمين، من أصحاب الصخرة في الجبل: ليت لنا رسولاً إلى عبد الله بن أبيّ ؛ فيأخذ لنا أماناً من أبي سفيان قبل أن يقتلونا. وقال أناس من المنافقين: لو كان نبيًّا ما قتل، إرجعوا إلى دينكم الأول. وفي النهر: أن فرقة قالوا: نلقي إليهم بأيدينا، فإنهم قومنا، وبنو عمنا[1].

وهذه الكلمة، تدل دلالة واضحة على أن هذه الفرقة كانت من المهاجرين، لا من الأنصار.

فجاءهم أنس بن النضر، فقال لهم: إن كان محمد قد قتل ؛ فما تصنعون بالحياة بعده؟! فقاتلوا على ما قاتل عليه، وموتوا على ما مات

---

(١) راجع: السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٢٧، وراجع: البحار ج ٢٠ ص ٢٧، وغرائب القرآن (مطبوع بهامش جامع البيان) ج ٤ ص ٩٦.

عليه. ثم قال: اللهم إني اعتذر إليك مما يقول هؤلاء، يعني المسلمين. وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء، يعني المنافقين. ثم قاتل حتى قتل. وقد تقدمت بعض مصادر هذه القضية حين الكلام عن فرار طلحة.

وقيل: إن حمزة هو الذي قال: اللهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء النفر، أبو سفيان وأصحابه. وأعتذر إليك مما صنع هؤلاء بانهزامهم[1].

وهذا يعني: أن حمزة قد قتل بعد فرار الصحابة عن الرسول (ص). وقد تقدم: أنه قد قتل بعد أصحاب اللواء؛ فلا مانع من أن يكون الناس قد انهزموا، فقتله وحشي، وهو عائد من بعض حملاته. ثم صار علي (ع) يدفع كتائب المشركين عن رسول الله (ص) كما تقدم.

عودة المسلمين الى القتال:

ثم إن كعب بن مالك كان أول من عرف النبي (ص)، رأى عينيه تزهران من تحت المغفر، فصاح: يا معشر المسلمين، أبشروا؛ فهذا رسول الله.

فأمره النبي بالسكوت؛ لحراجة الموقف وخطورته.

ثم صار المسلمون يفيئون إلى رسول الله (ص) زرافات ووحدانا، وجعل (ص) يذرهم ويحضهم على القتال؛ فقاتلوا على قلتهم خير قتال.

ولكن الذين كانوا على الجبل فوق الصخرة لم يعودوا ـ أو أكثرهم ـ إلى القتال، ولا تركوا مركزهم.

وقبل أن نستمر في الحديث عن المعركة الحاسمة، لا بأس بالإلماح إلى بعض المواقف البطولية التي سجلها بعض المسلمين، مع

---

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٤٦.

محاولة التركيز على بعض الجوانب الإيجابية فيها، ثم نشير إلى بعض المختلقات في هذا المجال، ولا سيما حول طلحة، وسعد بن أبي وقاص، فنقول:

مواقف وبطولات:

١ ـ مع أنس بن النضر، وابن السكن وأصحابه:

إن موقف أنس بن النضر ليدل على فهمه العميق للإسلام، وإدراكه أن الإسلام لا يرتبط بالشخص والفرد، حتى ولا بالنبي نفسه، الذي جاء به من عند الله من حيث هو شخص وفرد[١]. تماماً على عكس الرؤية التي كانت لدى الذين فرّوا، حتى انتهوا إلى الصخرة. فالحق ـ عند أنس هذا ـ لا يعرف بالرجال، وإنما تعرف الرجال بالحق.

قال أمير المؤمنين: «إنك لم تعرف الحق، فتعرف من أتاه، ولم تعرف الباطل، فتعرف من أتاه»[٢].

وهذه النظرة على درجة من البعد والعمق، فإنه إذا تجسد الدين بالشخص، فإن القضاء على ذلك الشخص يكون كافياً في القضاء على ذلك الدين. وهذه هي إحدى السياسات التي ينتهجها أعداء الله والإنسان في حربهم لله ورسوله، على مدى الأجيال.

هذا، ولا يقل موقف ابن السكن والرجال الخمسة الأنصاريين عن موقف أنس؛ فإنه لما تفرق القوم عن رسول الله (ص) وهاجمه المشركون، قال (ص): من رجل يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله؟ فقام زياد بن السكن ـ أو ولده عمارة ـ في خمسة من الأنصار، فقاتلوا حتى قتلوا،

---

(١) وإن كان الإرتباط به من حيث هو رسول وقائد حرب، ومعلم، أمر ضروري ولابد منه.

(٢) نهج البلاغة الحكمة رقم ٢٦٢.

ثم جاءت فئة؛ ففرقوا القوم عن رسول الله (ص).

٢ ـ أبو دجانة:

وقد تقدم: أن أبا دجانة كان أول عائد مع عاصم بن ثابت، وقد ترّس على رسول الله (ص)، وصار يقيه بنفسه من وقع السهام، وهو منحن عليه لا يتحرك، حتى كثر في ظهره النبل، حتى استحق أن يعطيه رسول الله (ص) سيفاً، ويمنعه غيره ممن فرّ، إهانة لهم، وتكريماً له.

وما ذلك إلا لأن الإسلام ونبي الإسلام، لا يضيعان عمل عامل، أيّاً كان، ومهما كان. ولا يهتم هذا الدين، وهذا النبي (ص) للدعاوى الفارغة التي يطلقها هذا أو ذاك، وإنما يهتمان بتقييم الإنسان على أساس ما يقدمه على صعيد الواقع، ونفس الأمر.

وأبو دجانة قد تعرض للإمتحان ونجح فيه. أما غيره؛ فقد أثبت الإمتحان عدم جدارته، أو استحقاقه لما يعدّ نفسه له ممن يتستر خلف دعاوى فارغة لا أكثر ولا أقل، حتى إذا جد الجد رأيته يتعجل الهزيمة، ويكون أبطأ من غيره في العودة، أو لا يعود أصلاً إلا بعد حسم الموقف.

فكان لابد من إعطاء الضابطة للمسلمين جميعاً، وإفهامهم: أن الإسلام واقعي بالدرجة الأولى، وإن مصب اهتماماته هو المضمون والمحتوى. وإنه يقيّم الإنسان على أساس أعماله، لا على أساس دعاواه وأقواله، ولا على أسس أخرى، ربما لا يكون له خيار فيها في كثير من الأحيان.

فطلحة، وسعد، وأبو بكر، وعمر، والزبير، وعثمان إلخ. وإن كانوا من المهاجرين الذين ربما يعطَون أو يعطيهم الناس امتيازاً لذلك؛ وإن كانوا قرشيين؛ و كان لهم بالنبي (ص) صلة من نوع ما بسبب أو نسب. إلا أن كل ذلك إذا لم يكن معه الإخلاص، وإذا لم يكن الله ورسوله، وجهاد في سبيله أحب إليهم من كل شيء حتى من أنفسهم، فإنه يبقى منحصراً

في نـطاقـه الخـاص، ولا ينبغي أن يتعـداه إلى غيـره، بحيث يخـوّلهم الحصول على امتيازات لا يستحقونها.

وأخيراً، فقد ذكر المؤرخون: أن سلمان الفارسي أيضاً قد كان يقوم بنفس دور أبي دجانة في حمـاية الـرسول (ص)، حيث جعـل نفسه وقـاية لـرسول الله (ص) من وراء ظهـره، من سهـام الكفـار، وأذاهم، ويقـول: نفسي فداء لرسول الله (ص)[1].

٣ ـ أم عمارة: ومقام فلان!! وفلان!!

وقاتلت أم عمارة، نسيبة بنت كعب. وكان معها سقاء فيه ماء، فلمـا رأت قلة من كان مع الرسول، قـامت تذب عنـه مع هؤلاء القلة، وجـرحها ابن قميئـة في عاتقهـا، حينما اعتـرضته مـع آخرين، ممن كـان يـذب عن رسول الله (ص).

بل لقد روى غير واحد: أن النبي (ص) نـظر في أحد إلى رجـل من المهاجرين يفرّ، قد ألقى ترسه خلف ظهره، فناداه: «يـا صاحب التـرس، ألق ترسك، وفر إلى النار»؛ فرمى بترسه.

فقال (ص): «لمقام نسيبة أفضل من مقام فلان، وفلان».

وأراد ولدها عمارة الفرار، فردته، وأخذت سيفه؛ فقتلت بـه رجلاً؛ فقال (ص): «بارك الله عليك يا نسيبـة». وكانت تقي النبي (ص) بيـديها، وصدرها، وثدييها[2].

قال المعتزلي: «ليت الراوي لـم يُكنّ هذه الكنـاية، وكـان يذكـرهما

(١) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٣٦.

(٢) قاموس الرجال ج ١١ ص ٣٨ عن القمي، وراجع: شرح النهج للمعتزلي ج ٤ ص ٢٦٦ و ٢٦٩، ومغازي الواقدي ج ١ ص ٢٦٩ و٢٧٣، وتفسير القمي ج ١ ص ١١٦، والبحار ج ٢٠ ص ١٣٤ و ٥٤.

بإسمهما، حتى لا تترامى الظنون إلى أمور مشتبهة. ومن أمانة المحدث أن يذكر الحديث على وجهه، ولا يكتم منه شيئاً؛ فما باله كتم إسم هذين الرجلين»[١]؟!.

ويرى المجلسي: أن المراد بهما هنا: أبو بكر وعمر، إذ لا تقية في غيرهما؛ لأن خلفاء سائر بني أمية وغيرهم من الخلفاء، ما كانوا حاضرين في هذا المشهد؛ ليكنّي بذكرهم تقية من أولادهم وأتباعهم[٢].

وهذا أيضاً هو رأي محمد بن معد العلوي[٣].

ونزيد نحن: أن عثمان لما كان قد فر بإجماع المؤرخين؛ فقد اضطروا إلى التصريح بإسمه، ثم حاولوا تبرير هذا الفرار بالتوبة عليه، وغفران ذنبه.

ومع ذلك، ومع أننا نجد روايات عديدة تصرح بأن آية: **﴿إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان، إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا﴾** قد نزلت في عثمان، وخارجة بن زيد، ورفاعة بن المعلى، أو في عثمان، وسعد بن عثمان، وعقبة بن عثمان الأنصاريين[٤].

فإننا نجد رواية ذكرها ابن إسحاق تقول: **﴿إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان﴾** فلان!! وسعد بن عثمان، وعقبة بن عثمان[٥].

ورواية أخرى عن عكرمة تقول: نزلت في رافع بن المعلى، وغيره

(١) شرح النهج للمعتزلي ج ١٤ ص ٢٢٦، والبحار ج ٢ ص ١٣٣ عنه.

(٢) البحار ج ٢٠ ص ١٣٤.

(٣) راجع: شرح النهج للمعتزلي ج ١٥ ص ٢٣/ ٢٤.

(٤) الدر المنثور ج ٢ ص ٨٨ و ٨٩ عن مصادر كثيرة.

(٥) الدر المنثور ج ٢ ص ٨٩ عن ابن جرير، وابن المنذر.

من الأنصار، وأبي حذيفة بن عتبة، ورجل آخر[١].

كما أن الواقدي نفسه قد كنّى عن عثمان في فراره بـ «فلان»[٢].

فترى أنهم يهتمون في التكنية حتى عن عثمان المجمع على فراره، دون غيره ممن تذكرهم الرواية. وبعد هذا، فكيف لا يكنّون عمّن هم أعظم من عثمان، وأجلّ عندهم.

ويذكر أخيراً: أن لفلان، وفلان!! فراراً آخر في عرض الجبل، حينما جاءهم المشركون، وندب الرسول المسلمين إلى قتالهم[٣]، وقد ردهم الله عنهم من دون حاجة إلى ذلك، كما سنرى إن شاء الله تعالى.

كما أن الظاهر: أن ابن عباس قد كنّى عنهما، حينما ذكر: أن الناس قد تركوا ثلاث آيات محكمات، وأبوا إلاّ فلان بن فلان، وفلان بن فلان[٤].

جهاد المرأة:

وفي إلماحة موجزة هنا نقول: إن من المعلوم: أنه ليس في الإسلام على المرأة جهاد، إلا حينما يكون كيان الإسلام في خطر أكيد. ولقد أدركت أم عمارة مدى الخطر الذي يتهدد الإسلام، من خلال الخطر الذي يتعرض له النبي (ص)[٥]. ولذلك فقد اندفعت للدفاع عن النبي (ص)،

---

(١) الدر المنثور ج ٢ ص ٨٨ عن ابن جرير.

(٢) راجع: مغازي الواقدي ج ١ ص ٢٧٧ مع هامشه.

(٣) نفس المصدر ص ٢٩٥.

(٤) راجع: المصنف ج ١ ص ٣٧٩/ ٣٨٠. وثمة تعبيرات أخرى عنهما بفلان وفلان. ذكرها في البحار، وروضة الكافي، لا مجال لذكرها هنا.

(٥) إذ لم يكن كل المسلمين ولا جلّهم ـ كما أظهرته حرب أحد ـ في مستوى وعي أمير المؤمنين (ع) وأنس بن النضر، وأبي دجانة وأمثالهم.

بنفسها وولدها، وكل وجودها.

وليت شعري، كيف لم يدرك هذه الحقيقة كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار؟! وكيف سمحوا لأنفسهم بالفرار في هذا الظرف الحرج والخطِر جداً على مستقبل الإسلام، الدين الحق؟!.

وقد كان المهاجرون يرون لأنفسهم، ويرى لهم الناس امتيازاً على غيرهم، وأنهم في موقع المعلم والمرشد. وهم الذين عاشوا مع النبي (ص)، واستفادوا من تعاليمه، ورأوا من معجزاته أكثر من غيرهم. وإذا كانت هذه الأنصارية التي لا جهاد عليها، والتي لم تعاشر النبي (ص)، ولم تر من معجزاته وكراماته ما رآه هؤلاء، قد وقفت هذا الموقف الرسالي الرائد دونهم. فمن الطبيعي أن يكون مقامها أفضل من مقام فلان وفلان من كبارهم. كما أن من الطبيعي أيضاً: أن يفرّ ذلك المهاجري إلى النار، ويكون جهادها طريقها إلى الجنة.

كما أننا سوف لا نصدّق بعد هذا ما يقال، من أن الفضل إنما هو بطول الصحبة للرسول، أو بغير ذلك من عناوين، بل سوف نصر على أن الفضل ـ كما قرره القرآن ـ إنما هو بالتقوى، والعمل الصالح، عن علم ووعي، وعن قناعة وجدانية راسخة.

ملاحظة: ونشير أخيراً: إلى أن خروج أم عمارة إلى أحد لعله كان إستثنائياً، ولضرورة خاصة. ومما يوضح لنا ذلك: أننا نجد إمرأة من عُذرة إستأذنت الرسول في أن تخرج في جيش كذا وكذا، فلم يأذن لها (ص)؛ فقالت: يا رسول الله، إنه ليس أريد أن أقاتل، إنما أريد أن أداوي الجرحى والمرضى، أو أسقي المرضى.

قال: لولا أن تكون سنّة، ويقال: فلانة خرجت، لأذنت لك، ولكن اجلسي[1].

---

(١) حياة الصحابة ج ١ ص ٦١٨، ومجمع الزوائد ج ٥ ص ٣٢٣ وقال: رواه الطبراني =

وقد تكلمنا حول هذا الموضوع في غير هذا الكتاب. فليراجع[1].

٤ ـ أم سليط:

وممن شارك في حرب أحد أيضاً أم سليط، فإنها كانت تزفر القرب، أي تحملها على ظهرها، تسقي الناس منها[2].

٥ ـ حنظلة الغسيل:

واستشهد في أحد حنظلة بن أبي عامر الفاسق، وكان قد دخل بزوجته جميلة بنت عبد الله بن أبي ليلة أحد، وخرج وهو جنب، حين سمع الهائعة؛ فأعجله ذلك عن الغسل. بل يقال: إنه كان قد غسل أحد شقيه، فسمع الهائعة؛ فترك غسله، وخرج. ويقال: إن رسول الله (ص) أخبرهم: أن صاحبهم (حنظلة) لتغسله الملائكة. كما ويقال: إنه استأذن النبي (ص) في أن يقتل أباه أبا عامر الفاسق، فلم يأذن له[3].

ونقول:

١ ـ إن النبي كما منع حنظلة الغسيل من قتل أبيه، كذلك هو قد منع ابن عبد الله بن أبي من قتل أبيه أيضاً[4].

= في الكبير والأوسط، ورجالها رجال الصحيح (إنتهى). وراجع: الإصابة ج ٤ ص ٤٨٧ و ٥٠٥، والإستيعاب بهامشها نفس المكان، والتراتيب الإدارية ج ٢ ص ١١٥.

(١) راجع: الآداب الطبية في الإسلام فصل التمريض والمستشفى.

(٢) راجع: التراتيب الإدارية ج ١ ص ١٠٣.

(٣) الإصابة ج ١ ص ٣٦١، وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٢٧/ ٤٢٨، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٤٠/ ٢٤١. وغير ذلك من المصادر الكثيرة.

(٤) الإصابة ج ١ ص ٣٦١.

ونقول: إنه إذا كان هدف الإسلام هو الحفاظ على إنسانية الإنسان، وتكامله في مدارج الإنسانية، فلا بد أن تكون مواقفه ووسائله منسجمة مع ذلك الهدف الأسمى؛ لأن الوسيلة في نظر الإسلام لا تنفصل عن الهدف، وإنما هي جزء منه.

إذن، فلابد أن يتعامل مع كل أحد حتى مع أبيه، وولده، وعشيرته، وماله، وكل ما يحيط به، تعاملاً إنسانياً صحيحاً، ومنسجماً مع أهدافه تلك.

فإذا كانت علاقته بماله، أو بأبيه، ، أو بولده سوف تفصله عن هدفه، أو تفرض عليه موقفاً يتناقض معه، أو يعيق عن الوصول إليه، فلابد من رفض تلك العلاقة وتدميرها؛ لأن الإبقاء عليها إنما يعني تدمير الإنسانية، والخروج عنها إلى ما هو أحط من الحيوان. وهذا هو ما أشار إليه تعالى في قوله عمن اتخذ إلهه هواه: **﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون، أو يعقلون، إن هم إلا كالأنعام، بل هم أضل سبيلا﴾**[١].

إذن، فلا جامع ولا قدر مشترك بين الإنسان المسلم الذي يعتبر نفسه إنساناً، بكل ما لهذه الكلمة من معنى، ويتصرف على هذا الأساس؛ وبين غيره ممن رضي لنفسه أن يكون أضل من الأنعام، ويتصرف على هذا الأساس، ومجرد وجود علاقة نسبية بينهما لا يبرر تخلي هذا عن إنسانيته في سبيل إرضاء ذاك.

وأما إذا كانت مواقف ذلك الإنسان المنحرف وتصرفاته تساهم في تدمير الإنسانية أينما كانت، وحيثما وجدت، والقضاء على خصائصها ومنجزاتها، سواء على صعيد الفرد أو المجتمع، أو حتى الأجيال القادمة. فإن من الطبيعي أن نرى ذلك الولد الإنسان: يهتم بالقضاء على هذا الوالد، ويعمل في هذا السبيل بصدق، وبجدية، وإلا فإنه سيتضح لنا: أن

(١) لقمان: ٤٤. راجع بحث العصمة في فصل بحوث تسبق السيرة بعد غزوة بدر.

إنسانيته لم تكتمل بعد، أو على الأقل: إن وعيه الإنساني يحتاج إلى تعميق وتركيز. كما أن العاطفة التي تعتبر الوقود الذي يفجر طاقات الإنسان في هذا السبيل، تحتاج إلى شحن وإثارة من جديد.

فلا عجب إذن، أن يستأذن بعض المسلمين في قتل آبائهم المنحرفين، الذين يحاربون دين الله تعالى، وإنما العجب من أن لا يفعلوا ذلك؛ لأنهم حينئذٍ يكونون قد خالفوا مقتضى فطرتهم، وما يحكم به عقلهم السليم. هذا الحكم الذي أيده وأكده الإسلام، دين الفطرة؛ حين قال في القرآن الكريم:

﴿قل: إن كان آباؤكم وأبناؤكم، وإخوانكم، وأزواجكم، وعشيرتكم، وأموال اقترفتموها، وتجارة تخشون كسادها، ومساكن ترضونها، أحب إليكم من الله ورسوله، وجهاد في سبيله؛ فتربصوا حتى يأتي الله بأمره، والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾[1].

٢ ـ وأما سر أن النبي (ص) لم يأذن لهم بقتل آبائهم، فقد قدمنا بعض ما يفيد في ذلك حين الكلام عن وحشي، قاتل حمزة، حيث أخبروه: أن محمداً لا يقتل أصحابه.

ونزيد هنا: أن نفس قتل الولد لوالده ليس أمراً طبيعياً، ولا ينسجم مع مشاعر ونفسية الإنسان العادي، الذي لم يترب تربية إلهية، ولم ينصهر في حب الله تعالى. نعم، إذا أخلص ذلك الإنسان لله، وانقطعت كل علائقه المادية الأرضية؛ فإنه حينئذٍ يرى ذلك أمراً ضرورياً، وينساق إليه بعقله، وبفطرته، وبعاطفته أيضاً. وقليل ما هم.

ولربما يثور الإنسان العادي عاطفياً، إذا رأى من قريبه وحبيبه موقفاً سيئاً، يتنافى مع الفطرة والدين والعقل، ولكن سرعان ما تشده العوامل

---

(١) التوبة: ٢٤ راجع كتاب: دراسات وبحوث في التاريخ والإسلام ج ٢ بحث: الحب في التشريع الإسلامي.

الأرضية إليها، ويعود ليزن الأمور بالموازين الأرضية المادية من جديد.
ولذلك رأينا: المسلمين ينهزمون جميعاً في أحد، وفي مواطن أخرى باستثناء أمير المؤمنين «عليه السلام»، ويتركون نبيهم، الذي هو في الحقيقة رمز وجودهم.

وهذا يدل على أن الروابط الأرضية قد شدتهم إليها، ولم يتمكنوا من التخلص منها، ولا التغلب عليها. اللهم إلا مَنْ كان في مستوى رفيع من التربية الإلهية؛ ووصل إلى حد: أن أصبح الله ورسوله، وجهاد في سبيله، أحب إليه من كل شيء، وليس هو إلا أمير المؤمنين «عليه السلام»، كما قلنا.

ولكي لا يعرِّض النبي (ص) والإسلام الذي هو واقعي بالدرجة الأولى هذا الإنسان إلى تجربة قاسية ومريرة، ربما تكون أكبر منه، وقد يخفق في الخروج منها بسلامة ومعافاة، فقد أعفاه من هذه الأمور، لطفاً به ورفقاً. والله هو اللطيف الخبير.

٦ ـ بين عبد الله بن جحش، وابن أبي وقاص:

وقد دعا عبد الله بن جحش ربه: أن يقتل، ويجدع أنفه، وتقطع أذنه حتى إذا لقي الله، وسأله: فيم جدع أنفك وأذنك؟ فيقول: فيك، وفي رسولك؛ فأمّن له سعد بن أبي وقاص. وهكذا جرى له.

ودعا سعد بن أبي وقاص ربه: أن يَقتُل أحد المشركين، ويأخذ سلبه؛ فأمّن عبد الله على دعاء سعد.

فشتان ما بين سعد وعبد الله، فإن عبد الله قد جاء يطلب الموت، وجاء سعد يطلب ما يرى أنه يفيد في استمرار تمتعه بمباهج الحياة، وزبارجها وبهارجها.

ونعود فنذكّر هنا بما قاله المعتزلي ـ وهو يتحدث عن علي «عليه السلام» ـ: هذا يجاحش على السلب، ويأسف على فواته، وذاك لا

يلتفت إلى سلب عمرو بن عبد ود، وهو أنفس سلب، ويكره أن يبزّ السبيّ ثيابه، فكأن حبيباً عناه بقوله:

إن الأسـود أسـود الغـاب همتهـا   يوم الكريهة في المسلوب لا السلب[1]

ونـزيد هنـا: أن الذي يجـاحش على السلب، ويدعـو الله أن يقتـل مشركـاً من أجل سلبـه، ويأتي إلى الحـرب بهذه النفسيـة، لا يتورع ـ حـين يفوتـه ذلـك، ويواجـه خطر المـوت ـ من أن يفـر من الحـرب، ويتـرك الـرسـول الأعظم «صلى الله عليه وآله وسلّم» لسيوف المشركين تنوشه من كل جانب ومكان؟!.

كمـا أن من تكون الـدنيا عنـده أهـون من عفـطة عنـز، ولا تسـاوي الخلافة عنده شسع نعله، ويكون من الرسول والرسـول منه، ولا سيف إلا سيفـه. كيف، ولماذا يفـرّ يا تـرى؟! فـلا عجب إذن إذا رأينـا هـذا يثبت، ويتلقى السيوف بنحره وجسده، وذاك يفر طلباً للسلامة، ولأجل الإحتفـاظ بالحياة.

مواقف وبطولات سعد الموهومة:

ويذكرون لسعـد بن أبي وقاص في حـرب أحد فضـائل وكـرامات، ومواقف وبطولات، نعتقد أن يد السياسة قـد ساهمت في صنعهـا، ونذكـر على سبيل المثال:

إنهم يقولون: إنه بعد أن عاد المسلمون إلى رسـول الله (ص) دافع سعد عن رسول الله (ص)، ورمى بين يديه بالسهام، وأن النبي (ص) كـان يناوله النبل، ويقول[2]: إرم فـداك أبي وأمي؛ فرمى دون رسـول الله حتى

---

(١) شرح النهج للمعتزلي ج ١٤ ص ٢٣٧ ملخصاً.

(٢) راجع: المغازي للواقدي ج ١ ص ٢٤١، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٢٩، وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٣٣.

اندثت سية قوسه.

وفي المشكاة عن علي (ع): ما سمعت النبي (ص) جمع أبويه لأحد إلا لسعد[١].

بل يروي البعض: أنه قال له ذلك ألف مرة، لأنه رمى ألف سهم[٢].

كما أن ابن عرقة رمى بسهم، فأصاب ذيل أم أيمن، فانكشف، فضحك. فأمر النبي (ص) سعداً بأن يرمي، ودعا له بأن يسدد الله رميته، ويجيب الله دعوته؛ فرمى ابنَ عرقة في ثُغرة نحره؛ فانقلب لظهره، وبدت عورته، فضحك (ص)[٣].

ولكننا نشك فيما ذكر آنفاً، وذلك بملاحظة النقاط التالية:

١ - يقولون: سُئِل سعد عن سرّ استجابة دعائه دون الصحابة، فقال: ما رفعت إلى فمي لقمة إلا وأنا أعلم من أين جاءت، ومن أين خرجت[٤].

أي لأنه قد جاء في الحديث: أن سرّ عدم استجابة الدعاء، هو أن من كان مأكله وملبسه حراماً فأنّى يستجاب له[٥].

فأي ذلك نصدق؟! هل نصدق أن استجابة دعائه كانت لدعائه

---

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٢٩.

(٢) مجمع الزوائد ج ٦ ص ١١٣، ومغازي الواقدي ج ١ ص ٢٤١، وشرح النهج للمعتزلي ج ١٤، والكامل لإبن الأثير ج ٢ ص ١٦٠، وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٣٣، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٢٩، وغير ذلك كثير.

(٣) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٢٩.

(٤) المصدر السابق.

(٥) المصدر السابق.

(ص) له؟! أم نصدق أنها من أجل أنه لم يكن يأكل حراماً؟!.

وحاول الحلبي أن يجيب: بأن دعاء النبي (ص) يرجع: إلى أنه دعا لـه أن يستجاب لـه بسبب عـدم أكله للحـرام، وتمييـزه للحـرام عن غيره[1]!!.

وهو تأويل بارد، كما ترى، ولا نرى حاجة للتعليق عليه.

٢ ـ لا نـدري إذا كان الـوقت يتسع لـرمي ألف سهم، ولقـول النبي (ص) له ذلك، وهو يناوله السهام في ذلك الوقت الحرج جداً؟!.

ولا نـدري أيضاً من أين حصـل سعد على تلك السهـام الألف التي رمى بها؟!، وهل كانت تتسع كنانته، وكنانة النبي (ص) ـ لو كانت ـ لهـذه الكمية؟!.

ولا نعرف أيضاً إن كانت تلك السهام تصيب المشـركين؛ فيستجاب دعاء الرسول الأعظم «صلى الله عليه وآله وسلّم» له أم لا؟!.

وإذا كانت تصيبهم، فكم قتل سعـد؟ وكم جرح؟! ولمـاذا لم ينهزم المشركون لهذه النكبة التي حلت بهم؟!.

٣ ـ إذا كان سعد مستجـاب الدعـوة، فلماذا لم يـدع الله ليفرج عن عثمـان حين الحصار؟ أو ليهـدي معـاويـة إلى الحق والتسليم لعلي (ع)؛ ليحقن دمـاء عشرات الألـوف من المسلمين، ويجنب الأمة تلك الكـوارث العظيمة التي تعرضت لها؟!.

وعندما عرض عليه أمير المؤمنين «عليه السلام»: أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، طلب منه أن يعطيه سيفاً يميز بين الكـافر والمؤمن[2]؛ فلم لم يـدع الله أن يعطيـه سيفاً كهـذا؛ فيستجيب الله له، مـا دام أنه كـان

(١) المصدر السابق.

(٢) قاموس الرجال ج ٤ ص ٣١٥ عن وقعة صفين لنصر بن مزاحم.

مستجاب الدعوة؟!.

٤ ـ عن ابن الزبير: أن الرسول الأعظم (ص) قال للزبير ـ يوم الخندق، حينما أتاه بخبر بني قريظة ـ: فداك أبي وأمي[1]، فأي الروايتين نصدق؟! أم نصدقهما معاً؟! أم ننظر إليهما معاً بعين الشك والريب، لما نعلمه من تعمد الوضع والإختلاق لصالح هؤلاء؟! أعتقد أن هذا الأخير هو الأمر المنطقي، والطبيعي، والمعقول.

واحتمال أنه (ص) وإن كان قد قال ذلك للزبير يوم الخندق، لكن علياً «عليه السلام» لم يسمعه، فنقل ما سمعه فقط بالنسبة لسعد، أو أنه (ص) قد أراد تفدية خاصة.

لا يجدي؛ إذ قد جاء في رواية أخرى قوله: فماجمع (ص) أبويه لأحد إلا لسعد[2]. وهذا يدل على أنه يخبر عن علم، وإلا لكان عليه أن يقول: إنه لم يسمع ذلك إلا بالنسبة لسعد، كما أنه لو كان أراد تفدية خاصة لكان عليه البيان.

٥ ـ كيف يكون سعد قد قتل حبان بن العرقة في حرب أحد، كما يقول الواقدي، مع أن الواقدي نفسه وغيره يقولون: إن حبان بن العرقة قد رمى سعد بن معاذ في أكحله في غزوة الخندق، فقال (ص): عرق الله وجهك في النار[3]؟!.

فإن حرب الخندق كانت بعد أحد بالإتفاق.

---

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٢٩.

(٢) نفس المصدر.

(٣) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٢٦٩ و ٥٢٥، وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٣٣، والإصابة ج ٢ ص ٣٧ و ٣٨.

اشارة هامة :

وأما لماذا حشد هذه الفضائل لسعد، فذلك أمر واضح، فإن سعداً قد كان من الفئة المناوئة لأمير المؤمنين «عليه السلام»، وأهل بيته، حتى لقد كتب «عليه السلام» لوالي المدينة: أن لا يعطي سعداً من الفيء شيئاً(١).

وحينما دخل عليه سعد يطالبه بعطائه ردّه مع صاحبيه، بعد كلام طويل، ولم يعطه شيئاً(٢).

وحينما دعاه عمار إلى بيعة سيد الوصيين، أظهر سعد الكلام القبيح (٣).

وأيضاً فقد صارمه عمار المعروف بجلالة مقامه وعلو شأنه(٤).

كما أنه قد أخذ من بيت المال مالاً ولم يؤده، وعزله عمر عن العراق، وقاسمه ماله(٥).

وكان ممن قعد عن علي «عليه السلام» وأبى أن يبايعه، فأعرض عنه «عليه السلام»، وقال: (ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم، ولو أسمعهم لتولّوا وهم معرضون)(٦).

وسعد هو أحد الستة الذين جعل عمر الأمر شورى بينهم، فوهب

---

(١) إختيار معرفة الرجال ص ٣٩، وقاموس الرجال ج ٤ ص ٤١٢/ ٤١٣ عنه.

(٢) صفين ص ٥٥١/ ٥٥٢، وقاموس الرجال ج ٤ ص ٣١٣ عنه.

(٣) الإمامة والسياسة ج ١ ص ٥٣.

(٤) عيون الأخبار لإبن قتيبة ج ٣ ص ١١١، وقاموس الرجال ج٤ ص٣١٣/٣١٤ عنه.

(٥) راجع: قاموس الرجال ج ٤ ص ٤١٤ عن الأغاني، وعن أنساب السمعاني.

(٦) راجع: قاموس الرجال ج ٤ ص ٣١٥/ ٣١٦. وراجع: شرح النهج للمعتزلي ج ٤ ص ٩.

حقه لإبن عمه عبد الرحمان بن عوف[1].

وشكا أهل الكوفة سعداً إلى عمر بأنه لا يحسن يصلي[2].

إذن، فانحراف سعد عن علي «عليه السلام»، وممالأته لأعدائه هو الذي جعل لسعد هذه الشخصية، ورزقه هذه الفضائل والكرامات.

وهذا هو بعينه السر أيضاً بما رزقه الكرماء طلحة بن عبيد الله من كرامات ستأتي الإشارة إليها إن شاء الله.

ولعل أبا طلحة أيضاً قد ارتزق فضائله وكراماته عن نفس هذا الطريق، طريق العداء لعلي (ع)، والإنحراف عنه، كما هو معلوم بالمراجعة[3].

كرامات طلحة:

ويذكرون لطلحة بن عبيد الله أيضاً في أحد كرامات كثيرة، نذكر منها:

١ ـ أن رسول الله (ص) قد سمّاه في أُحد بـ «طلحة الخير»؛ لأنه أنفق سبعمائة ألف درهم[4].

ولا ندري كيف وعلام أنفق طلحة سبعمائة ألف درهم، التي كانت تكفي لتجهيز جيش بكامله، يكون أضعاف أضعاف جيش المسلمين في

---

(١) راجع على سبيل المثال: شرح النهج للمعتزلي ج ١ ص ١٨٨.

(٢) الأوائل ج ١ ص ٣١٠، والمصنف لعبد الرزاق ج ٢ ص ٣٦٠، وفي هامشه عن البخاري عن أبي عوانة والعقد الفريد ج ٦ ص ٢٤٩، والكامل في التاريخ ج ٢ ص ٥٦٩، والثقات ج ٢ ص ٢٢٠.

(٣) راجع: قاموس الرجال للعلامة التستري، وغيره من كتب التراجم.

(٤) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٣٢، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٣٨.

أحد. أوليس قد جهزت قريش جيشاً مؤلفاً من ثلاثة أو خمسة آلاف مقاتل معهم ثلاثة آلاف بعير، ومئة فرس، وسبعمائة دارع بخمسة وعشرين ألف دينار[١]؟!. أي بما يساوي ثلث المبلغ الذي يدّعى أن طلحة قد أنفقه؟ وعلى أبعد الأقوال: إنها أنفقت خمس مئة ألف درهم.

ومن الواضح أن سبعمائة ألف درهم في تلك الأيام تعدل ميزانية دولة بكاملها.

وكيف نصدق ذلك، ونحن نرى ابن سعد يروي في الطبقات عن أنس: أن أبا بكر استعمله على الصدقة، فقدم وقد مات أبو بكر، فقال عمر (رض): يا أنس، أجئتنا بالظهر؟

قلت: نعم.

قال: جئتنا بالظهر، والمال لك.

قلت: هو أكثر من ذلك. قال: وإن كان هو لك.

وكان المال أربعة آلاف فكنت أكثر أهل المدينة مالاً[٢].

فإذا كان أنس أغنى أهل المدينة بالأربعة آلاف، وذلك في زمان عمر، الذي اتسع فيه الأمر على الناس، وحصلوا على الأموال الكثيرة. فهل يمكن أن نصدق أن مهاجرياً قدم المدينة بلا مال، يصير من الثراء بحيث يبذل سبعمائة ألف درهم بعد فترة وجيزة جداً من قدومه؟!

ولا سيما في وقت كان يعاني فيه المسلمون صعوبات جمة، حتى إن النبي (ص) كان يربط الحجر على بطنه من الجوع (راجع حديث الغار، حين البحث في ثروة أبي بكر).

---

(١) تقدم ذلك في فصل: قبل نشوب الحرب، فراجع.

(٢) حياة الصحابة ج ٢ ص ٢٣٥، وكنز العمال ج ٥ ص ٤٠٥.

ولماذا لم تنزل في طلحة آية تشيد بهذه الفضيلة لـه، كما نـزلت في علي (ع) حينمـا تصدّق بـالخـاتم في الصـلاة[1] وحينمـا تصـدّق بـأربعـة دراهم. إلى آخر ما تقدمت الإشارة إليه[2].

وبـذلك يعلم أيضـاً: مدى صحـة الأرقام الخيـالية التي تـذكـر عن تجهيز عثمان لجيش العسرة، وغير ذلـك مما لا مجـال لتتبعه. وسنتعـرض لذلك كله في مواضعه إن شاء الله تعالى.

٢ ـ وأمـا روايات شلل إصبـع طلحـة، ومـا أصـابـه في أحـد. فهي متنـاقضة؛ فـلا ندري هـل شلت إصبعه؟ أو إصبعـاه؟ أو يـده؟ أو قـطعت إصبعه؟! ثم هنالك الخلاف في عدد الجراح التي أصابته.

ونحن لا ننكر أن يكون طلحة قد أصيب ببعض الجـراح. لكن ذلك لا يلزم منـه عدم فـراره. بل يَستـظهِر المـظفر: أن شلل يـده قد كـان حين الفرار، أو بسبب آخر.

وقد يستظهر ذلك من تعبير الشعبي بـ «زُعِم» في قولـه: «وزُعِمَ: أن طلحة وقى رسول الله بيـده؛ فضرب، فشلّت»[3] فيـظهر أن الشعبي يشـك في ما زُعِم.

وأما ما زعمه البعض من أنه (ص) قد مسح على جسد طلحة، ودعا لـه بالشفـاء، والقوة[4]، فـلا ندري مـا نقول فيـه، ونحن نـرى أن يـده لم تشف، ولم يستجب الله ذلك الدعاء. ولكن الذي شفي بدعاء النبي (ص) حقاً هو أمير المؤمنين (ع) كما تقدم.

---

(١) و (٢) تقدمت المصادر لذلك في أواخر الجزء الثالث من هذا الكتاب في فصل: هجرة الرسول الأعظم (ص) حين الحديث عن ثروة أبي بكر.

(٣) راجع: تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٣١.

(٤) دلائل الصدق ج ٣ ص ٢٥٩ بتصرف.

٣ ـ **ويقولون**: إنه (ص) قد وقع في إحدى الحفر التي حفرها أبو عامر الفاسق مكيدة؛ فرفعه طلحة، وأخذ بيده علي «عليه السلام». وزاد في الإكتفاء: فقال (ص): من أحب أن ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة[1].

ولا ندري لماذا اختص طلحة الفار من الزحف بهذا الوسام، دون علي (ع)، الذي لم يثبت أحد سواه، مع أنهما شريكان في مساعدته (ص) على النهوض؟!

ثم إن كل من يعثر ويقع، فإن من معه يبادرون إلى مساعدته، ومعاونته على النهوض؛ ولا يعتبرون ذلك عملاً عظيماً يستحق وساماً كهذا.

٤ ـ **ويقولون**: ولما أصاب النبي (ص) ما أصابه، جعل طلحة يحمله، ويرجع القهقرى. وكلما أدركه أحد من المشركين قاتل دونه، حتى أسنده إلى الشعب. أخرجه الفضائلي[2].

ونحن لا نصدق أن النبي «صلى الله عليه وآله وسلّم» قد تقهقر وفرّ، كما تقهقر غيره، وأخلى ساحة القتال. وقد تقدم تكذيب الإمام الصادق لذلك.

كما أننا لا نرى أن ما جرى للنبي (ص) قد أفقده القدرة على المشي؛ ولذا فنحن لا نفهم وجه الحاجة لأن يحمله طلحة ثم يضعه ليدافع عنه.

كما أننا لا نعرف أين ذهب عنه (ص) أصحابه الثلاثون الذين فاؤا إليه، ثم لحقهم من لحقهم. وأين كان عنه سلمان، وأبو دجانة، وسهل بن حنيف، وعمار، وأخوه ووصيه علي بن أبي طالب؛ ولم لا يدافعون عنه،

---

(١) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٣٠.

(٢) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٣٧.

ويحمونه من ملاحقة المشركين، حتى يضطر طلحة لأن يرجع القهقرى، وهو حامل رسول الله (ص). ثم يدافع عنه كلما أدركه أحد من المشركين؟!.

كما أنه لم يثبت تاريخياً عودة من كانوا في أعلى الجبل إلى ساحة الحرب ـ وطلحة منهم ـ بل الثابت خلافه، كما سنرى إن شاء الله.

اشارة هامة:

ويقولون: إنه لما كانت وقعة أحد اشتد الأمر على طائفة من الناس، تخوفوا أن يدال عليهم الكفار، فقال رجل لصاحبه: أما أنا فإني ذاهب إلى ذلك اليهودي، فآوي إليه، وأتهوّد معه، لعله ينفعني إذا وقع أمر، أو حدث حادث. وقال الآخر: أما أنا فإني ذاهب إلى فلان النصراني في الشام، واتنصر معه، فأنزل الله: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء﴾**[1].

وقد روى ابن طاووس في الطرائف، والعلامة في نهج الحق هذه الرواية عن السدي، الذي روى عنه ابن جرير، وابن أبي حاتم وغيرهما.

وقد صرح السدي بأن الرجلين هما عثمان، وطلحة. وأنهما استأذنا النبي (ص)، وألحا عليه في ذلك. كما أن رواية أخرى عن عكرمة تقول: «كان طلحة والزبير يكاتبان النصارى وأهل الشام»[2]، فقد صرحت الرواية باسم طلحة في تفسير نفس هذه الآية. والرجل الآخر قد اختلف فيه؛ فقال عكرمة هو الزبير، وقال السدي هو عثمان.

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٦٨، وتفسير الخازن ج ١ ص ٥٠٣، والدر المنثور ج ٢ ص ٢٩١ عن ابن جرير، وابن أبي حاتم عن السدي، ودلائل الصدق ج ٣ ص ٢٠٤، وطرائف ابن طاووس ص ٤٩٤، وقاموس الرجال ج ٥ ص ١٦٩ عنه.

(٢) راجع: الدر المنثور ج ٢ ص ٢٩١ عن ابن جرير، وابن المنذر.

ثم إن لطلحة هذا هنات وهنات، ومواقف عجيبة وغريبة، ويكفي أن نذكر: أن عمر بن الخطاب قد أخبر حين حضرته الوفاة بأن رسول الله (ص) مات وهو عليه ساخط، لأنه قال: إنه سيتزوج نساء النبي من بعده، فنزلت فيه: **﴿وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله، ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً﴾**(١).

ومن أراد المزيد، فليراجع قاموس الرجال وغيره؛ ليقف على بعض مواقف طلحة وأفاعيله.

وحسبنا ما ذكرناه هنا، وقد يأتي المزيد مما يتعلق بهذا الموضوع إن شاء الله.

تجميع القوى، واعادتها الى مراكزها:

قد ذكرنا فيما تقدم: أنه بعد أن صار الرسول يدعو المسلمين إليه، صاروا يرجعون إليه زرافات ووحداناً، وجاهدوا في الله حق جهاده، وحرص النبي الأعظم «صلى الله عليه وآله وسلّم» على أن يرجع بهم إلى مراكزهم الأولى؛ لأن ذلك سوف يجعل الجبل من خلفهم؛ فيخلصون الحرب إلى جهة واحدة(٢). تماماً كما هي الخطة الأولى.

وكانت الجراح قد أرهقت علياً ـ كما تقدم ـ حتى بلغت نيفاً وستين

---

(١) الغدير ج ١٠ ص ١٢٧، وتفسير القرطبي ج ١٤ ص ٢٢٨، وعن فيض القدير ج ٤ ص ٢٩٠، وتفسير ابن كثير ج ٣ ص ٥٠٦، وتفسير البغوي ج ٥ ص ٢٢٥، وتفسير الخازن ج ٥ ص ٢٢٥، وتفسير الألوسي ج ٢٢ ص ٧٤، وشرح النهج للمعتزلي ج ١ ص ٦٠ وج ٣ ص ١٧٠.

وليراجع الدر المنثور ج ٥ ص ٢١٤ عن ابن أبي حاتم عن السدي وعن عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن سعد.

(٢) تفسير القمي ج ١ ص ١١٦، والبحار ج ٢ ص ٥٤.

جراحة ـ كما عن أنس بن مالك ـ بين طعنة، ورمية، وضربة. وفي رواية: نيفاً وأربعين أو نيفاً وسبعين. وفي رواية: تسعين[1]. ويحتمل أن يكون: كلمة تسعين وسبعين: إحداهما تصحيف للأخرى لتقارب الرسم فيما بينهما، مع عدم وجود النقط للكتابة في السابق.

ويبدو أنه في هذه اللحظات الحرجة، وبعد أن رجع إلى النبي «صلى الله عليه وآله وسلّم» بعض من انهزم من أصحابه وبقاء أصحاب الصخرة في موقعهم، خائفين أن تصل إليهم قريش، نعم، في هذه اللحظات يبدو أن الله قدأنزل على القادمين الراجعين إلى النبي، التائبين، أَمَنَة نعاساً؛ لكي يطمئنوا إلى نصر الله ولطفه. أما أصحاب الصخرة، أو كثير منهم، فقد أهمتهم أنفسهم، يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية. وهؤلاء كانوا ـ في الأكثر ـ من المنافقين.

والخلاصة: أن النعاس في الحرب يكون من الإيمان والإعتقاد بالله، وفي الصلاة يكون من الشيطان.

وهكذا كان؛ فقد بلغ الرسول وتلك الثلة من المسلمين المجاهدين، سفح جبل أحد، واستقروا فيه، ولم يجاوزوه. فأرعب ذلك المشركين، لما رأوه من عودة المسلمين إلى مراكزهم الأولى، وتجميع صفوفهم، وارتفاع معنوياتهم من جديد. وإن كان لا تزال ثلة منهم فوق الجبل، وهم أصحاب الصخرة، ومنهم أبو بكر، وعمر، وطلحة، وغيرهم؛ فخاف المشركون أن يدال المسلمون منهم من جديد، ويفعلوا بهم، كما فعلوا في ابتداء الحرب، ففضلوا إنهاء الحرب، والإنسحاب بسلام، وهكذا كان. وحينئذ أعلن أبو سفيان إنتهاء الحرب.

وأشرف على الجبل، ونادى بأعلى صوته: أعل هبل.

---

(١) مجمع البيان ج ٢ ص ٥٠٩، والبحار ج ٢٠ ص ٢٣ عنه وص ٥٤ و ٧٠ و ٧٨، وتفسير القمي ج ١ ص ١١٦، وعن الخصال ج ١ ص ٣٦٨، وعن الخرائج.

وحيث إن المسألة لم تعد مسألة شخصية، وإنما يريد أبو سفيان أن يعتبر هذا النصر الظاهري وإن كان ينطوي على الرعب القاتل، مؤيداً لدينه ولإلهه هُبل، فقد أجابه النبي [1] ـ وقيل عمر ـ: (وقد صرحت بعض الروايات بأن النبي قد علّم عمر ما يقول)[2].

وفي رواية: أن النبي (ص) علّم علياً «عليه السلام»، فأجابه[3]: الله أعلى وأجل.

فقال أبو سفيان: أنعِمَت فعال، إن الحرب سجال، يوم بيوم بدر.

فقال: لا سواء قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار.

وفي نص لأبي هلال العسكري: نادى أبو سفيان: أعل هبل.

فقال عمر: الله أعلى وأجل.

فقال: إنها قد أُنعِمَت يا بن الخطاب

فقال: إنها[4].

فجواب عمر هذا، وتصديقه لأبي سفيان لا ندري ما يعني به؟ وكيف نفسره؟!.

ثم سأل أبو سفيان: إن كان النبي (ص) حياً، فأمرهم النبي (ص): أن لا يجيبوه.

---

(١) الثقات لإبن حبان ج ١ ص ٢٣١، ومجمع البيان ج ٢ ص ٥٠٩، والبحار ج ٢٠ ص ٢٣ عنه.

(٢) راجع: تفسير القرآن العظيم ج ١ ص ٤١٣ عن البخاري.

(٣) تفسير القمي ج ١ ص ١١٧، والبحار ج ٥٦ عنه وص ٩٧ عن إعلام الورى وفيه: أن أبا سفيان سأل علياً عن حياة النبي.

(٤) الأوائل ج ١ ص ١٨٤/ ١٨٥، وراجع: تفسير القرآن العظيم ج ١ ص ٤١٢.

ثم سأل ـ كما قيل ـ عن أبي بكر، وعن عمر، فكذلك[١].

فيقال: إن أبا سفيان قال حينئذ: أما إن هؤلاء قد قتلوا، وقد كُفِيتُموهم، ولو كانوا أحياءً لأجابوا.

فعند ذلك ـ كما يقولون ـ لم يملك عمر نفسه، وأخبرهم: أنهم أحياء، فطلب أبو سفيان من عمر أن يأتيه، فقال (ص) لعمر: إئته، فانظر ما شأنه. فجاءه، فسأله: إن كان النبي (ص) قد قتل. فقال عمر: اللهم لا، وإنه ليسمع كلامك الآن. قال: أنت أصدق عندي من ابن قميئة، وأبر[٢].

ثم واعدهم أبو سفيان بدراً في العام القادم، وانصرف.

ولكن إذا كان عمر بن الخطاب قد أجاب أبا سفيان على قوله: أعل هبل. وكان ذلك قبل هذا الكلام، فإن أبا سفيان الذي خاطب عمر، وسمع صوته، ورأى مكانه، لا يمكن أن يدّعي أن عمر قد مات بعد ذلك بدقائق، إلا إذا فرض أنه سمع صوته، ولم يعرفه ولم يره، بسبب وجود موانع من رؤيته له.

ولكنه فرض لا يصح، لأن أبا سفيان قد صرح في كلامه بأنه إنما يخاطب ابن الخطاب بالذات.

ومهما يكن من أمر، فقد جاء علي إلى النبي (ص) بعد أن انتهت الحرب، فغسل وجهه، وضمدت جراحه فاطمة «عليها السلام».

---

(١) وإن كنا نشك في ذكرهما هنا: فقد تعودنا؛ أن نجد هذا التعاقب في كثير من الروايات، ولعله بهدف الإيحاء بأن الزعامة بعد النبي (ص) كانت لأبي بكر، ثم لعمر، ثم لعثمان، ولكن عثمان لم يذكر هنا لغيابه وفراره.

(٢) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٤٠، ووفاء الوفاء ج ١ ص ٢٩٤، والسيرة الحلبية ج ١ ص ٢٤٤/ ٢٤٥، وتاريخ الطبري ج ٢ ص ٢٠٥، والكامل ج ٢ ص ١٦٠، والثقات ج ١ ص ٢٣٢، وراجع: تفسير القرآن العظيم ج ١ ص ٤١٤/ ٤١٥.

ومثّل نساء المشركين في قتلى المسلمين فجدعن الأنـوف والآذان، إلا أنهن لم يمثلن بحنظلة ابن أبي عامر، لأن أباه طلب منهن تركه، فتـركنه له.

وتشاوروا في نهب المدينة؛ فأشار صفوان بن أمية بالعـدم؛ لأنهم لا يدرون ما يغشاهم[١].

وأرسـل النبي (ص) علياً أميـر المؤمنين «عليه السـلام» في آثارهـم؛ لينظر؛ فإن كانوا قد ركبوا الإبـل، وجنَبوا الخيـل؛ فهـم يريـدون مكة، وإن كـان العكس، فهم يريـدون المدينـة، فلابـد من مناجـزتهم فيها؛ فـذهب «عليه السلام»، وعاد، فأخبره بأنهم جنبوا الخيل، وامتطوا الإبل[٢].

ولكن البعض يقول: إن سعد بن أبي وقـاص هو المـرسَل في هـذه المهمة، وأنه لما رجع رفع صوته بأنهم قد جَنَبوا الخيـل، وامتطوا الإبـل. فجعل النبي (ص) يشير إليه: خفّض صوتك، فإن الحرب خدعة. فلا تـرِ الناس مثل هذا الفرح بانصرافهم؛ فإنما ردّهم الله تعالى.

ويقول الواقدي: إنه (ص) أوصى سعداً بأنـه إن رأى القوم يـريدون المدينة فأخبرني فيما بيني وبينك، ولا تفتّ في أعضاد المسلمين[٣].

ونسب مثـل ذلك إلى علي (ع)، وأنـه رفع صـوته بـالخبر، مـع أنه (ص) كان قد أوصاه بخلاف ذلك[٤].

---

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٤٥.

(٢) راجع: الثقات لإبن حبان ج ١ ص ٢٣٢، وتاريخ الطبري ج ٢ ص ٢٠٥/ ٢٠٦، والكامل لإبن الأثير ج ٢ ص ١٦١، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٤٤/ ٢٤٥، وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٤٠.

(٣) مغازي الواقدي ج ١ ص ٢٩٨/ ٢٩٩، وشرح النهج للمعتزلي ج ١٥ ص ٣٢.

(٤) تـاريخ الـطبري ج ٢ ص ٢٠٦/ ٢٠٧، والكامـل لإبن الأثـير ج ٢ ص ١٦٠/ ١٦١.

ونحن نجلّ علياً عن أن يكون قد ارتكب مثل هذه المخالفة، فقد تعودنا منه الوعي الكامل، والطاعة المطلقة للرسول الأعظم «صلى الله عليه وآله وسلّم»، وقد تقدم: أنه (ص) قال لعلي (ع) في خيبر: إذهب ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك. فمشى هنيئة ثم قام ولم يلتفت للعزمة، ثم قال: على ما أقاتل إلخ. ولعله لأجل هذه الإنضباطية المطلقة منه (ع) في تنفيذ أوامر الرسول (ص) نجده (ص) ينهى ذلك الذي أرسله في رسالة إلى علي، الذي سار في مهمة عسكرية ـ ينهاه ـ عن أن ينادي علياً من خلفه[1].

فهذه القضية بسعد أشبه منها بعلي، وإن كان يمكن أن يكون قد أرسلهما معاً.

فمقصود المحرفين هو أن يقولوا: إن المخالفة تصدر من علي (ع) كما تصدر من غيره، وأنه لا كبير فرق فيما بينهم. ولكن الله يأبى إلا أن يظهر الحق، ويتم نوره.

وبعد انتهاء المعركة خرج علي «عليه السلام» حتى ملأ درقته ماء من المهراس، فجاء به رسول الله (ص) ليشرب؛ فوجد له ريحاً، فعافه ولم يشرب. وغسل الدم عن وجهه. ويقال: إن فاطمة «عليها السلام» كانت تغسل جراحاته وضمدتها، وهو (ص) يقول: إشتد غضب الله على من أدمى وجه نبيه[2].

---

(١) البحار ج ٧٣ ص ٢٢٣ و ٣٢٥ ط مؤسسة الوفاء عن قرب الإسناد ص ٧٦، والمصنف لعبد الرزاق ج ٥ ص ٢١٧، وحياة الصحابة ج ١ ص ٩٧، ومجمع الزوائد ج ٥ ص ٣٠٥، وعن كنز العمال ج ٢ ص ٢٩٧.

(٢) راجع: تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٤١ و ٤٣٧ عن المواهب اللدنية، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٣٧ و ٢٣٦، والكامل لإبن الأثير ج ٢ ص ١٥٧ / ١٥٨، وتاريخ الطبري ج ٢ ص ٢٠٠ / ٢٠١، ومغازي الواقدي ج ١ ص ٢٩٠، وشرح النهج للمعتزلي ج ١٥ ص ١٧، وفي السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٣٦ / ٢٣٧: أن سعداً هو =

وبعـد انتهاء الحـرب أرسل عليـاً «عليه السـلام» إلى المدينـة ليبشر أهلها: بأن النبي «صلى الله عليه وآله وسلّم» حي سالم[١].

وهنا أمور لا بأس بالإلماح إليها للتتميم، والتوضيح، والتصحيـح، وهي:

ألف: فاطمة أم أبيها:

إننا حينما نقـرأ هذه الفقـرات حول تضميـد فاطمـة «عليها السـلام» جراحات رسول الله (ص) نتذكر أنها ـ كما رواه الإمام الصادق (ع) ـ كانت تلقب: بـأم أبيها[٢]. ومـا ذلك إلا لأنهـا كانت بمنـزلـة الأم في حنـانهـا، وعطفها، ورعايتها له (ص)، وسهرها على راحته وسعـادته، وكـانت تفرح لفرحه، وتحزن لحزنه.

ومن الواضح: أن الأم إنما تتحمل المتاعب، وتصبر على الصعـاب في سبيـل ولدهـا، وهي تتمنى حياتـه. أمـا الـولـد، فـإنـه إذا رعى شؤون والديه، وتحمل بعض المتاعب في سبيلهما، فإنما يفعل ذلك وهو يتوقع، أو يتمنى وينتظر موتهما.

أما فاطمة «عليها السلام»، فكانت في ذلك بمنزلة الأم، لأنها كانت

= الذي أتاه بالماء، فشرب منه ودعا له. ولكن الصحيح هو أنه علي «عليه السلام» لتضافر الروايات عليه.

(١) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٤٠.

(٢) راجع: الإستيعاب (مطبوع بهامش الإصابة) ج ٤ ص ٣٨٠، وراجع: المناقب لإبن شهرآشوب ج ٣ ص ٣٥٧، والبحار ج ٤٣ ص ١٩، وكفاية الطالب ص ٣٦٩، والبداية والنهاية ج ٦ ص ٣٣٢، وسير أعلام النبلاء ج ٢ ص ١١٩، والإصابة ج ٤ ص ٣٧٧، وأسد الغابة ج ٥ ص ٥٢٠، ومقاتل الطالبيين ص ٤٦، وتهذيب التهذيب ج ١٢ ص ٤٤٠ لكنه صحف كلمة «أبيها» بـ«إبنها» فراجع.

تريد حياته (ص)، وتريد أن تبقى معه ولا تفارقه، حتى إنها حينما أخبرها، وهو على فراش الموت: أنها أول أهل بيته لحوقاً به ضحكت واستبشرت، فراجع كتب الحديث والتاريخ[1].

ب : النبي (ص) والمسلمون في الجبل!

ويقولون: إنه «صلى الله عليه وآله وسلّم» لما صعد الجبل علت عالية من قريش الجبل؛ فقاتلهم عمر، ورهط من المهاجرين، حتى أهبطوهم من الجبل، ونهض (ص) إلى صخرة في الجبل ليعلوها؛ فلم يستطع؛ فجلس تحته طلحة، ونهض به حتى استوى عليها، وكان بطلحة عرج، فتكلف الإستقامة؛ لئلا يشق على النبي (ص)؛ فذهب عرجه[2].

ونقول:

أولاً : إن النبي «صلى الله عليه وآله وسلّم» ومن معه لم يبلغوا الصخرة، ولا الغار، ولا المهراس، ولا الدرجة المبنية من الشعب، وذلك لما يلي:

---

(١) راجع: حلية الأولياء ج ٢ ص ٣٩، وصفة الصفوة ج ٢ ص ١٢، وخصائص أمير المؤمنين (ع) للنسائي ص ١١٩، وفي هامشه عن مصادر كثيرة، وراجع: ينابيع المودة ص ١٧٣، والصواعق المحرقة ص ١٨٨، وكنز العمال ج ١٣ ص ٩٢ و٩٣، والإصابة ج ٤ ص ٣٧٨، وسير أعلام النبلاء ج ٢ ص ١٢٠ وراجع: البداية والنهاية ج ٦ ص ٣٣٢، وصحيح البخاري ج ٣ ص ٦٠، وعن مسلم في فضائل الصحابة وعن أبي دواد أيضاً، ومناقب آل أبي طالب ج ٣ ص ٣٦١ و٣٦٢، وشرح النهج للمعتزلي ج ١٠ ص ٢٦٦، وإحقاق الحق ج ١٠ ص ٤٣٩ حتى ص ٤٥٢ عن مصادر كثيرة.

(٢) الكامل لإبن الأثير ج ٢ ص ١٥٨، ووفاء الوفاء ج ١ ص ٢٩٧، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٣٦ / ٢٣٧ و٢٣٨، والترمذي وصححه، والرياض النضرة، وأحمد، وأبو حاتم، وراجع: الثقات لإبن حبان ج ١ ص ٢٢٩.

١ ـ لقد صرح الواقدي بأن المسلمين ـ ولابد أن يكون المراد المقاتلين منهم ـ لم يَعْدُوا الجبل. وكانوا في سفحه، ولم يجاوزوه إلى غيره، وكان فيه النبي (ص)[1].

٢ ـ وفي رواية لأحمد: «وجال المسلمون جولة نحو الجبل، ولم يبلغوا حيث يقول الناس: الغار، إنما كان تحت المهراس»[2].

٣ ـ إن رسول الله (ص) لم يبلغ الدرجة المبنية من الشعب[3].

٤ ـ قال ابن إسحاق: «فلما انتهى النبي (ص) إلى فم الشعب، خرج علي بن أبي طالب (رض) حتى ملأ درقته من المهراس»[4]. وجاء بالماء، فغسل وجهه كما سيأتي.

٥ ـ إن النبي (ص) لم يبرح ذلك اليوم شبراً واحداً، حتى تحاجزت الفئتان[5].

فإن النبي (ص) لم يكن ليفر من وجه عدوه، ويصعد إلى الجبل ويعتصم به، ويترك عدوّه يصول ويجول. كيف؟ وقد أنزل الله في الفارّين قرآناً يتلى إلى يوم القيامة، وينعى عليهم عملهم ذاك، ويؤنبهم عليه.

كما أننا لا نصدق أن يرتكب الرسول هذا الأمر في الوقت الذي كان يدعو فيه الفارين في أخراهم إلى العودة إلى مراكزهم. ولا يمكن أن تحدثه نفسه بالفرار من الزحف في أي من الظروف والأحوال.

---

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٢٧٨.

(٢) وفاء الوفاء ج ٤ ص ٣١٥ وج ٣ ص ٩٣٠.

(٣) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٩٢.

(٤) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٩٠، ووفاء الوفاء ج ٤ ص ١٢٤٣.

(٥) مغازي الواقدي ج ١ ص ٢٤٠، وشرح النهج للمعتزلي، والبحار ج ٢٠ ص ٩٦ عن إعلام الورى.

٦ ـ قد تقدم أن الصباح بن سيابة قد سأل الإمام الصادق (ع) عما يذكرونه من هذا، فهو يقول له (ع): «فالغار في أحد الذي يزعمون أن رسول الله (ص) صار إليه؟

قال: والله ما برح مكانه»[1].

وثانياً: قولهم إن عمر ورهطاً من المهاجرين قد قاتلوا المشركين حتى أهبطوهم من الجبل.

لا ندري أنصدقه؟!. أم نصدق قول الواقدي: «وصل رسول الله (ص) إلى الشعب مع أصحابه، فلم يكن هناك قتال»[2]؟.

أم نصدق قولهم: إن سعداً وحده قد ردّهم بسهم، قُتل به أربعة منهم[3]؟ عجيب!! أربعة!!.

وثالثاً: إنهم يقولون: إنه لما رأى أصحاب الصخرة النبي (ص)، وضع أحدهم سهماً في قوسه، وأراد أن يرميه(ص).

فقال: أنا رسول الله، ففرحوا، وفرح بهم؛ لأنه رأى من يمتنع به، واجتمعوا حوله[4].

وفي رواية: لما نادى كعب بن مالك، يبشر الناس بحياة الرسول نهضوا إليه (أي أصحاب الصخرة) فيهم: أبو بكر، وعمر، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد، والحارث بن الصمة[5].

---

(١) إعلام الورى ص٨٣، والبحار ج ٢٠ ص ٩٦..

(٢) مغازي الواقدي ج ١ ص ٢٨١.

(٣) السيرة الحلبية ص ٢٣٨.

(٤) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٢٠١/ ٢٠٢، وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٣٧.

(٥) الثقات لإبن حبان ج ١ ص ٢٢٩.

ونسجل هنا ما يلي:

١ ـ إن ذكر علي هنا غلط عفوي أو عمدي بلا ريب؛ لأنه (ع) لم يفرّ مع هؤلاء إلى الجبل، ولا أصعد فيه حتى بلغ الصخرة؛ بل كان مع النبي (ص)، يدافع عنه، ويكافح وينافح. بإجماع المؤرخين.

٢ ـ لا ندري ما معنى قولهم: إنه (ص) فرح بهم؛ لأنه رأى من يمتنع به!!. فهل منعوه قبل الآن؟! ولو كانوا قد منعوه، فما هو المبرر لكونهم على الصخرة فوق الجبل؟!.

وهل يمتنع بهم، وبعضهم قال لهم ـ وهم على الصخرة ـ: يا قوم، إن محمداً قد قتل، فارجعوا إلى قومكم، قبل أن يأتوا إليكم؛ فيقتلوكم[1]. وبعضهم قال غير ذلك حسبما تقدم!!.

٣ ـ إنه يظهر: أن طلحة لم يكن مع النبي ، ولا عاد إليه، لا هو ولا سعد، ولا أبو بكر، ولا عمر، ولا الزبير، ولا الحارث بن الصمة بعد فرارهم في الجولة الأولى. وإنما عاد إليه أولئك الثلاثون فقط على الظاهر، أو معهم غيرهم ممن هو غير معروف ولا مشهور.

٤ ـ إنه يظهر مما تقدم، ومن قول ذلك القائل: ارجعوا إلى قومكم إلخ. ومن قولهم: إن عمر مع رهط من المهاجرين!! قد قاتلوا الذين علوا الجبل، وغير ذلك ـ يظهر من ذلك ـ: أن أكثر الذين كانوا على الصخرة فوق الجبل كانوا من المهاجرين، وفيهم بعض الأنصار، ولم يرد ذكر لأنصاري باسمه إلا للحارث بن الصمة، كما تقدم.

٥ ـ ولا نريد أن نسمح لأنفسنا بالإسترسال في هذا المجال، حتى لا تتقاذفنا الظنون حول صحة وسلامة نية ذلك الذي أراد أن يرمي النبي (ص) بسهمه، بزعم أنه لم يكن عارفاً له. وقد سماه الواقدي: بـ «أبي

---

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٣، وتاريخ الطبري ج ٢ ص ٢٠١.

بردة بن نيار». فلعله كـان عن غفلة حقيقية منـه. ولعله كان من المنـافقين ـ في بـادىء الأمر ـ فـأراد انتهاز هـذه الفـرصـة للتخلص من النبي (ص)، بحجة أنه لم يعـرفه؛ إذ لا نـدري إن كان فيهم بعـد من يملك الجرأة على رمي سهم على رجل يحتمل أنه من المشركين بعد أن جرى ما جرى!!

وقد بذل المنافقون محاولات مشابهة، فقد نفّـروا برسـول الله (ص) ناقته ليلة العقبة؛ بهدف قتله.

ولأجل هذا فنحن لا نستطيع أن نوافق عمر بن الخطاب على إخباره أبا سفيان والمشركين بحياة النبي (ص)، مع أنه (ص) قد نهاه عن ذلـك. وذلك في موقع حساسٍ وخطير كهذا!!.

ج: روايات لم تثبت:

إنهم يقولون: إنه (ص) قد رمى بالنبل، حتى اندقت سية قوسه[1].

وأنكر ذلك البعض على اعتبار أنه (ص) لو كان رمى لكان (ص) أصاب، ولنقل ذلك إلينا؛ لأنه مما تتوفر الدواعي على نقله[2].

ويقولون أيضاً: إنه (ص) قد قتل أبي بن خلف بحربة طعنه بها.

ونحن نستبعد ذلك أيضاً؛ لأنه (ص) لم يكن يباشر القتل بيده؛ لعلمه بأن أهل بيت المقتول لا تصفو نفوسهم للقاتل عادة، ولا يتبعونه بإخلاص.

ومع أنه «صلى الله عليه وآله وسلّم» لم يكن يباشر ذلك، فإننا نجد هنداً وغيرها يذكرون: أنه قاتل الأحبة، فكيف لو كان باشر قتلهم بيده؟!.

ولكن علياً «عليه السلام» قد تحمل هذه المسؤولية، لأن عدم اتباعهم ومحبتهم له، لا يبرر خروجهم من الإسلام، فلو أرادوا أن يحقدوا

---

(١) الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ١٥٧.

(٢) راجع: السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٢٨.

على الإسلام بسبب ما فعله علي «عليه السلام» لوجدوا أنفسهم أمام تأنيب الضمير، ومحاسبة الوجدان، ولكن كرههم للنبي يوجب خروجهم عن دائرة الإسلام بالكلية، والله هو العالم بواقع الحال.

د : عمر في قفص الإتهام:

إن لنا هنا أسئلة لابد أن نوجهها إلى عمر بن الخطاب، ونطلب منه، الإجابة عليها بصراحة. وهي التالية:

١ ـ لماذا أخبر أبا سفيان والمشركين بوجود النبي (ص) في ظرف حرج وحساسٍ كهذا، مع أنه (ص) قد نهاه عن ذلك؟

٢ ـ قد جاء عن ابن واقد: أن ضرار بن الخطاب الفهري، قد ضرب عمر بن الخطاب بالقناة يوم أحد، حينما جال المسلمون تلك الجولة، وقال له: يا ابن الخطاب، إنها نعمة مشكورة، والله ما كنت لأقتلك[1].

لماذا ما كان ليقتله؟ أليس هو الذي أذل قريشاً كما يدعون، وعزّ به الإسلام كما يزعمون.؟ وإن كنا قد أثبتنا عدم صحة ذلك. أوليس ضرار هذا كان يتطلب الأكابر من الأوس والخزرج؛ ليشفي بقتلهم غليل صدره[2]؟! ألم يكن أكثر قتلى المشركين في بدر قد قتلوا بيد المهاجرين؟! فلم لا يشفي غليله من أكابر المهاجرين، ولا سيما ممن هم مثل عمر بن الخطاب؟!.

٣ ـ وخالد بن الوليد يحدث وهو بالشام فيقول: لقد رأيتني، ورأيت

---

(١) مغازي الواقدي ج ١ ص ٢٨٢، وشرح النهج للمعتزلي ج ١٤ ص ٢٧٤ وج ١٥ ص ٢٠ عن الواقدي والبلاذري وابن إسحاق، وراجع: طبقات الشعراء لإبن سلام ص ٦٣، وفيه أن هذه يد له عند عمر، كان عمر يكافؤه عليها، حين استخلف. وراجع البداية والنهاية ج ٣ ص ١٠٧ عن ابن هشام.

(٢) مغازي الواقدي ج ١ ص ٢٣٧.

عمر بن الخطاب رحمه الله حين جالوا، وانهزموا يوم أحد، وما معه أحد، وإني لفي كتيبة خشناء؛ فما عرفه منهم أحد غيري؛ فنكبت عنه، وخشيت إن أغريت به من معي أن يصمدوا له، فنظرت إليه موجهاً إلى الشعب[1].

لماذا هذه المراعاة من خالد لعمر، ومحافظته عليه، ثمّ هو يوجهه إلى الشعب؟! وما هو السر الذي جعل خالداً يهتم في أن لا يلتفت إلى عمر أحد، وهو الذي كان شديداً على المسلمين حسبما تقدم؟!

ودعوى ابن أبي الحديد: أن سر ذلك هو النسب الذي بينهما، يرده أن رابطة الدين هي الأقوى، أوليس ابن أبي بكر قد برز لقتال أبيه كما يدعون؟

٤ ـ لماذا يهنىء أبو سفيان عمر بالنصر الذي أحرزوه على المسلمين، ويقول له: «انعمت عيناً، قتلى بقتلى بدر»[2]؟!

وما معنى قول أبي سفيان له: إنها قد أنعمت يا ابن الخطاب، فأجابه عمر بقوله: إنها. فما هو الذي أيده فيه؛ ووافقه عليه يا ترى؟

٥ ـ لماذا كان عمر أبرّ لأبي سفيان من ابن قميئة كما تقدم؟ أوليس ابن قميئة يقاتل أعداء أبي سفيان ويفنيهم، ويقتحم الغمرات، ويواجه السيوف، والنبال، والرماح في الدفاع عن المشركين بزعامته، ويدافع عن مصالحهم، ويعمل من أجل قهر عدوهم؟!.

وعمر أليس عدواً لأبي سفيان، ونصيراً لعدوه؟ ومقوياً له عليه؟!.

وقد حاول البعض توجيه ذلك، بأن من الممكن أن يكون أبرّ بلحاظ صدقه؛ وإخباره بالواقع.

ونقول: إن هذا غير معقول، فإن عبارة أبي سفيان قد صرحت

---

(١) راجع: مغازي الواقدي ج ١ ص ٢٩٧، وشرح النهج للمعتزلي ج ١٥ ص ٢٣.

(٢) المصنف للحافظ عبد الرزاق ج ٥ ص ٣٦٦.

بصدق عمر، كما صرحت ببره، فلو كان المراد بالبر الصدق لم يصح منه التصريح بهما معاً. أو فقل: لم يحسن منه ذلك على الأقل.

٦ ـ لماذا لم يعترض هو، ولا أبو بكر، ولا طلحة، ولا غيرهم من كبار المهاجرين، الذين فروا وكانوا على الصخرة، على من قال: إنه يريد أن يوسّط ابن أبي لدى أبي سفيان؛ وطلب منهم الرجوع إلى دينهم الأول؟! أو نحو ذلك من كلام، يدل على رغبتهم في الإرتداد عن الإسلام، وممالأة المشركين، والإتفاق معهم؟.

أسئلة لا تزال ولسوف تبقى تنتظر الجواب المقنع والمفيد.

العباس في أحد:

في قضية أحد رواية تفيد: أن العباس كان ممسكاً بعنان فرس النبي (ص) يقوده. ثم إن النبي (ص) لما صعد الجبل، أو أراد أن يصعده نزل عن الفرس، وصعد. وكان يلتفت إلى الجوانب؛ فسألوه عن سبب ذلك؛ فأقبل على علي، فقال: هل عندك خبر من عمك؟ فأخبره علي بما وقع، فبكى (ص) هو والأصحاب[1].

ولكن هذا لا يمكن أن يصح؛ لأن العباس لم يحضر حرب أحد. وتعلل على قريش بما جرى عليه في بدر.

فمن أين جاء وأمسك بعنان فرس النبي (ص)؟!

ولو كان ذلك صحيحاً، كيف قبلت قريش منه أن يعود ليسكن مكة عدة سنوات بعد ذلك؟!.

فنظن لو كان لهذه القضية أصل، أن المقصود هو العباس بن عبادة بن نضلة الأنصاري، فإنه قد استشهد يوم أحد رحمه الله.

(١) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٣٦/ ٤٣٧ عن الينابيع.

وبكاء الصحابة إنما كان على حمزة عم النبي رحمه الله أو على العباس بن نضلة. ولعله هو الذي كان جهوري الصوت؛ فنادى كما يقولون: يا أصحاب سورة البقرة، أين تفرون؟ إلى النار تهربون[1]. ويكون الراوي قد حرّف في الرواية اعتماداً على ما هو مرتكز في ذهنه، أو لحاجة في نفسه قضاها!!.

هذا بالاضافة إلى وجود الشك في وجود فرس لدى المسلمين من الأساس، حسبما تقدم.

من مشاهد الحرب :

١ ـ لما كان يوم أحد قال مخيريق الحبر اليهودي: يا معشر يهود، والله لقد علمتم أن نصر محمد عليكم لحق. قالوا: إن اليوم يوم السبت. قال: لا سبت.

فأخذ سيفه وعدته. وقال: إن أصبت فما لي لمحمد، يصنع فيه ما شاء، ثم غدا إلى رسول الله، فقاتل معه حتى قتل، فيقال: إنه (ص) قال: مخيريق خير يهود.

٢ ـ وأصر عمرو بن الجموح على الخروج إلى الحرب مع عرجه. ودعا الله: أن يرزقه الشهادة، ولا يرده خائباً إلى أهله. فاستشهد رحمه الله.

٣ ـ وأصيبت عين قتاده بن النعمان، حتى وقعت على وجنته، فردها رسول الله (ص) بيده، فكانت أحسن عينيه، وأحدّهما. ويقال: إنه هو الذي طلب ذلك من النبي (ص)؛ لأنه رجل يحب النساء، ويخاف أن تعافه إمرأته إذا رأته كذلك. وقد افتخر بذلك ابن لقتادة، عند عمر بن عبد العزيز، فقال عمر: بمثل هذا فليتوسل إلينا المتوسلون، ثم قال:

---

(١) البحار ج ٢٠ ص ١١٨.

تلك المكارم لا قعبان من لبن شيبا بماء، فعادا بعد أبوالا

ويقال: إن كلثوم بن الحصين رمي في نحره بسهم؛ فبصق عليه (ص) فبرىء. وفي رواية أخرى: إن عين أبي ذر أصيبت يوم أحد؛ فبصق فيها النبي (ص)؛ فكانت أصح عينيه[1].

٤ ـ وقتل الحارث بن سويد المجذّر بن زياد غيلة في أحد؛ لثار جاهلي له عليه، وكلاهما كان في جيش المسلمين؛ فنزل الوحي على الرسول، وأخبره حبيب بن يساف؛ لأنه كان قد رآه قتله، بخبره؛ فقتله (ص) به بعد رجوعه إلى المدينة، ولم يستمع لطلبه بالعفو، و وعده بالتكفير والدية، كذا يقولون.

٥ ـ وقتل سعد بن الربيع. وكان آخر ما قاله في وصية مطولة منه للمسلمين: إنه لا عذر لكم عند رسول الله: ان يخلص إلى نبيكم، وفيكم عين تطرف، ثم مات.

ودخل عمر على أبي بكر ـ وعنده بنت لسعد هذا ـ وقد طرح لها ثوباً لتجلس عليه، فسأل عمر عنها.

فقال أبو بكر: هذه إبنة من هو خير مني ومنك.

قال: ومن هو يا خليفة رسول الله؟

قال: رجل تبوأ مقعده من الجنة، وبقيت أنا وأنت، هذه إبنة سعد بن الربيع إلخ[2].

٦ ـ ويقولون أيضاً: انقطع سيف عبد الله بن جحش، فناوله (ص) عرجوناً فعاد سيفاً، ولم يزل أهله يتوارثونه، ويسمى (العرجون)، حتى بيع لبغا التركي بمائتي دينار.

---

(١) حياة الصحابة ج ٣ ص ٦١٧، ومجمع الزوائد ج ٨ ص ٢٩٨ عن أبي يعلى.

(٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٤٦، وسيرة ابن هشام ج ٣ ص ١٠١.

ويذكر مثل هذا لعكاشة بن محصن في واقعة بدر.

ولكن قد ذكر البعض: أن رسول الله (ص) ولي تركة عبد الله بن جحش، وأخذ منها سيفه العرجون، فاشترى لأمه مالاً بخيبر[1].

ولكن ثمة قصة شبيهة بقصة العرجون بين النبي (ص) وعلي (ع)[2]. فليتأمل فيما هو الحق من ذلك. فإننا نكاد نطمئن إلى صحة هذه الأخيرة، وذلك لما تعوّدناه من أعداء علي «عليه السلام»، من إغارات على فضائله وكراماته.

٧ ـ ويقولون: إن هنداً قد اعتَلَت صخرة مشرفة، فصرخت:

نحن جزيناكم بيوم بدر والحرب بعد الحرب ذات سعر
ما كان لي عن عتبة من صبر ولا أخي، وعمه وبكر
شفيت نفسي، وقضيت نذري شفيت وحشيّ غليل صدري
فشكر وحشيّ على عمري حتى ترمّ أعظمي في قبري

فأجابتها هند بنت أبان بن عباد بن المطلب بن عبد مناف:

خزيت في بدر، وغير بدر يا بنت وقاع عظيم الكفر
صبحك الله غداة الفجر بالهاشميين الطوال الزهر
بكل قطاع حسام يفري حمزة ليثي، وعلي صقري
إذ رام شيب وأبوك غدري فخضبا منه ضواحي النحر
ونذرك الشر فشرّ نذر[3]

---

(١) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٢٤، ومغازي الواقدي ج ١ ص ٢٩١، وشرح المعتزلي ج ١٥ ص ١٨.

(٢) البحار ج ٢ ص ٧٨.

(٣) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٣٩، والسيرة النبوية لإبن هشام ج ٣ ص ٩٧، والسيرة النبوية لدحلان (مطبوع بهامش السيرة الحلبية) ج ٢ ص ٥٠.

٨ ـ كما أن الجليس بن زيان، سيد الأحابيش، قد مر بـأبي سفيان، وهو يضرب بشدق حمزة بزج الرمح، ويقول: ذق عقق.

فقال الجليس: يا بني كنانة، هذا سيد قـريش، يصنع بـابن عمه مـا ترون لحماً!!

فقال: ويحك، أكتمها علي؛ فإنها كانت زلة[1].

٩ ـ وقد تقدم تمثيل قريش بالشهداء من المسلمين أقبح تمثيل.

١٠ ـ ويقال: إن قزمان الذي كـان (ص) إذا ذكره يـقـول: إنـه لمن أهل النار[2]. قـد حارب في أحـد، وقتل سبعـة أو ثمانيـة من المشركين، فجـرح. فبشـره البعض، فقـال: بمـاذا أبشـر؟ فـوالله مـا قـاتلت إلا عن الأحـسـاب. ويقال: إنـه لما اشتـدت جراحتـه قتل نفسـه[3]، ويقال: لم يفعل ذلك. ويقال: إن النبي (ص) حنيئذ قال ما معناه: إن الله ليؤيد هـذا الدين بالرجل الفاجر[4].

---

(١) الكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٦٠، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٤٤، وتاريخ الخميس ج ١ ص ٢٣٩ عن ابن إسحاق، وتاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ١٩٦، والبحار ج ٢٠ ص ٩٧ عن إعلام الورى.

(٢) تاريخ الأمم والملوك ط دار المعارف ج ٢ ص ٥٣١، وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٣٨، والسيرة النبوية لإبن هشام ج ٣ ص ٩٣، والمغازي للواقدي ج ١ ص ٢٢٤ و٢٦٣، والكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٦٢، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٣٩.

(٣) تاريخ الأمم والملوك ط دار المعارف ج ٢ ص ٥٣١، وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٣٨، والسيرة النبوية لإبن هشام ج ٣ ص ٩٤، والمغازي للواقدي ج ١ ص ٢٢٤ و٢٦٤، والكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٦٢، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٣٩.

(٤) المغازي للواقدي ج ١ ص ٢٢٤، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٣٩.

ملاحظات :

ونحن نسجل على ما تقدم باختصار شديد الإشارات التالية :

ألف : إن أموال مخيريق، وهي سبعة حوائط، قد أصبحت للنبي (ص) بعد أن استشهد مخيريق، بمقتضى وصيته نفسه. ولم يكن لليهود أن يأخذوا منها شيئاً؛ حيث إنه ليس للكافر أن يرث المسلم. وحيث لم يكن لمخيريق وارث؛ فإن النبي (ص) يكون وارثه. ولسوف يأتي بعض الكلام عن مصير أمواله (ص) عند الكلام عن فدك إن شاء الله تعالى.

ب : إن موقف مخيريق هذا في أحد يذكّرني بموقف الحر الرياحي في كربلاء. فكل منهما قد اتخذ القرار الحاسم في أحرج اللحظات، وأكثرها حساسية. فإن مخيريق قد استطاع أن يتخلى عن كل ما يحيط به من روابط، تشده الى الأرض، وتهيمن عليه، وتمنعه من اتخاذ القرار طيلة تلك المدة الطويلة، وكذلك فعل الحر أيضاً. وإن تحكيم العقل، والتخلي عن كل تلك الروابط، وإبعاد سائر تلك المؤثرات، يحتاج إلى جهد نفسيّ كبير. وبهذا تعرف الرجال، وما تحمله من فضائل نفسية، وملكات إنسانية. لأن حالات كهذه تكون الأعصاب فيها عادة في أقصى حالات التوتر، والمشاعر والعواطف في منتهى تأججها. وكل الروابط والمؤثرات الأرضية تكون واضعة كل ثقلها في تصوراته، ونظراته المستقبلية. ولهذا كان «مخيريق» خير يهود.

ولعل الذي سهّل على مخيريق اتخاذه قراره الحاسم ذاك، هو قناعاته المترسخة في عمق وجدانه، والتي تستمد عمقها هذا من الإخبارات الصريحة والقاطعة التي يجدها عنده في التوراة والإنجيل، حتى إن اليهود كانوا يعرفون النبي (ص) كما يعرفون أبناءهم.

ج : إن إصرار عمرو بن الجموح على الخروج إلى الحرب، وإذن النبي (ص) له، إنما يعني أن عدم الخروج للجهاد، رخصة للأعرج لا

عزيمة. فإذا بلغ المسلم من النضج الروحي بحيث يعتبر عدم الشهادة له خيبة، والشهادة فوزاً ونجاحاً، ثم هو يندفع إليها بهذا الإصرار، ويعتبرها غاية له، وتتويجاً لحياته، فلماذا يُحْرَم منها.

ويجب أن لا ننسى وصية سعد بن الربيع رضوان الله عليه (وهو شيخ الأنصار. وقد جعل بيوته للنبي (ص) ولزوجاته، وقد عرّس علي (ع) بفاطمة الزهراء في أحد بيوته) التي تعبّر عن مدى وعيه وسمو روحه، وهو لا يرى موته نهاية له، إذا كان دين محمد «صلى الله عليه وآله» محفوظاً؛ فإنه يعتبر نفسه قد فاز بشهادته من جهة، كما أنه يعتبر نصر محمد (ص)، ودين محمد بعد موته نصراً له حتى وهو في قبره أيضاً، لأنه يرى نفسه فانياً في هدفه، وجزءاً منه؛ فإذا انتصر الهدف، فهو أيضاً يكون المنتصر.

د : وإن ما فعله أبو سفيان بجثة حمزة رضوان الله عليه، ثم طلبه من الجليس: أن يستر عليه هذه الزلة ليس بعجيب، فإن تصرفات ومواقف أبي سفيان لم تكن محكومة لفضائل نفسية، ولا لقناعات عقلية وجدانية، ولا لقوة إلهية غيبية، ولكنها كانت تخضع للمفاهيم الجاهلية والقبلية، والمصالح الشخصية بالدرجة الأولى، ولذلك هو يعتبرها زلة إذ كان الجاهليون يقبحونها ويرفضونها، ولكنه لا يرى مانعاً منها بحسب ما لديه من خصائص نفسية، ومصلحة شخصية.

كما أن عمل أبي سفيان هذا يكذّب ما اعتذر به عن المثلة التي لحقت شهداء المسلمين، حيث ادّعى أنه لم يرض، ولم يغضب، ولم يعلم بالتمثيل بالشهداء على أيدي المشركين!!

ويكذبه أيضاً: أن أبا عامر الفاسق طلب أن لا يمثل بولده حنظلة، ويترك لأجله فكان له ذلك. وهذا يدل على أن التمثيل بالشهداء قد كان معلوماً لدى الملأ من قريش، وكانوا راضين به. ولعل أبا سفيان قد كذب هذه الكذبة ليتفادى التمثيل بأصحابه، أو أنها كذبت عن لسانه من محبيه،

ومن يهمهم أمره.

هـ : هذا وثمة نقاط أخرى فيما تقدم تحتاج إلى إلقاء الأضواء عليها، كقضية قزمان، فإننا نشك في أن يكون النبي (ص) قد أخبر قبل موته أنه من أهل النار، ولعله ـ لو صحت الرواية ـ لمّا علم أنه قتل نفسه، قال: «هو من أهل النار» كما ورد في ذيل رواية الواقدي والمعتزلي[1] فذيل الرواية مقبول، دون صدرها.

وكقضية العرجون، فإنها إن لم تكن مع علي «عليه السلام»، فإننا نظن أنها قد جعلت في مقابل ذي الفقار لعلي «عليه السلام». وحسبنا ما ذكرنا هنا، فإن الكلام حول كل ما تقدم يطول.

الصبر في الجهاد :

لقد رأينا في واقعة أحد أن الله تعالى قد أنزل آيات في سورة آل عمران ترتبط بالصبر في هذا المقام. ونحن نختار منها الآيات التالية:

قال تعالى: **﴿أم حسبتم: أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾**[2].

وقال: **﴿وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله، وما ضعفوا، وما استكانوا. والله يحب الصابرين﴾**[3].

ثم هناك آيات أخرى في سورة آل عمران تؤنب المؤمنين على عدم

---

(١) راجع: المغازي ج ١ ص ٢٦٣/ ٢٦٤، وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج ١٤ ص ١٦١.

(٢) آل عمران: ١٤٢.

(٣) آل عمران: ١٤٦.

صبرهم في أحد، وفيها إشارات لحقائق مهمة في حرب أحد لا مجال لبحثها الآن، غير أننا نكتفي هنا بإشارة موجزة جداً للصبر في الجهاد، فنقول:

الصبر في عرف الإستعمار، وفي عرف الحكام الظالمين، والجبابرة المتكبرين، هو تحمل الذل، والإستسلام لكل المخططات الهدامة التي تهدم حياة الإنسان، ومستقبله، وقيمه، وأخلاقه، ودينه، تهدمها لتبني على أشلائها عروش الظلم والخيانة، وملك الجبارين والمستكبرين.

ولقد تسرب هذا المعنى للصبر إلى عقائد بعض المسلمين، عن طريق العلماء المزيفين، الذين جعلوا أنفسهم أداة للإستعمار ولأذنابه، وآلة في يد أولئك الحكام الظالمين، فحوروا دين الله على وفق أهداف أسيادهم، وحسبما يخدم مصالحهم، ويؤيد ويسدد سلطانهم.

ولكننا إذا رجعنا ـ خلواً عن هذه السوابق الذهنية ـ إلى المنبع الأصفى للإسلام والقرآن العظيم، ، وإلى مواقف وتعاليم النبي الكريم، وأهل بيته الأطيبين الأطهرين، فإننا نجد: أن للصبر مفهوماً يختلف تماماً عن هذا المفهوم، بل هو يناقضه ويباينه.

إن الصبر في مفهوم هؤلاء هو تحمل كل المشاق في سبيل الوصول إلى الأهداف النهائية النبيلة لهذا الإنسان، وينسب لعيسى «عليه السلام»: قوله: إنكم لا تدركون ما تأملون إلا بالصبر على ما تكرهون[1].

وعن علي «عليه السلام»: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد[2].

وقد قال أمير المؤمنين (ع): لا يعدم الصبور الظفر وإن طال

---

(١) البحار ج ٧٩ ص ١٣٧ ط بيروت.

(٢) نهج البلاغة ج ٣ ص ١٦٨.

الزمان[1]. ونسب إليه أيضاً قوله: الصبر سيف لا ينبو، ومطية لا تكبو، وضياء لا يخبو[2].

وقال (ع): لنا حق فإن أعطيناه، وإلا ركبنا أعجاز الإبل وإن طال السرى[3].

فالصبر في الإسلام هو الصبر على تحمل الأذى في محاربة الظلم، والقضاء عليه (الذي هو أحد هذه الأهداف). ولذلك نجدهم في مقام الثبات في الحرب المدمرة، يقولون: ﴿ربنا افرغ علينا صبراً، وثبت أقدامنا، وانصرنا على القوم الكافرين﴾[4]. ويقولون في مواجهة فرعون: ﴿ربنا افرغ علينا صبراً، وتوفنا مسلمين﴾[5].

وهذا هو الصبر الذي أراده الحسين «عليه السلام» حينما كانت السيوف والرماح تأكل أصحابه، وأهل بيته، وهو يقول لهم: صبراً على الموت يا بني عمومتي[6].

نعم، إن الصبر هو تحمل الآلام والمتاعب في سبيل الوصول إلى الهدف الأسمى كما قلنا، تماماً كما فعل نوح وغيره من الأنبياء، ولا سيما نبينا الأعظم (ص).

والهدف الأسمى هو العبودية المطلقة لله تعالى، ورفض كل عبودية لسواه. وهو أمر صعب؛ لأنه لا ينسجم مع هوى النفس، التي تنفر من

---

(١) نهج البلاغة (بشرح عبده) ج ٣ ص ١٩١.

(٢) نهج البلاغة ج ٣ ص ١٥٥.

(٣) نهج البلاغة (بشرح عبده) ج ٣.

(٤) سورة البقرة: ٢٥٠.

(٥) سورة الأعرف: ١٢٦.

(٦) مقتل الحسين للمقرم ص ٣١٨ و ٣٢٢.

العبودية، وتميل إلى التحلل من كل القيود. ولذلك كان الصبر عن المعصية، والصبر على الطاعة، من عزم الأمور، يحتاج إلى جهد، وإلى تعب ومشقة، وقدرة على التحمل.

بل إن كل حق لا بقاء له بدون الصبر، وقد كان صبر الأنبياء والأوصياء من أهم أسباب بقاء الحق.

كما أن الصبر يدرّب الإنسان على التقوى، ويرفع من مستوى قدرته على قيادة نفسه، لأن الصبر لا يتحقق إلا بأن يقود هو نفسه، لا أن تقوده نفسه؛ وإذا استطاع أن يقود نفسه، وإذا كانت هي أقوى وأعتى من يواجه؛ فإن قدرته على أن يقوم بمهمة قيادة الآخرين، وهدايتهم إلى الصراط المستقيم، وإلى هدى رب العالمين، تكون أعظم وأشد، وأكثر فعالية؛ ولذا قال الصادق «عليه السلام»: الصبر صبران: صبر على البلاء حسن جميل، وأفضل منه الصبر على المحارم[1].

وقال أمير المؤمنين (ع): من ساس نفسه بالصبر على جهل الناس صلح أن يكون سائساً[2].

ومن الأمور الجديرة بالتسجيل بالنسبة للصبر في الحرب، قوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون. وأطيعوا الله ورسوله، ولا تنازعوا؛ فتفشلوا، وتذهب ريحكم، واصبروا إن الله مع الصابرين﴾**[3].

فإننا نجد أنه في حين هو يأمرهم بالثبات في الحرب، يأمرهم بأن يذكروا الله كثيراً، وذلك من أجل أن يبقوا محتفظين بالهدف الأسمى الذي

---

(١) البحار ط بيروت ج ٦٨ ص ٩٥.

(٢) شرح نهج البلاغة للمعتزلي ج ٢٠ ص ٣١٨.

(٣) الأنفال: ٤٥/ ٤٦.

يفترض فيهم السعي إليه، وأن يجعلوه نصب أعينهم، ولا يصرفهم الدفاع عن نفوسهم عن ذكر الله تعالى. وطبيعي: أن كثرة ذكر الله منهم سوف تذكّرهم بأن الله بيده كل شيء، وأنه هو الذي ينصرهم على عدوهم، وهو مصدر عزتهم وسعادتهم، فذكرهم لله سوف يقويهم على الثبات، ويدعوهم إلى طاعته، وطاعة رسوله، وأن لا يتنازعوا، وأن يصبروا؛ فذكر الله هو مفتاح النصر في جميع المجالات، ثم الوصول إلى الهدف الأقصى، وهو إقامة دين الحق، ونصر الله: ﴿إن تنصروا الله ينصركم﴾.

الفصل الرابع:

بعدما هبت الرياح



ما جرى على حمزة والشهداء :

قد تقدم بعض الكلام في كيفية استشهاد حمزة بن عبد المطلب رضوان الله تعالى عليه؛ وأن أبا سفيان كان يضرب شدق حمزة بزج الرمح، ثم طلب من رفيقه أن يستر عليه هذه الزلة. وعلقنا عليها بما سمح لنا به المجال.

بقي أن نشير هنا إلى أمور وممارسات أخرى ظهرت بالنسبة إلى الشهداء وهي التالية :

١ ـ إن هند زوجة أبي سفيان، قد أتت مصرع حمزة؛ فمثلت به، وجدعت أنفه، وقطعت أذنيه ومذاكيره، ثم جعلت ذلك كالسوار في يديها، وقلائد في عنقها، واستمرت كذلك حتى قدمت مكة.

وكذلك فعل النساء بسائر الشهداء الأبرار.

وزادت هي عليهم : أنها بقرت بطن حمزة، واستخرجت كبده فلاكتها، فلم تستطع أن تسيغها[1]. ويقال : إنها كانت قد نذرت ذلك[2].

---

(١) راجع ما تقدم في المغازي للواقدي ج ١ ص ٢٨٦ ، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٤٣ و ٢٤٤ ، تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٣٩ ، والسيرة النبوية لإبن هشام ج ٣ ص ٩٧، وتاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ٢٠٤ ، والمواهب اللدنية ج ١ ص ٩٧.

(٢) السيرة النبوية لإبن هشام ج ٣ ص ٩٧، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٤٣ .

فيقال: إن النبي (ص) لما بلغه إخراجها كبد حمزة قال: هل أكلت منه شيئاً؟

قالوا: لا.

قال: إن الله قد حرّم على النار أن تذوق من لحم حمزة شيئاً أبداً[١]، أو: ما كان الله ليدخل شيئاً من حمزة إلى النار[٢].

وليتأمل بعد فيما يقال حول إسلامها، وإيمانها، ثم الحكم لها بالجنة، كغيرها ممن هم على شاكلتها!!.

٢ ـ وأقبلت صفية لتنظر أخاها، فالتقت بعلي «عليه السلام»؛ فقال: إرجعي يا عمة؛ فإن في الناس تكشفاً، فسألته عن الرسول (ص)، فقال: صالح. قالت: أدللني عليه حتى أراه؛ فأشار إليه إشارة خفية من المشركين، ـ لعلهم كانوا لا يزالون قريبين من هناك، ويخشى كرّتهم فيما لو علموا: أن علياً بعيد عن النبي (ص) ـ فأقبلت إليه، فأمر (ص) الزبير بإرجاعها، حتى لا ترى ما بأخيها.

فقالت للزبير: ولم؟ وقد بلغني: أنه قد مثّل بأخي، وذلك في الله قليل؛ فما أرضانا بما كان من ذلك، لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله.

فسمح لها النبي (ص) برؤيته، فنظرت إليه، فصلت عليه، واسترجعت، واستغفرت له. كذا في الإكتفاء[٣].

---

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٤٤، وتفسير القرآن العظيم ج ١ ص ٤١٣ عن أحمد.

(٢) مسند الإمام أحمد ج ١ ص ٤٦٣، وتفسير القمي ج ١ ص ١١٧، ومجمع الزوائد ج ٦ ص ١١٠ عن أحمد، والبداية والنهاية ج ٤ ص ٤١، والبحار ج ٢٠ ص ٥٥ عن القمي..

(٣) راجع ما تقدم في: مغازي الواقدي ج ١ ص ٢٨٩، وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٤١ و٤٤٢، وحياة الصحابة ج ١ ص ٥٧٠/ ٥٧١، ومستدرك الحاكم ج ٣ ص ١٩٨ و١٩٩، وليراجع تاريخ الطبري ج ٢ ص ٢٠٨ و٢٠٧، والكامل لإبن =

ويقال: إن الأنصار هم الذين حالوا بينها وبين رسول الله (ص)[1].

٣ ـ وفي الصفوة: أنها جاءت بثوبين لتكفين حمزة، فإذا إلى جنبه أنصاري قتيل، قد مثّل به، فوجدوا غضاضة وحياء أن يكفنوا هذا، ويتركوا ذاك، فأقرعوا بين الثوبين؛ فأصاب الأنصاري أكبر الثوبين، فكفن حمزة بالآخر، فلف على قدمي حمزة ليف واذخر[2].

٤ ـ وكان لحمزة يوم قُتِلَ تسع وخمسون سنة، وصلى النبي (ص) عليه، وكبر سبع تكبيرات. ثم صاروا يأتون بالقتلى، ويضعونهم إلى جانبه، فيصلي عليه وعليهم حتى صلى عليه إثنتين وسبعين صلاة. كذا في الطيبي[3].

ولكننا نشك فيما ذكر عن مقدار عمره بملاحظة ما تقدم في حديث إرادة عبد المطلب ذبح ولده عبد الله، حين ولد له أولاده العشرة.

كما أننا نجد علياً «عليه السلام» يذكر: أنه (ص) قد خص حمزة بسبعين تكبيرة[4]. فلعله كبر عليه سبعين، ثم صلى عليه سبعين صلاة أخرى.

= الأثير ج ٢ ص ١٦١/ ١٦٢، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٤٧ و٢٤٨، والسيرة النبوية لإبن هشام ج ٣ ص ١٠١ و١٠٣، وحياة الصحابة ج ٢ ص ٦٥٠ و ٦٥١، ومجمع الزوائد ج ٦ ص ١١٩/ ١٢٠ عن البزار والطبراني، وكنز العمال ج ١٥ ص ٣٠٢.

(١) شرح النهج للمعتزلي ج ١٥ ص ١٧، ومغازي الواقدي ج ١ ص ٢٩٠، ومجمع الزوائد ج ٦ ص ١١٩ و ١٢٠.

(٢) راجع: تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٤١ و٤٤٢.

(٣) تاريخ الخميس ج ١ ص ٢٤٢.

(٤) نهج البلاغة بشرح عبده ج ٣ ص ٣٥.

٥ ـ قال ابن إسحاق: ومر رسول الله (ص) ـ حين رجع إلى المدينة ـ بدور من الأنصار؛ فسمع بكاء النوائح على قتلاهم، فذرفت عينا رسول الله (ص) ثم قال: لكن حمزة لا بواكي له.

فأمر سعد بن معاذ، ويقال: وأسيد بن حضير نساء بني عبد الأشهل: أن يذهبن ويبكين حمزة أولاً، ثم يبكين قتلاهن.

فلما سمع (ص) بكاءهن، وهن على باب مسجده أمرهن بالرجوع، ونهى (ص) حينئذ عن النوح، فبكرت إليه نساء الأنصار، وقلن: بلغنا يا رسول الله، أنك نهيت عن النوح، وإنما هو شيء نندب به موتانا، ونجد بعض الراحة؛ فأذن لنا فيه.

فقال: إن فعلتن فلا تلطمن، ولا تخمشن، ولا تحلقن شعراً، ولا تشققن جيباً[1] قالت أم سعد بن معاذ: فما بكت منا إمرأة قط إلا بدأت بحمزة إلى يومنا هذا.

٦ ـ ولما أراد معاوية أن يجري عينه التي بأحد، كتب إلى عامله بالمدينة بذلك، فكتبوا إليه: إنّا لا نستطيع أن نخرجها إلا على قبور الشهداء.

فكتب: أنبشوهم.

---

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٥٤، وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٤٤ عن المنتقى، وليراجع كامل ابن الأثير ج ٢ ص ١٦٧، وتاريخ الطبري ج ٢ ص ٢١٠، وليراجع: العقد الفريد، والبداية والنهاية ج ٤ ص ٤٨، ومسند أحمد ج ٢ ص ٤٠ و٨٤ و٩٢، والإستيعاب ترجمة حمزة. ومسند أبي يعلى ج ٦ ص ٢٧٢ و٢٩٣/ ٢٩٤، وفي هامشه عن المصادر التالية: مجمع الزوائد ج ٦ ص ١٢٠، وعن الطبقات الكبرى ج ٣ قسم ١ ص ١٠، وعن سنن ابن ماجة ج ٣ ص ٩٥ في السيرة وفي الجنائز الحديث رقم ١٥٩١، ومستدرك الحاكم ج ٣ ص ١٩٥، وعن سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٩٥ و٩٩.

قال جابر: فلقد رأيتهم يحملون على أعناق الرجال، كأنهم قوم نيام. وأصابت المسحاة طرف رجل حمزة؛ فانبعثت دماً.

قال أبو سعيد: لا ينكر بعد هذا منكر أبداً(١).

٧ ـ ومرّ أبو سفيان بعد إسلامه بأحد، فقيل له: أي يوم لك هاهنا. فقال: والآن لو وجدت رجالاً(٢).

٨ ـ مر أبو سفيان في أيام عثمان بقبر حمزة، وضربه برجله، وقال: يا أبا عمارة، إن الأمر الذي اجتلدنا عليه بالسيف أمس في يد غلماننا اليوم يتلاعبون به(٣).

وكل ذلك يوضح حقيقة مايقال عن ايمان أبي سفيان، وولده معاوية، وزوجته هند!!!.

٩ ـ وأما عن شرب حمزة للخمر حين خروجه إلى أحد، فقد أثبتنا أنه كذب، فراجع ما تقدم حين الكلام حول تحريم الخمر حين الكلام عن زواج علي(ع).

---

(١) راجع تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٤٣ عن الصفوة والمنتقى، والمصنف ج ٣ ص ٥٤٧ وج ٥ ص ٢٧٧، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٥٠، وشرح النهج للمعتزلي ج ١٤ ص ٢٦٤، ومغازي الواقدي ج ١ ص ٢٦٧/ ٢٦٨، وطبقات ابن سعد ج ٣ ص ٥ قسم ١ وقسم ٢ ص ٧٨، وليراجع حياة الصحابة ج ٣ ص ٦٥٩ ـ ٦٦١، والبداية والنهاية ج ٤ ص ٤٣، ودلائل أبي نعيم ص ٤٩٩، وكنز العمال ج ١٠ ص ٢٧٠ وج ٨ ص ٢٧٠، وعن ابن سعد وراجع: فتح الباري ج ٣ ص ١٤٢، ووفاء الوفاء ج ٣ المجلد الثاني ص ٩٣٨ عن أحمد بسند صحيح، والدارمي كما في الأوجز ج ٤ ص ١٠٨، ودلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٢٩١.

(٢) ربيع الأبرار ج ١ ص ٥٥٩.

(٣) قاموس الرجال ج ١٠ ص ٨٩ وج ٥ ص ١١٦، والغدير ج ١٠ ص ٨٣ كلاهما عن شرح النهج للمعتزلي ج ٤ ص ٥١ ط قديم.

أما نحن فنشير إلى الأمور التالية:

ألف: موقف الرسول من المثلة بحمزة:

إنهم يقولون: إنه بعد أن وضعت الحرب أوزارها في واقعة أحد، سأل «صلى الله عليه وآله وسلّم» عن عمه حمزة بن عبد المطلب، فالتمسوه، فوجدوه على تلك الحالة المؤلمة، حيث كانت هند أم معاوية، وزوجة أبي سفيان قد مثلت به؛ فجدعت أنفه، وقطعت أذنيه، وبقرت بطنه، واستخرجت كبده، فلاكتها، ولم تستطع أن تسيغها، إلى غير ذلك من ممارسات وحشية تجاه تلك الجثة الطاهرة. تقدمت الإشارة إليها.

فجاء «صلى الله عليه وآله وسلّم»، فوقف عليه، فيقال: إنه «صلى الله عليه وآله» لما رآه في تلك الحالة قال: «لولا أن تحزن صفية، وتكون سنة من بعدي، لتركته حتى يكون في بطون السباع، وحواصل الطير[١]. أوقال: لسرّني أن أدعك حتى تحشر من أفواه شتى[٢]، ولئن أظهرني الله على قريش يوماً من الدهر في موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم»[٣].

والمسلمون أيضاً قالوا: «والله، لئن أظفرنا الله بهم يوماً من الدهر، لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب»[٤].

---

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٤٨، وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٤١، ومغازي الواقدي ج ١ ص ٢٨٩، ومجمع الزوائد ج ٦ ص ١١٩، ومستدرك الحاكم ج ٣ ص ١٩٦.

(٢) دلائل النبوة للبيهقي ط دار الكتب العلمية ج ٣ ص ٢٨٨.

(٣) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٤٦، وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٤١.

(٤) راجع: الدر المنثور ج ٤ ص ١٣٥، ودلائل النبوة للبيهقي ط دار الكتب العلمية، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٤٦، والسيرة النبوية لدحلان (بهامش الحلبية) ج ٢ ص ٥٣، والسيرة النبوية لإبن هشام ج ٣ ص ١٠١، والكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٦١، وسيرة ابن إسحاق ص ٣٣٥.

ويقال: إنه (ص) بكى وشهق، وقال: رحمة الله عليك، لقد كنت فعولاً للخير، وصولاً للرحم، أم والله لأمثلن بسبعين منهم مكانك. فنزل جبريل بقوله تعالى: ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين﴾. فعفا رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلّم» وصبر. وفي رواية، قال: أصبر، ونهى عن المثلة. وفي أخرى: كفر عن يمينه[1].

ونقول:

إن بكاءه (ص) على حمزة لا مانع منه، وأما ما سوى ذلك مما ذكر آنفاً؛ فنحن نشك في صحته.

ونعتقد أنه كقضية ممارسة عمل المثلة الشنيع المنسوب له (ص) زوراً وبهتاناً، قد وضع بهدف إظهار رسول الله (ص) كأحد الناس، الذين يتعاملون مع القضايا من موقع الإنفعال والعصبية للقبيلة والرحم، ولتبرّر بذلك جميع المخالفات التي ارتكبها ويرتكبها الحكام الظالمون.

---

(١) راجع: الدر المنثور ج ٤ ص ١٣٥ عن مصادر كثيرة وراجع: التفسير الكبير ج ٢٠ ص ١٤١، والجامع لأحكام القرآن ج ١٠ ص ٢٠١، وجامع البيان ج ١٤ ص ١٣١، وغرائب القرآن (بهامش جامع البيان) ج ١٤ ص ١٣٢، والتبيان ج ٦ ص ٤٤٠، ومجمع البيان ج ٦ ص ٣٩٣، ولباب التأويل للخازن، ومدارك التنزيل بهامشه ج ٣ ص ١٤٣، ودلائل النبوة للبيهقي ط دار الكتب العلمية ج ٣ ص ٣٨٨، ومجمع الزوائد ج ٦ ص ١١٩، ومستدرك الحاكم ج ٣ ص ١٩٧، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٤٦، والسيرة النبوية لدحلان بهامش الحلبية ج ٢ ص ٥٣، والمواهب اللدنية ج ١ ص ٩٧، والسيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ١٠٢، وتاريخ الأمم والملوك ط دار المعارف ج ٢ ص ٥٢٩، والكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٦١، وسيرة ابن إسحاق ص ٣٣٥، ومسند أحمد ج ٥ ص ١٣٥، وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٤١، والروايات بهذه المعاني تجدها في مختلف كتب الحديث والتاريخ التي تتعرض لغزوة أحد، ولا يكاد يخلو منها كتاب كلاً أو بعضاً، فراجع.

كما أن ذلك يُسقِط قول وفعل الرسول(ص) عن الاعتبار والحجية، فلا يبقى لما ورد عنه (ص) من ذم لمن يحبهم بعض الناس تأثير يذكر.

أما ما نستند إليه في حكمنا على هذه الأقاويل بالوضع والإختلاق، فهو الأمور التالية:

١ ـ إن ذلك لا ينسجم مع روحية وأخلاق وإنسانية النبي الأعظم «صلى الله عليه وآله وسلّم»، ولا ينسجم حتى مع روح التدبير للأمور العامة، من قبل أي إنسان حكيم، مدبر للأمور، ولا مع سياسة الأمم بالمعنى الصحيح والسليم للسياسة.

وذلك لأنه لا مبرر لإبقاء جثة شهيد في الصحراء، تصهرها أشعة الشمس، عرضة للوحوش والسباع والطير، ولا فائدة في إجراء كهذا.

إذ من الواضح: أن ذلك لا يعتبر انتقاماً من قريش، ولا أداء لحق ذلك الشهيد العظيم، إن لم يكن إساءة وإهانة له، بملاحظة أن إكرام الميت دفنه.

ثم، أوليست إنسانيته (ص) وأخلاقه الرفيعة هي التي أملت عليه حتى أن يغيّب جثث قتلى المشركين في قليب بدر؛ فكيف بالنسبة لهذا الشهيد العظيم، أسد الله وأسد رسوله؟!!

ويحاول البعض أن يدعي: أنه (ص) لم يكن يقصد مدلول هذا الكلام، وإنما هو يريد فقط أن يظهر مظلوميته ووحشية الطرف الآخر، أبي سفيان وأصحابه.

ولكنها محاولة فاشلة، فإننا نجلّ النبي الأعظم «صلى الله عليه وآله وسلّم» عن أمر كهذا، ولا يجوز نسبته إليه؛ لأن معناه إمكانية التشكيك في كثير من أقواله، ومواقفه، وأفعاله «صلى الله عليه وآله».

أضف إلى ذلك: أن ما جرى لحمزة «عليه السلام» قد جرى مثله

لغيره من الشهداء، وإن كان ما جرى لحمزة «عليه السلام» أفظع وأبشع. فلماذا اختص غضبه (ص) بما جرى لعمه وحسب؟!.

ثم إن المفروض بهذا النبي العظيم، هو أن يظهر الجلد والصبر لا الجزع والحزن، إلا بالنحو المعقول والمقبول، وإلا فما وجه اللوم لغيره ممن فقد الأهل والأحبة، إن تجاوز حدّه، وظهر منه ما لا ينبغي في مناسبات كهذه؟!

٢ ـ قولهم على لسانه (ص): إنه إن ظفر بقريش فسيمثـل بثلاثين. مرفوض أيضاً؛ إذ هذه جثث قتلى المشركين أمامه، وهي إثنان أو ثمانية وعشرون جثة، بل وأكثر من ذلك، كما يظهر من بعض النصوص، فلماذا لا يمثل بها، ويشفي غليل صدره منها؟!

ولِمَ لم يبادر المسلمون ـ بدورهم ـ إلى التمثيل بتلك الجثث التي تركها أصحابها وفروا خوفاً من أن يدال المسلمون منهم، كما فروا من قبل في بدر؟!

٣ ـ أما نزول الآية الكريمة ردّاً عليه «صلى الله عليه وآله وسلّم» وهي قوله تعالى: ﴿فإن عاقبتم؛ فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾[1].

فلا يصح أيضاً، لأن الآية مكية؛ لأن سورة النحل قد نزلت في مكة، وأحد قد كانت في السنة الثالثة من الهجرة[2].

والقول: بأن سورة النحل كلها قد نزلت في مكة إلا هذه الآيات إنما يستند إلى هذه الروايات بالذات، فلا حجة فيه.

إن قلت: قد تحدثت السورة عن المهاجرين، وهذا يناسب أن تكون

---

(١) سورة النحل الآية: ١٢٦.

(٢) راجع: السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٤٦ عن ابن كثير، والقول بأن الآية مدنية لا عبرة به لأنه يستند إلى هذه الرواية.

السورة قد نزلت بعد الهجرة.

فالجواب: أنه لم يثبت ان المقصود هو الهجرة الى المدينة فان الهجرة الى الحبشة كانت قد حصلت والمسلمون في مكة، فلعلها هي المقصودة.

والقول: بأن ذلك مما تكرر نزوله[1].

أولاً: يحتاج إلى إثبات.

وثانياً: يلزمه أن يكون النبي (ص) قد خالف الحكم الإلهي الثابت، فاحتاج الله إلى تذكيره بأن موقفه هذا مخالف لنص تلك الآية التي لديه!!.

وثالثاً: قد روي عن ابن عباس في قوله: **فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به** قال: هذا حين أمر الله نبيه أن يقاتل من قاتله؛ ثم ذكر أنها نسخت ببراءة[2].

وعن ابن زيد، قال: كانوا قد أُمِروا بالصفح عن المشركين، فأسلم رجال ذوو ممنعة، فقالوا: يا رسول الله لو أذن الله لانتصرنا من هؤلاء الكلاب؛ فنزلت هذه الآية، ثم نسخ ذلك؛ بالجهاد[3].

٤ ـ إن قولهم: إنه «صلى الله عليه وآله وسلّم» قد نهى في هذه المناسبة عن المثلة.

محل نظر؛ وذلك لما ورد عن سعيد، عن قتادة، عن أنس ـ فذكر حديث العرنيين ـ وفي آخره، قال: قال قتادة: وبلغنا أن النبي (ص) كان

---

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٤٦.

(٢) الدر المنثور ج ٤ ص ١٣٥ عن ابن جرير، وابن مردويه.

(٣) الدر المنثور ج ٤ ص ١٣٥ عن ابن جرير، وابن أبي حاتم.

بعد ذلك يحث على الصدقة، وينهى عن المثلة[١].

ويقول العسقلاني، عن ابن عقبة في المغازي: «وذكروا: أن النبي (ص) نهى بعد ذلك عن المثلة بالآية التي في سورة المائدة، وإلى هذا مال البخاري، وحكاه إمام الحرمين في النهاية عن الشافعي»[٢].

فكلام قتادة السابق صريح في أنه «صلى الله عليه وآله وسلّم» قد نهى عن المثلة بعد قضية العرنيين، وكانت بعد قصة أحد؛ لأنها كانت في حدود السنة السادسة[٣].

أضف إلى ذلك: ما ذكره سعيد بن جبير، الذي أضاف في قصة العرنيين قوله: «فما مثل رسول الله (ص) قبل ولا بعد، ونهى عن المثلة»[٤].

فمعنى ذلك هو أن رسول الله لم يمارس هذا الفعل الشنيع أصلاً، كما أنه قد نهى من كان بصدد ممارسته.

ونحن بدورنا لنا كلام في قصة العرنيين هذه، حيث إننا نرفض أن يكون «صلى الله عليه وآله وسلّم» قد مثّل بهم، ولا سيما بملاحظة ما قدمناه آنفاً، عن سعيد بن جبير.

وقد أنكر أبو زهرة ذلك أيضاً[٥].

---

(١) راجع: صحيح البخاري ط سنة ١٣٠٩ هـ. ج ٣ ص ٣١، ونصب الراية للزيلعي ج ٣ ص ١١٨ عن البخاري ومسلم وسنن البيهقي ج ٩ ص ٦٩، ونيل الأوطار ج ٧ ص ١٥١.

(٢) فتح الباري ج ١ ص ٢٩٤.

(٣) راجع: المصنف ج ٩ ص ٢٥٩، والبخاري، ومسلم، وغير ذلك.

(٤) الإعتبار في الناسخ والمنسوخ ص ٢٠٨ ـ ٢١١، وفتح الباري ج ٧ ص ٣٦٩.

(٥) أبو حنيفة لمحمد أبي زهرة ص ٢٥٠.

وكان علي بن حسين ينكر حديث أنس في أصحاب اللقاح: أخبرنا ابن أبي يحيى، عن جعفر، عن أبيه، عن علي بن حسين قال: لا والله، ما سمل رسول الله عيناً ولا زاد أهل اللقاح على قطع أيديهم وأرجلهم[١].

ولكن ما يهمنا هنا: هو أن ما ذكروه في قصة العرنيين يتنافى بشكل ظاهر مع كونه «صلى الله عليه وآله وسلّم» قد نهى عن المثلة في أحد.

ولو أغمضنا النظر عن ذلك؛ فإن ما نقلناه عن العسقلاني آنفاً يدل على أن نهيه «صلى الله عليه وآله وسلّم» عن المثلة، إنما كان في أواخر أيام حياته؛ لأن سورة المائدة قد كانت من أواخر ما نزل عليه «صلى الله عليه وآله».

نعم، يمكن أن يكون (ص) قد قطع أيدي وأرجل العرنيين من خلاف، لأنهم مفسدون في الأرض. وذلك هو الحكم الثابت لمن يكون كذلك. ثم زاد الرواة وأصحاب الأغراض على ذلك ما شاؤا.

٥ ـ إنهم يقولون: إن أبا قتادة جعل يريد التمثيل بقريش لما رأى من المثلة؛ فمنعه «صلى الله عليه وآله وسلّم»[٢].

وهذا هو المناسب لأخلاقه وسجاياه «صلى الله عليه وآله وسلّم». أما أبو قتادة فإنه ان صح ما نقل عنه يكون قد تصرف هنا بوحي من انفعاله وتأثره، الناجم عن ثورته النفسية بسبب ذلك المشهد المؤلم.

كما أننا نشك في ما جاء في ذيل هذه الرواية، الذي يذكر: أنه (ص) قد قرّض قريشاً في هذه المناسبة، حتى قال: إنه عسى إن طالت

---

(١) الأم ج ٤ ص ١٦٢.

(٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٤١، وراجع: مغازي الواقدي ج ١ ص ٢٩٠/ ٢٩١، وشرح النهج للمعتزلي ج ١٥ ص ١٧.

بأبي قتادة المدة أن يحقر أعماله مع أعمالهم[١]. فإننا نعتقد أن هذه التقريظات من تزيّد الرواة تزلفاً للحكام الأمويين ـ كما عودونا في مناسبات كثيرة ـ في مقابل علي «عليه السلام»، وأهل بيته، لفسح المجال أمام تنقصهم والطعن بهم. ويكفي أن نتذكر هنا موقف قريش من علي «عليه السلام» وأهل البيت؛ حيث نجده (ع) يصفها بأسوأ ما يمكن، بسبب موقفها السيء هذا.

يقول أمير المؤمنين«عليه السلام»: «فدع عنك قريشاً، وتركاضهم في الضلال، وتجوالهم في الشقاق، وجماحهم في التيه، فإنهم قد أجمعوا على حربي كإجماعهم على حرب رسول الله (ص) قبلي؛ فجزت قريشاً عني الجوازي؛ فقد قطعوا رحمي، وسلبوني سلطان ابن عمي»[٢].

هذا ولابد أن لا ننسى هنا: أنه (ص) قد قال لعلي (ع): حربك حربي، وسلمك سلمي[٣].

وقال علي «عليه السلام»: «اللهم إني أستعديك على قريش [ومن أعانهم]؛ فإنهم قد قطعوا رحمي، وأكفأوا إنائي، وأجمعوا على منازعتي

---

(١) راجع المصادر المتقدمة.

(٢) راجع: نهج البلاغة، شرح عبده، باب الرسائل رقم ٣٦، وباب الخطب رقم ٢١٢ و٣٢، وليراجع ص ١٦٧ وغير ذلك.

(٣) راجع: مناقب الإمام علي (ع) لإبن المغازلي ص ٥٠، وشرح النهج للمعتزلي ج ١٨ ص ٢٤، وينابيع المودة ص ٨٥ و ٧١، وكنز الفوائد ج ٢ص ١٧٩ ط دار الأضواء، والبحار ج ٣٧ ص ٧٢ وج ٤٠ ص٤٣ و١٧٧و ١٩٠ط مؤسسة الوفاء، وروضة الواعظين ج ١ ص ١١٣، وتلخيص الشافي ج ٢ ص ١٣٥، وراجع ميزان الإعتدال ج ٢ ص ٧٥، وراجع لسان الميزان ج ٢ ص ٤٨٣ ففيهما حديث معناه ذلك أيضاً، وأمالي الطوسي ج ١ ص ٣٧٤ وج ٢ ص ١٠٠، وأمالي الصدوق ص ٣٤٣، وراجع إحقاق الحق (الملحقات) للمرعشي النجفي ج ٦ ص ٤٤٠ وج ٤ ص ٢٥٨ وج ٧ ص ٢٩٦ وج ١٣ ص ٧٠ عن مصادر كثيرة.

حقاً كنت أولى به من غيري»[١].

وقال «عليه السلام»: «ما لي ولقريش، والله لقد قاتلتهم كافرين، ولأقاتلنهم مفتونين، وإني لصاحبهم بالأمس، كما أنا صاحبهم اليوم»[٢].

ولأبي الهيثم بن التيهان كلام جيد، حول موقف قريش من علي، من أراده فليراجعه[٣].

وفيه يحلل أبو الهيثم سر عداء قريش لأمير المؤمنين «عليه السلام»، وأنه إنما كان بسبب بغيها وحسدها له، وعدم قدرتها على اللحاق به. وقد ذكرنا شطراً كبيراً من النصوص الدالة على ذلك مع مصادرها، في مقال لنا بعنوان الغدير والمعارضون.

هذا كله.. عدا عما كان في صدور قريش من حقد على بني هاشم عموماً، وعلى الأنصار أيضاً. وقد مرّ في جزء سابق من هذا الكتاب في فصل سرايا وغزوات قبل بدر إلماحة عن موقف قريش من الأنصار فليراجع ذلك هناك.

وأخيراً نقول: ان هذه كانت حالة قريش بعد طول المدة، فكيف يحقر أبو قتادة أعماله مع أعمالها؟! وكيف يكون لها ذلك المقام المحمود عند الله تعالى؟!.

ما هو الصحيح في القضية:

ولعل **الصحيح** هنا هو قضية أبي قتادة المتقدمة، وإن كان قد تزيّد الرواة فيها تزلفاً للحكام، كما أشرنا.

يضاف إلى ذلك: ما رواه غير واحد عن أبي بن كعب (رض)، قال:

---

(١) و(٢) راجع: الهامش ما قبل الأخير.

(٣) الأوائل لأبي هلال العسكري ج ١ ص ٣١٦ و٣١٧.

لما كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة وستون رجلاً، ومن المهاجرين ستة، منهم حمزة. فمثّلوا بهم، فقالت الأنصار: لئن أصبنا منهم يوماً مثل هذا، لنربينّ عليهم.

فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله: ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به، ولئن صبرتم لهو خير للصابرن﴾ فقال رسول الله (ص): نصبر، ولا نعاقب، كفوا عن القوم إلا أربعة.

وحسب نص ابن كثير: عن عبد الله بن أحمد: فلما كان يوم الفتح، قال رجل: لا تعرف قريش بعد اليوم؛ فنادى مناد: إن رسول الله (ص) قد أمن الأسود والأبيض إلا فلاناً وفلاناً، ناساً سماهم، فأنزل الله إلخ[1].

وعن الشعبي، وابن جريج ما يقرب من هذا أيضاً باختصار[2].

وفي رواية: أن المسلمين لما رأوا المثلة بقتلاهم قالوا: لئن أنالنا الله منهم لنفعلن، ولنفعلن، فأنزل الله: وإن عاقبتم الآية، فقال رسول الله (ص): بل نصبر[3].

لكن ما تذكره هذه الروايات من أن الآية قد نزلت في هذه المناسبة محل نظر، وذلك لما قدمناه من كونها مكية، ويمكن أن يكون الرسول «صلى الله عليه وآله وسلّم» عاد فذكّرهم بالآية، مبالغة منه «صلى الله عليه وآله وسلّم» في زجرهم عن ذلك، فتوهّم الراوي: أن الآية قد نزلت في هذه المناسبة.

---

(١) الدر المنثور ج ٤ ص ١٣٥ عن: الترمذي، وحسّنه، وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند، والنسائي وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، وابن مردويه، والحاكم وصححه، والبيهقي في الدلائل، وتفسير ابن كثير ج ٢ ص ٥٩٢.

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٥٩٢.

(٣) الدر المنثور ج ٤ ص ١٣٥ عن ابن جرير، ومصنف ابن أبي شيبة، وراجع: البحار ج ٢٠ ص ٢١ عن مجمع البيان.

ب : هند، وكبد حمزة:

قد تقدم أنه (ص) لما بلغه محاولة هند أكل كبد حمزة فلم تستطع أن تسيغها، قال: ما كان الله ليدخل شيئاً من حمزة النار، أو نحو ذلك.

قاال الحلبي: «أي ولو أكلت منه، أي استقر في جوفها لم تمسها النار»[1].

وهو تفسير غريب وعجيب حقاً!! فإن ظاهر كلامه (ص): أن هنداً من أهل النار، وقد أبى الله أن يدخل شيئاً من حمزة النار.

ولو صح تفسير الحلبي مع حكمهم بأن هنداً قد أسلمت وستدخل الجنة، لكان اللازم أن تسيغ ما أكلته من كبده، ويستقر في جوفها، لأن هنداً ستدخل الجنة!! فلتكن تلك القطعة معها، لتدخل الجنة كذلك!!. نعم وهذا ما يرمي إليه الحلبي، فإن له كلاماً طويلاً في المقام يدخل فيه هنداً الجنة. وقد دفعه هواه إلى تفسير كلام النبي (ص) بصورة جعلته يصبح بلا معنى ولا مدلول.

ج : المنع من البكاء على الميت:

لقد بكى النبي (ص) على حمزة، وقال: أما حمزة فلا بواكي له. وبعد ذلك بكى على جعفر، وقال: على مثل جعفر فلتبك البواكي. وبكى على ولده إبراهيم، وقال: تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضي الرب. وبكى كذلك على عثمان بن مظعون، وسعد بن معاذ، وزيد بن حارثة، وبكى الصحابة، وبكى جابر على أبيه، وبشير بن عفراء على أبيه أيضاً، إلى غير ذلك مما هو كثير في الحديث والتأريخ[2].

---

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٤٤.

(٢) راجع: النص والإجتهاد ص ٢٣٠ ـ ٢٣٤، والغدير ج ٦ ص ١٥٩ ـ ١٦٧، =

فكل ذلك فضلاً عن أنه يدل على عدم المنع من البكاء، فإنه يدل على مطلوبية البكاء، وعلى رغبته (ص) في صدوره منهم.

ولكننا نجد في المقابل: أن عمر بن الخطاب يمنع من البكاء على الميت ويضرب عليه؛ ويفعل ما شاءت له قريحته في سبيل المنع عنه، ويروي حديثاً عن النبي (ص) مفاده: إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه[1].

مع أننا نجد أنه هو نفسه قد أمر بالبكاء على خالد بن الوليد[2].

وقد بكت عائشة على إبراهيم[3] وبكى أبو هريرة على عثمان،

= ودلائل الصدق ج ٣ قسم ١ ص ١٣٤/ ١٣٦ عن عشرات المصادر الموثوقة، والإستيعاب (بهامش الإصابة) ترجمة جعفر ج ١ ص ٢١١، ومنحة المعبود ج ١ ص ١٥٩، وكشف الأستار ج ١ ص ٣٨١ و٣٨٣ و٣٨٢، والإصابة ج ٢ ص ٤٦٤، والمجروحون ج ٢ ص ٩٢، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٨٩ وراجع ص ٢٥١، ووفاء الوفاء ج ٣ ص ٨٩٤ و ٨٩٥ وراجع ص ٩٣٢ و٩٣٣، وحياة الصحابة ج ١ ص ٥٧١، وطبقات ابن سعد ج ٣ ص ٣٩٦ وج ٢ ص ٣١٣.

(١) راجع المصادر المتقدمة والغدير وغيره عن عشرات المصادر الموثوقة، وكذا منحة المعبود ج١ ص ١٥٨، وفي ذكر أخبار أصبهان ج١ ص ٦١ عن أبي موسى، والطبقات لابن سعد ج٣ ص ٢٠٩ و٣٤٦ و٣٦٢.

وراجع: تأويل مختلف الحديث ص ٢٤٥.

(٢) التراتيب الإدارية ج ٢ ص ٣٧٥، والإصابة ج ١ ص ٤١٥، وصفة الصفوة ج ١ ص ٦٥٥، وأسد الغابة ج ٢ ص ٩٦، وحياة الصحابة ج ١ ص ٤٦٥ عن الإصابة، والمصنف ج ٣ ص ٥٥٩، وفي هامشه عن البخاري وابن سعد وابن أبي شيبة، وتاريخ الخميس ج ٢ ص ٢٤٧، وفتح الباري ج ٧ ص ٧٩، والفائق ج ٤ ص ١٩، وربيع الأبرار ج ٣ ص ٣٣٠، وراجع: تاريخ الخلفاء ص ٨٨، وراجع: لسان العرب ج ٨ ص ٣٦٣.

(٣) منحة المعبود ج ١ ص ١٥٩.

والحجاج على ولده[١] وبكى صهيب على عمر[٢] وهم يحتجون بما يفعله هؤلاء.

وبكى عمر نفسه على النعمان بن مقرن، وعلى غيره[٣] وقد نهاه النبي (ص) عن التعرض للذين يبكون موتاهم[٤].

كما أن عائشة قد أنكرت عليه وعلى ولده عبد الله هذا الحديث الذي تمسك به، ونسبته إلى النسيان، وقالت:

«يرحم الله عمر، والله، ما حدث رسول الله: إن الله ليعذب المؤمن ببكاء أهله عليه، لكن رسول الله (ص) قال: إن الله ليزيد الكافر عذاباً ببكاء أهله عليه. قالت: حسبكم القرآن: ولا تزر وازرة وزر أخرى»[٥].

(١) راجع: طبقات ابن سعد ج ٣ ط صادر ص ٨١، وفي الثاني ربيع الأبرار ج ٢ ص ٥٨٦.

(٢) طبقات ابن سعد ج ٣ ص ٣٦٢، ومنحة المعبود ج ١ ص ١٥٩.

(٣) الغدير ج ١ ص ١٦٤ و ٥٤ و ١٥٥، عن الإستيعاب ترجمة النعمان بن مقرن والرياض النضرة المجلد الثاني جزء ٢ ص ٣٢٨ و ٣٢٩ حول بكاء عمر على إبن ذلك الأعرابي حتى بل لحيته.

(٤) راجع الغدير عن المصادر التالية: مسند أحمد ج ١ ص ٢٣٧ و ٢٣٥ وج ٢ ص ٣٣٣ و ٤٠٨، ومستدرك الحاكم ج ٣ ص ١٩٠ و ٣٨١، وصححه هو والذهبي في تلخيصه، ومجمع الزوائد ج ٣ ص ١٧، والإستيعاب ترجمة عثمان بن مظعون، ومسند الطيالسي ص ٣٥١، وسنن البيهقي ج ٤ ص ٧٠، وعمدة القاري ج ٤ ص ٨٧ عن النسائي، وابن ماجة، وسنن ابن ماجة ج ١ ص ٤٨١، وكنز العمال ج ١ ص ١١٧، وأنساب الأشراف ج ١ ص ١٥٧، وطبقات ابن سعد ج ٣ ص ٣٩٩ و ٤٢٩، ومنحة المعبود ج ١ ص ١٥٩.

(٥) راجع صحيح البخاري ج ١ ص ١٤٦ ط سنة ١٠٣٩، ومستدرك الحاكم ج ٣ ص ٣٨١، واختلاف الحديث للشافعي هامش الأم ج ٧ ص ٢٦٦، وجامع بيان العلم ج ٢ ص ١٠٥، ومنحة المعبود ج ١ ص ١٥٨، وطبقات ابن سعد ج ٣ ص ٣٤٦، ومختصر المزني هامش الأم ج ١ ص ١٨٧، والغدير ج ٦ ص ١٦٣ عمن =

وفي نص آخر، إنها قالت: «إنما مرّ رسول الله (ص) على يهودية يبكي عليها أهلها، فقال: إنهم يبكون عليها وإنها لتعذب في قبرها»[١].

وأنكر ذلك أيضاً: ابن عباس، وأئمة أهل البيت «عليهم السلام»، ومن أراد المزيد، فعليه بمراجعة المصادر[٢].

السياسة وما أدراك ما السياسة:

ونشير هنا إلى ما قاله الإمام شرف الدين رحمه الله تعالى قال: «وهنا نلفت أولي الألباب إلى البحث عن السبب في تنحي الزهراء عن البلد في نياحتها على أبيها (ص)، وخروجها بولديها في لمة من نسائها إلى البقيع يندبن رسول الله، في ظل أراكة كانت هناك، فلما قُطعت بنى لها علي بيتاً في البقيع كانت تأوي إليه للنياحة، يُدعى: بيت الأحزان. وكان هذا البيت يزار في كل خلف من هذه الأمة»[٣].

وأقول: إن من القريب جداً: أن يكون حديث: «إن الميت ليعذب ببكاء الحي» قد حُرّف عن حديث «البكاء على اليهودية المتقدم»؛ لدوافع سياسية لا تخفى؛ فإن السلطة كانت تهتم بمنع فاطمة «عليها السلام» من البكاء على أبيها.

فيظهر: أن هذا المنع قد استمر إلى حين استقر الأمر لصالح الهيئة

= تقدم، وعن صحيح مسلم ج ١ ص ٣٤٢ و ٣٤٤ و٣٤٣، ومسند أحمد ج ١ ص ٤١، وسنن النسائي ج ٤ ص ١٧ و١٨، وسنن البيهقي ج ٤ ص ٧٣ و٧٢، وسنن أبي داود ج ٢ ص ٥٩، وموطأ مالك ج ١ ص ٩٦.

(١) صحيح البخاري ج ١ ص ١٤٧.

(٢) راجع الغدير، ودلائل الصدق، والنص والإجتهاد، وغير ذلك.

(٣) النص والإجتهاد ص ٢٣٤.

الحاكمة، ولذلك لم يعتن عمر بغضب عائشة، ومنعها إياه من دخول بيتها حين وفاة أبي بكر، فضرب أم فروة أخت أبي بكر بدرته، وقد فعل هذا رغم أن البكاء والنوح كان على صديقه أبي بكر، وكان هجومه على بيت عائشة، وكان ضربه لأخت أبي بكر. وهو الذي كان يهتم بعائشة ويحترمها، وهي المعززة المكرمة عنده، ويقدر أبا بكر ومن يلوذ به، ويحترم بيته بما لا مزيد عليه.

نعم لقد فعل كلّ هذا لأن الناس لم ينسوا بعد منع السلطة لفاطمة (ع) من النوح والبكاء على أبيها. وناهيك بهذا الإجراء جفاء وقسوة: أن يُمْنَعَ الإنسان من البكاء على أبيه، فكيف إذا كان هذا الأب هو النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله وسلّم» أعظم، وأكمل، وأفضل إنسان على وجه الأرض.

ثم لما ارتفع المانع، ومضت مدة طويلة، وسنين عديدة على وفاة سيدة النساء(ع)، ونسي الناس أو كادوا، أو بالأحرى ما عادوا يهتمون بهذا الأمر، إرتفع هذا المنع على يد عمر نفسه، وبكى على النعمان بن مقرن الذي توفي سنة ٢١ هـ وعلى شيخ آخر، وسمح بالبكاء على خالد بن الوليد، الذي توفي سنة ٢١ أو ٢٢ حسبما تقدم.

وهذا غير ما تقدم قبل صفحات عن مصادر كثيرة: من النهي عن خمش الوجوه، وشق الثياب، واللطم، والنوح بالباطل. فإنه غير البكاء وهياج العواطف الإنسانية الطبيعية. وذلك لأن الأول ينافي التواضع لله عز وجل والتسليم لقضائه؛ أما الثاني فهو من مقتضيات الجبلة الإنسانية، ودليل اعتدال سجية الإنسان. وشتان ما بينهما.

التوراة، والمنع من البكاء على الميت :

ويبدو لنا أن المنع من البكاء على الميت مأخوذ من أهل الكتاب؛

فإن عمر كان يحاول هـذا المنع في زمن النبي (ص) بالذات؛ ولم يـرتدع بـردع النبي له إلا ظـاهراً. فلمـا توفي (ص) ولم يبق مـا يحـذر منـه، صار المـوقف السياسي يتـطلب الرجـوع إلى ما عنـد أهل الكتـاب، فكان منـع الزهراء عن ذلـك، كما قدمنا.

وقد جاء هذا موافقاً للهوى والدافع الـديني والسياسي على حـد سواء.

وممـا يدل على أن ذلـك مأخـوذ من أهل الكتـاب: أنه قـد جاء في التوراة:

«يا ابن، ها أنذا آخذ عنك شهوة عينيك بضربة؛ فلا تنح ولا تبك، ولا تنزل دموعك، تنهّد ساكتاً، لا تعمل مناحة على أموات»[1].

د: حزن النبي (ص) على حمزة:

١ ـ إن من الثـابت حسبمـا تقـدم، أن النبي (ص) قـد حـزن على حمزة، وبكى عليه، وأحب أن يكون ثمة بواكي له، كما لغيره. وواضـح: أن حـزن الرسـول هذا، ورغبتـه تلك ليسا إلا من أجـل تعريف أصحـابه، والأمة أيضاً بما كان لحمزة من خدمات جلّى لهذا الدين، ومن قدم ثابتة له فيه، وبأثره الكبير في إعلاء كلمة الله تعالى. ويدلنا على ذلك أنه (ص) قد وصفه ـ كما يروى ـ بأنه كان فعولاً للخيرات، وصولاً للرحم إلخ[2].

ولأن حزنه (ص) عليه كان في الحقيقة حزناً على ما أصاب الإسلام

---

(١) حزقيال. الإصحاح ٢٤ الفقرة ١٦ ـ ١٨.

(٢) راجع: المواهب اللدنية ج ١ ص ٩٧، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٤٦، والسيرة النبوية لدحلان، بهامش الحلبية ج ٢ ص ٥٣، والإصابة ج ١ ص ٣٥٤، وأسد الغابة ج ٢ ص ٤٨، والدر المنثور ج ٤ ص ١٣٥، ودلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٢٨٨ ط دار الكتب العلمية، ومجمع الزوائد ج ٦ ص ١١٩، ومستدرك الحاكم ج ٣ ص ١٩٧.

بفقده، وهو المجاهد الفذ، الذي لم يكن يدخر وسعاً في الدفاع عن هذا الدين، وإعلاء كلمة الله.

وما ذلك إلا لأن النبي الأعظم «صلى الله عليه وآله وسلّم» لم يكن ليهتم بالبكاء على حمزة، ولا ليبكي هو (ص) عليه لمجرد دوافع عاطفية شخصية، أو لعلاقة رحمية ونسبية، وإنما هو (ص) يحب في الله وفي الله فقط، تماماً كما كان يبغض في الله، وفي الله فقط.

فهو (ص) يحزن على حمزة بمقدار ما كان حمزة مرتبطاً بالله تعالى، وخسارته خسارة للإسلام. وإلا فكما كان حمزة عمه، فقد كان أبو لهب عمه أيضاً، وعداوة أبي لهب للرسول لا تدانيها عداوة، فقد كان أبو لهب من أشد الناس عداوة للنبي (ص)، وأعظمهم إيذاء له. وموقفه (ص) من أبي لهب معروف ومشهور.

ولكننا نجد في المقابل موقفه (ص) من «سلمان» الذي كان (ص) يحب أن يقال له: «سلمان المحمدي» بدلاً من: «الفارسي»[1]. وقد قال (ص) في حقه: «سلمان منا أهل البيت»[2]. قال أبو فراس الحمداني:

(١) راجع: البحار ج ٢٢ ص ٣٢٧ و ٣٤٩، وسفينة البحار ج ١ ص ٦٤٦، وقاموس الرجال ج ٤ ص ٤١٥.

(٢) مستدرك الحاكم ج ٣ ص ٥٩٨، وتهذيب تاريخ دمشق ج ٦ ص ٢٠٠ و ٢٠٤، وذكر أخبار أصفهان ج ١ ص ٥٤، والإختصاص ص ٣٤١، وبصائر الدرجات ص ١٧، والبحار ج ٢٢ ص ٣٢٦ و ٣٣٠ و ٣٣١ و ٣٤٨ و ٣٤٩ و ٣٧٤، وسفينة البحار ج ١ ص ٦٤٦ و ٦٤٧، والطبقات لإبن سعد ج ١ ص ٥٩، وأسد الغابة ج ٢ ص ٣٣١، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٣، والسيرة النبوية لدحلان (بهامش الحلبية) ج ٢ ص ١٠٢، وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٢، ومناقب آل أبي طالب ج ١ ص ٥١، وتاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ٥٦٨ ط دار المعارف، والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٤٦، والسيرة النبوية لإبن هشام ج ٣ ص ٢٣٥، وقاموس الرجال ج ٤ ص ٤١٥ و ٤٢٤، ونفس الرحمان ص ٣٤/ ٣٥ و ٢٩ و ٤٣ عن مجمع البيان، والدرجات الرفيعة ص ٢١٨.

كانت مودة سلمان لهم رحماً ولم يكن بين نوح وابنه رحم

٢ ـ كما أن نفس كونه (ص) شريكاً في المصيبة، من شأنه أن يخفف المصاب على الآخرين، الذين فقدوا أحباءهم في أحد، ولا سيما إذا كان مصابه (ص) بمن هو مثل حمزة أسد الله وأسد رسوله. حمزة الذي لم يكن ليخفى على أحد موقعه في المسلمين ونكايته في المشركين، ولم يكن ما فعلته هند وأبو سفيان بجثته الشريفة، وأيضاً موقف أبي سفيان من قبره الشريف في خلافة عثمان؛ ثم ما فعله معاوية في قبره وقبور الشهداء، بعد عشرات السنين من ذلك التاريخ ـ لم يكن كل ذلك ـ إلا دليلاً قاطعاً على ذلك الأثر البعيد، الذي تركه حمزة في إذلال المشركين، وإعلاء كلمة الحق والدين. حتى إن أبا سفيان وولده معاوية لم يستطيعا أن ينسيا له ذلك الأثر، وبقي ـ حتى قبره ـ الذي كان يتحداهم بأنفة وشموخ، كالشجا المعترض في حلقي الأب والإبن على حد سواء.

لقد استطاع حمزة أن يحقق أهدافه حتى وهو يستشهد، لأن شهادته جزء من هدفه كما قلنا. أما أعداء الإسلام فقد باؤا بالفشل الذريع، والخيبة القاتلة، وانتهى بهم الأمر إلى أن يكونوا طلقاء هذه الأمة، وزعماء منافقيها، المشهور نفاقهم، والمعروف كفرهم.

هـ : موقف أبي سفيان من قبر حمزة:

وإن موقف أبي سفيان من قبر حمزة، ليعتبر دليلاً واضحاً على كفره، وأنه لا يزال يعتبر حربه مع النبي (ص) حرباً على الملك والسلطان، والمكاسب الدنيوية.

وقد دخل أبو سفيان على عثمان، فقال له: قد صارت إليك بعد تيم وعدي، فأدرها كالكرة، واجعل أوتادها بني أمية، فإنما هو الملك، ولا أدري ما جنة ولا نار[1].

---

(١) الإستيعاب هامش الإصابة ج ٤ ص ٨٧، والكنى والألقاب ج ١ ص ٨٦، =

وكان أبو سفيان كهفاً للمنافقين، وكان يوم اليرموك يفرح إذا انتصر الكفار على المسلمين، ويحزن حين يرى كرّة المسلمين عليهم[1].

وكفريات أبي سفيان معروفة ومشهورة، ولا مجال لإستقصائها، فمن أرادها فليراجع مظانها[2].

و: مواساة الأنصار للنبي (ص):

وإن مواساة الأنصار للنبي (ص) حتى في البكاء على حمزة، لهي في الحقيقة من أروع المواساة للنبي الأعظم «صلى الله عليه وآله وسلّم» فهم يواسونه بأموالهم وأنفسهم، وحتى في عواطفهم الصادقة، ومشاعرهم النبيلة:

وقد استمروا على صدقهم، ووفائهم، وإخلاصهم له ولرسالته، ولوصيه علي «عليه السلام»، وأهل بيته «عليهم السلام» إلى آخر لحظة، ولذلك نكبهم الأمويون، والحكام بعد النبي (ص)، وأذلوهم، وحرموهم، كما تقدمت الإشارة إليه.

ز: صبر صفية:

وإن صبر صفية، واعتبارها: أن ما جرى لحمزة قليل في ذات الله تعالى، إنما هو نتيجة للوعي الرسالي الرائد للإسلام، الذي لا يمكن اعتباره محدوداً ومقوقعاً ضمن طقوس وحركات، أو جذبات صوفية

= وقاموس الرجال ج ١٠ ترجمة أبي سفيان وج ٥ ص ١١٦/ ١١٧، والغدير ج ٨ ص ٢٧٨ عن الإستيعاب، وتاريخ الأمم والملوك ط دار المعارف ج ١٠ ص ٥٨، ومروج الذهب ج ٢ ص ٣٤٣.

(١) النزاع والتخاصم للمقريزي ص ١٨.

(٢) راجع: الغدير، ولا سيما ج ٨ ص ٢٧٨/ ٢٧٩ وج ١٠ ص ٧٩ - ٨٤ لمعرفة رأي علي في معاوية، وفي أبيه، وقاموس الرجال ترجمة أبي سفيان، والإستيعاب وغير ذلك.

ونحوها. فالإسلام حياة. ولا يطلب فيه الموت والشهادة إلا من أجل هـذه الحياة.

والإسلام هو السلام حتى في حال الحرب، وهو الحياة فيما يـراه النـاس الموت، والـراحة في مـا يراه النـاس التعب، والسعادة في مـا يراه النـاس الشقاء والآلام. إنـه سلام شـامل وكـامل؛ فـإذا بلغ الإنسـان هـذا السلام الشامل، فهو المسلم الحق. وهكذا كانت صفية رضوان الله تعالى عليها، حتى أصبح مـا جرى لأخيهـا قليلاً في ذات الله، وصـار سلامـاً لها وعليها.

التعصيب:

ولما قتل حمـزة رضوان الله عليـه، بعث النبي (ص) علياً (ع) فـأتاه ببنت حمزة؛ فسوغها (ص) الميراث كله[1].

وهذا يدل على أنه لا ميراث للعصبة على تقدير زيادة الفـريضة عن السهـام إلا مع عـدم القـريب، فيـرد بـاقي المـال على البنت، والبنـات، والأخت والأخـوات، وعلى الأم، وعلى كـلالـة الأم، مـع عـدم وارث في درجتهم، وعلى هذا إجماع أهل البيت (ع)، واخبارهم به متواترة.

ويدل على ذلك أيضـاً قولـه تعالى: **﴿وأولـوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتـاب الله﴾** فعن الإمام البـاقر (ع) في هـذه الآيـة: «إن بعضهم أولى بالميراث من بعض؛ لأن أقربهم إليه رحماً أولى به. ثم قال أبو جعفر (ع): أيهم أولى بـالميت، وأقربهم إليـه؟ أمه، أو أخـوه؟ أليس الأم أقرب إلى الميت من إخوته وأخواته؟!»[2].

وللتوسع في هذا البحث مجال آخر.

---

(١) التهذيب ج ٦ ص ٣١١، والوسائل ج ١٧ ص ٤٣٢.

(٢) الوسائل ج ١٧ ص ٤٣٤.

الاختصام في ابنة حمزة :

ويقولون: إن علياً وجعفراً ابني أبي طالب، وزيد بن حارثة، إختصموا في ابنة حمزة، فقال (ص) لكل واحد منهما ما أرضاه[1].

ونحن نشك في الحديث من أصله، لأن جعفراً كان في واقعة أحد في الحبشة، وقد جاء إلى المدينة في سنة ست من الهجرة.

ودعوى أن الإختصام قد حصل بعد رجوعه تطرح أمامنا سؤالاً عن السبب في سكوت زيد بن حارثة عن المطالبة ببنت حمزة كل هذه المدة.

الصلاة على الشهداء وتغسيلهم، ودفنهم:

لقد روى بعضهم: أن النبي (ص) لم يصلّ على شهداء «أحد». وبه أخذ الأئمة الشافعية.

ولكن ذلك غير صحيح؛ فقد صرحت الروايات الكثيرة: بأنه (ص) قد صلّى عليهم. وروي ذلك عن بعض أئمة الحديث، وبه أخذ الأئمة الحنفية[2].

والصحيح: أنه (ص) قد صلّى عليهم، ولم يغسلهم، وهو الثابت عن أئمة أهل البيت «عليه السلام»، الذين هم سفينة نوح، وباب حطة. ولذا فلا يعبؤ بما رواه غيرهم؛ ولذا فنحن لا نطيل الكلام في ذلك. ولا سيما بعد أن قال «مغلطاي»: «. . وصلى على حمزة والشهداء من غير غسل. وهذا إجماع، إلا ما شذ به بعض التابعين. إلى أن قال: قال السهيلي: ولم يروَ عنه (ص): أنه صلى على شهيد في شيء من مغازيه

---

(١) التراتيب الإدارية ج٢ ص ١٤٩ وغير ذلك.

(٢) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٤٢، وليراجع أيضاً: السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٤٨/ ٢٤٩.

إلا في هذه. وفيه «نظر»؛ لما ذكره النسائي، من أنه صلّى على أعرابي في غزوة أخرى»[١].

وعن عدد التكبير عليهم، وعلى غيرهم، فقد تقدم في أول هذا الفصل: أن النبي (ص) قد كبر على حمزة سبعاً أوسبعين ـ كما هو الأصح ـ.

وأما ما يقال من أن عدد التكبيرات على الميت أربع، فقد أثبتنا بما لا يقبل الشك أنه لا يصح، وأن التكبير على الميت «خمس» لا أربع[٢].

وبالنسبة للغسل، فقد قال الديار بكري وغيره: «أجمع العلماء على أن شهداء أحد لم يغسلوا»[٣].

وتقدم أن حنظلة خرج وهو جنب، فأخبر (ص) أن الملائكة تغسله.

ويقال أيضاً: إن حمزة قد قتل جنباً؛ فرأى النبي (ص) الملائكة تغسله[٤].

ولكن هذا ينافي ما جاء في بعض النصوص من أنه قتل يوم أحد صائماً. والله هو العالم.

ومهما يكن من أمر؛ فإن الشهداء لم يغسلوا، وإخباره (ص) بتغسيل الملائكة لمن مات جنباً، بالإضافة إلى أنه إخبار عن واقع؛ فإنه أيضاً ليس لأجل موته بل هو لأجل جنابته؛ لرفع الحزازة التي ربما تحدث في نفس

---

(١) سيرة مغلطاي ص ٥٠/ ٥١.

(٢) راجع كتابنا: دراسات وبحوث في التاريخ والإسلام.

(٣) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٤٢، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٤٨، وتقدم ذلك عن مغلطاي أيضاً.

(٤) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٤٨، ومغازي الواقدي ج ١ ص ٣٠٩، وشرح النهج ج ١٥ ص ٣٧.

أهله، الذين يعرفون بأنه لم يغتسل من جنابته.

وأما بالنسبة للتكفين؛ فإن الشهيد يدفن في ثيابه، ولكن النبي (ص) قد كفن حمزة وحنّطه؛ لأنه كان قد جرّد، كما روي[1].

وأما عن دفنهم؛ فيقال: إنه قد احتمل ناس من المسلمين قتلاهم إلى المدينة، فدفنوهم بها، ثم نهى (ص) عن ذلك. وقال (ص): «ادفنوهم حيث صرعوا»[2].

ويقال: إنه (ص) قال: ادفنوا الإثنين والثلاثة في قبر واحد، وقدموا أكثرهم قرآناً[3].

لماذا تقديم الأقرأ؟

وتقديم أكثرهم قرآناً حتى في هذا المقام، له دلالة هامة هنا، فإن أكثرهم قرآناً يفترض به أن يكون هو الأكثر وعياً وبصيرة في أمره، ومن ثم يكون إخلاصه للقضية التي يقاتل من أجلها أشد، وارتباطه بها أعمق. وكلماكان العمل أكثر إخلاصاً لله، كلما كانت قيمته أعلى، وثمنه أغلى؛ لأنه يستمد قيمته هذه من مدى إتحاده بذلك الهدف، وفنائه فيه.

بل نجد أنه (ص) يتجاوز ذلك، إلى أنه (ص) أراد أن يبعث بعثا وهم ذوو عدد، فاستقرأهم؛ ليعرف ما معهم من القرآن؛ فوجد: : أن

---

(١) راجع: الدر المنثور للعاملي ج ١ ص ١٣٥ عن من لا يحضره الفقيه.

(٢) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٤٢ عن الإكتفاء، وابن إسحاق، وأحمد، والترمذي، وأبي داود، والنسائي، والدارمي، والكامل لإبن الأثير ج ٢ ص ١٦٢ / ١٦٣، وفي شرح النهج ج ٤ ص ٢٦٢ رواية ناقشها المعتزلي بما لا مجال له.

(٣) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٤٢ عن أحمد، والترمذي، وأبي داود، والنسائي، وشرح النهج ج ١٥ ص ٣٨، ومغازي الواقدي ج ١ ص ٣١٠، والثقات ج ١ ص ٣٣، ومجمع الزوائد ج ٦، والمصنف ج ٣ ص ٥٤١ وج ٥ ص ٢٧٢.

أحدثهم سناً أكثرهم قرآناً، فأمّره عليهم[1].

فهو (ص) يعطي بذلك نظرة الإسلام الصحيحة للعلم والمعرفة الذي يترك أثره الإيجابي حتى بالنسبة لما بعد الموت، وحتى بالنسبة لهؤلاء المتساوين من حيث بذل أغلى ما لديهم في سبيله، وإن لم يكونوا متساوين في درجات معرفتهم، وثقافتهم، ووعيهم.

ولقد رأينا أنه (ص) يقول ـ كما يروي لنا أبو سلمة ـ : إذا كان ثلاثة في سفر فليؤمهم أقرؤهم، وإن كان أصغرهم؛ فإذا أمهم فهو أميرهم[2].

وفي هذا دلالة واضحة على أن الملاك في التقديم هو المعرفة الخالصة، التي تؤهل الإنسان لأن يكون أكثر خشية لله: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾. وليس هو الجمال، أو الجاه، أو المال، أو النسب، أو غير ذلك؛ فإن ذلك قد رفضه الإسلام والقرآن رفضاً قاطعاً ونهائياً.

أنا شهيد على هؤلاء:

وكان طلحة بن عبيد الله، وابن عباس، وجابر بن عبد الله، يقولون: صلى رسول الله (ص) على قتلى أحد، وقال: «أنا شهيد على هؤلاء.

فقال أبو بكر: ألسنا إخوانهم، أسلمنا كما أسلموا، وجاهدنا كما جاهدوا؟

قال: بلى، ولكن هؤلاء لم يأكلوا من أجورهم شيئاً، ولا أدري ما تحدثون بعدي.

---

(١) حياة الصحابة ج ٢ ص ٥٤، والترغيب والترهيب ج ٢ ص ٣٥٢، وراجع: المصنف ج ٥ ص ١٦٥ ففيه ما يشير إلى ذلك.

(٢) المصنف للحافظ عبد الرزاق ج ٥ ص ١٦٥.

فبكى أبو بكر، وقال: إنا لكائنون بعدك؟»[١].

وهذا يدل على أن الرسول (ص) لم يكن مطمئناً لما ينتهي إليه أمر أصحابه بعده. ولم يكن يعتقد أن مجرد صحبتهم له تدخلهم الجنان، وتجعلهم معصومين، أو أنها تكون أماناً لهم من كل حساب وعقاب، عملوا ما عملوا، وفعلوا ما فعلوا؛ فإن ذلك خلاف ما قرره القرآن الذي يقول: **﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾**[٢] وقد بحثنا موضوع عدالة الصحابة في موضع آخر[٣].

وما ذكرناه هناك ما هو إلا رشحة من نهر، وقطرة من بحر. وإلا، فإن الأدلة على ما نقول من أن كل صحابي محاسب على ما عمل، وأن فيهم المؤمن، والمنافق، والعادل، والفاسق كثيرة جداً، لا مجال لحصرها.

عدد شهداء أحد:

وأما عن عدد الشهداء في أحد، فقد كانوا سبعين، من المهاجرين أربعة، والباقون من الأنصار[٤].

وقيل: أربعة وستون من الأنصار، وستة من المهاجرين، وجرح سبعـون. وهذا ما وعدهم به النبي (ص) في بدر حسبما تقدم.

وأما ما يقال: من أن عدتهم خمس وستون، فيهم أربعة من المهاجرين، أو أنهم ستة وتسعون. أو أنهم ثمانون: أربعة وسبعون من

---

(١) شرح النهج للمعتزلي ج ١٥ ص ٣٨، ومغازي الواقدي ج ١ ص ٣١٠، والمصنف ج ٣ ص ٥٤١، وليراجع ص ٥٧٥ وج ٥ ص ٢٧٣.

(٢) الزلزلة: ٧ و ٨

(٣) راجع الجزء الثاني من كتابنا: دراسات وبحوث في التاريخ والإسلام.

(٤) مغازي الواقدي ج ١ ص ٣٠٠، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٥٥، وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٤٦.

الأنصار، وستة من المهاجرين[١].

فليس بمسموع بعد أن أخبرهم النبي (ص) ـ كما هو المشهور ـ بأنه سيقتل من المسلمين بعدّة أسرى بدر إن قبلوا بالفداء.

وعدة أسرى بدر كانت سبعين كما يقولون[٢].

أما ما عن أنس، من أنه قُتِل من الأنصار في أحـد سبعون، وفي بئر معونة سبعون، ويوم اليمامة على عهد أبي بكر سبعون، رواه البخاري[٣].

فلا يمكن المساعدة عليه؛ لأن قتلى أحد كانوا سبعين من الأنصار والمهاجرين معاً، لا من الأنصار وحدهم. ولأنه سيأتي في سرية بئر معونة الإختلاف الشديد في عدد أفرادها، وهي تتـراوح ما بين العشرة إلى السبعين رجلاً[٤].

أكثر القتلى من الأنصار:

ويلاحظ هنا: أن أكثر القتلى كانوا من الأنصار، وقد جاء ذلك بصورة لا تتناسب مع عدد المشاركين منهم في الحرب إذا قورن بمن قتل من المهاجرين، إذا أضيف إلى عدد المشاركين منهم أيضاً. وقد أشرنا فيما تقدم إلى أن قريشاً ظلت تحقد على الأنصار، وعلى أهل البيت (ع) عشرات السنين والأعوام. وكان يهمها: أن تجزرهم جزراً، ولا يبقى منهم

---

(١) راجع هذه الأقوال في سيرة مغلطاي ص ٤٩/ ٥٠، وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٤٦، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٥٥، وغير ذلك كثير وليراجع شرح النهج ج ١٥ ص ٥١/ ٥٢.

(٢) مغازي الواقدي ج ١ ص ١٤٤.

(٣) تاريخ الخميس ج ١ ص ١٤٦ عن المشكاة.

(٤) راجع: الجزء الخامس من هذا الكتاب ص ٢٥٧ و٢٥٨.

نافخ نار.

ولربما نفهم: أن الأنصار كانوا أكثر إندفاعاً إلى الحرب، وأشد تصدياً لمخاطرها، لأنهم يدافعون عن وطنهم، وعن عقيدتهم معاً. وقد كان الإسلام فيهم أعرق وأعمق من كثير من المهاجرين، فلا يقاس بهم مسلموا الفتح، فإنهم إنما أسلموا خوفاً أو طمعاً؛ ولذا فقد كثُر فيهم المنافقون والمناوؤون لأهل البيت «عليهم السلام». ولعل كثيراً من المهاجرين كانوا مطمئنين إلى قبول قومهم لهم، كما يظهر مما تقدم.

كما أن بعض المشاركين في الحرب من هؤلاء وأولئك، لم يكن لديه دوافع عقيدية أيضاً، كما هو الحال بالنسبة لمن يقاتلون من أجل السلَب، والغنائم، وغير ذلك.

زيارة القبور:

ويذكرون: أن المسلمين كانوا يتبركون بقبر حمزة، ويستشفون بتربته، وقد صنعوا السبحة منها[1].

ويذكر الواقدي هنا: أن النبي (ص) كان يزور قبور شهداء أحد في كل حول، فإذا لقوه رفع صوته يقول: السلام عليكم بما صبرتم؛ فنعم عقبى الدار. وكان أبو بكر يفعل مثل ذلك، وكذلك عمر، ثم عثمان، ثم معاوية.

(ونقول:

كيف يذكر معاوية هنا، وهو الذي نبش قبور الشهداء من أجل العين التي أجراها؟!).

وكانت فاطمة تأتيهم بين اليومين والثلاثة؛ فتبكي عندهم، وتدعو.

---

(١) راجع: وفاء الوفاء ج ١ ص ٦٩ و ١١٦.

وكان (ص) يأمر بزيارتهم، والتسليم عليهم. وكذا كان يزورهم سعد بن أبي وقاص، وأبو سعيد الخدري كان يزور قبر حمزة، وأم سلمة أيضاً كانت تزورهم كل شهر؛ وقد أنّبت غلامها، لأنه لم يسلم عليهم. وكذا أبو هريرة، وابن عمر، وفاطمة الخزاعية(١).

وعن السجاد (ع): أن فاطمة (ع) كانت تزور قبر عمها حمزة في الأيام تصلي وتبكي عنده(٢).

وقد أمر النبي (ص) أيضاً بزيارة القبور. وشواهد هذا البحث كثيرة جداً لا تكاد تحصر، وقد أُلِّفت الكتب، ونُظِّمت البحوث في هذا الموضوع(٣). فليراجعها من أراد التوسع؛ فلا يصغى لمنع بعض الفرق من زيارة القبور، فإن ذلك لا يستند إلى أي دليل معقول أو مقبول.

عدد قتلى المشركين :

ويقال: إنه قد قتل من المشركين في معركة أحد ثمانية عشر رجلاً(٤). وقيل: إثنان، أو ثلاثة وعشرون(٥). وقيل: ثمانية وعشرون(٦).

---

(١) راجع: مغازي الواقدي ج ١ ص ٣١٣/ ٣١٤، وشرح النهج للمعتزلي ج ١٥ ص ٤٠.

(٢) المستدرك للحاكم ج ٣ ص ٢٨.

(٣) راجع: شفاء السقام للسبكي، والغدير ج ٥ من ص ١٦٦ حتى ص ٢٠٨، ومستدرك الحاكم ج ٣ ص ٢٨، ووفاء الوفاء ج ٣ ص ٨٣ فما بعدها و ٩٣١ ـ ٩٣٣، وتأويل مختلف الحديث ص ١٩٧، وغير ذلك.

(٤) مجمع البيان ج ٢ ص ٥٠٠، والبحار ج ٢٠ ص ٢٢ عنه.

(٥) سيرة مغلطاي ص ٥٠، وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٤٧، والسيرة الحلبية، وغير ذلك.

(٦) شرح النهج للمعتزلي ج ١٥ ص ٥٤.

وقيل: أكثر من ذلك. لأن حمزة قد قتل وحده منهم واحداً وثلاثين رجلاً كما يقولون[١].

أكثر القتلى من علـي (ع):

١ ـ ويروي البعض: أن أمير المؤمنين «عليه السلام» قد قتل في أحد إثني عشر رجلاً[٢].

٢ ـ ونعتقد أنه (ع) قد قتل أكثر من ذلك، لأنه قد قتل أصحاب اللواء بلا شك كما تقدم بيانه، وهم تسعة أو أحد عشر، كما أن المعتزلي يذكر: أن كتائب المشركين صارت تحمل على النبي (ص). وقد قتل من كتيبة بني كنانة أبناء سفيان بن عويف الأربعة. وتمام العشرة منها، ممن لا يعرف بأسمائهم. وقال: إن ذلك قد رواه جماعة من المحدثين، ويوجد في بعض نسخ ابن إسحاق، وأنه خبر صحيح فراجع كلامه[٣].

٣ ـ قال القوشجي: «وكان أكثر المقتولين منه»[٤] أي من أمير المؤمنين «عليه السلام».

٤ ـ وقال الشيخ المفيد رحمه الله تعالى: «وقد ذكر أهل السير قتلى أحد من المشركين، وكان جمهورهم قتلى أمير المؤمنين (ع)». ثم ذكر أسماء إثني عشر من الأبطال المعروفين ممن قتلهم «عليه السلام»[٥].

---

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٢٦ و ٢٥٥، والإصابة ج ١ ص ٣٥٤.

(٢) شرح النهج للمعتزلي ج ١٥ ص ٥٤.

(٣) شرح النهج للمعتزلي ج ١٤ ص ٢٥٠/ ٢٥١ وفي ج ١٥ ص ٥٤: أن في بعض كتب المدائني أن علياً قتل بني سفيان بن عوف، وروى له شعراً في ذلك، فراجع.

(٤) شرح التجريد للقوشجي ص ٤٨٦.

(٥) الإرشاد ص ٥٤، والبحار ج ٢٠ ص ٨٨/ ٨٩ عنه.

٥ ـ ولسوف يأتي: أن قريشاً قد عجلت بالمسير عن حمراء الأسد، حينما علمت أن علياً قادم عليها.

٦ ـ ويقول الحجاج بن علاط في وصف قتله «عليه السلام» لكبش الكتيبة، طلحة ابن أبي طلحة، وحملاته (ع) في أحد:

لله أي مذبب عن حزبه	أعني ابن فاطمة المعم المخولا
جادت يداك له بعاجل طعنة	تركت طليحة للجبين مجدلا
وشددت شدة باسل فكشفتهم	بالسفح إذ يهوون أسفل أسفلا
وعللت سيفك بالدماء ولم تكن	لترده حران حتى ينهلا[1]

ومما يدل على مدى ما فعله أمير المؤمنين (ع) بقريش في أحد: أن النص التأريخي يؤكد على أن قريشاً كانت ـ بعد ذلك ـ وإلى عشرات السنين تحقد على علي(ع)، وعلى أهل بيته لذلك. وقد ذكر النبي (ص) هذه الأحقاد لعلي «عليه السلام»[2] ثم ظهرت آثارها في المجازر التي ارتكبها الأمويون في كربلاء وغيرها. وقد صرحت الزهراء(ع) بأن ما جرى عليهم بعد وفاة النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»، قد كان بسبب الأحقاد البدرية والترات الأحدية[3].

أويس القرني في أحد:

ويقولون: إن أويس القرني قد حضر أحداً، وجرى عليه كل ما

(١) الإرشاد للمفيد ص ٥٤، والبحار ج ٢٠ ص ٩٠ عنه، وهامش ص ٥٠ عن الإمتاع.

(٢) راجع: البحار ج ٢٦ ص ٥٤ و٥٥، وراجع الطبعة الحجرية من البحار ج ٨ ص ١٥١.

(٣) راجع: المناقب لإبن شهرآشوب ج ٢ ص ٢٠٣ وفي ط آخرى ج ١ ص ٣٨١، والبحار ج ٤٣ ص ١٥٦.

جرى على النبي (ص) من كسر رباعيته، وشج وجهه، ووطىء ظهره!! ويدل على أنه قد وطىء ظهر النبي (ص) من قبل المشركين قول عمر: فلقد وطىء ظهرك، وأدمى وجهك[1].

والمراد بالوطء: الدوس بالأقدام.

ونحن لا نصدق ذلك أصلاً، لأنهم يقولون: إن أويساً لم ير النبي (ص) أصلاً، لأنه ـ كما يقولون ـ كان مشغولاً بخدمة أمه[2].

وروي عن النبي (ص)قوله: خير التابعين رجل يقال له: أويس بن عامر[3].

وفي مسند أحمد: نادى في صفين رجل شامي: أفيكم أويس القرني؟

قالوا: نعم. قال: سمعت رسول الله (ص) يقول: من خير التابعين أويس القرني[4].

فوصفه بالتابعي يشير إلى أنه لم يكن من الصحابة.

بل لقد كان الإمام مالك ينكر وجود أويس القرني من الأساس[5].

---

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٥٥/ ٢٥٦، والطبقات الكبرى للشعراني ج ١ ص ٢٧.

(٢) الطبقات الكبرى للشعراني ج ١ ص ٢٧، والإصابة ج ١ ص ١١٥، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٥٦، وراجع القصة في الزهد والرقائق قسم ما رواه نعيم بن حماد ص ٦٠.

(٣) الإصابة ج ١ ص ١١٥ عن مسلم، ولسان الميزان ج ١ ص ٤٧٢ و ٤٧٤ و ٤٧٥، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٥٦ بعدة ألفاظ، ومختصر تاريخ دمشق ج ٣ ص ١٦٢ و١٦٣، وراجع: تيسير الوصول ج ٢ ص ١٦٧.

(٤) الإصابه ج ١ ص ١١٦، ولسان الميزان ج ١ ص ٤٧٥ وراجع ص ٤٧٤، وتهذيب تاريخ دمشق ج ٣ ص ١٧٥، وراجع ص ١٦٢.

(٥) الإصابة ج ١ ص ١١٥، وراجع تهذيب تاريخ دمشق ج ٣ ص ١٦٢، وراجع =

ولكنه كلام لا يصح: فقد تواتر أنه شخصية حقيقية، وقد ذكر العلماء والمصنفون أخباره وفضائله في كتبهم ومنقولاتهم.

ولعل سبب إنكار وجوده ودعوى: أنه توفي في خلافة عمر[1] هو حضوره مع علي (ع) في صفين، واستشهاده معه[2].

ولعل أكذوبة: أن المشركين قد وطأوا ظهر النبي (ص) قد جاءت بهدف الحط من كرامته (ص)، أو إظهار خطورة الموقف، ليخف النقد الموجه للفارين عنه (ص).

مع أن ذلك آكد في ذمهم، وأشد في قبح ما صدر منهم.

صفية، واليهودي:

ويذكر البعض في غزوة أحد[3] قضية قتل صفية لليهودي، وعدم جرأة حسان على قتله،، ولا على سلبه.

ولكن الظاهر هو أن ذلك كان في غزوة الخندق، ولذا فنحن نرجىء الحديث عنه إلى هناك.

بعض الحِكَم في معركة أحد:

قال السمهودي: «قال العلماء: وكان في قصة أحد من الحكم والفوائد أشياء عظيمة:

منها: تعريف المسلمين سوء عاقبة المعصية، وشؤم ارتكاب

= ص ١٦٥ و ١٦٦ و١٧٢، ولسان الميزان ج ١ ص ٤٧٥.

(١) راجع تهذيب تاريخ دمشق ج ٣ ص ١٦٢ عن ابن سعد، وراجع ص ١٧٣ و ١٧٤.

(٢) راجع تهذيب تاريخ دمشق ج ٣ ص ١٧١، ولسان الميزان ج ١ ص ٤٧٤ و ٤٧٥.

(٣) مغازي الواقدي ج ١ ص ٢٨٨، وشرح النهج للمعتزلي ج ١٥ ص ١٦.

النهي، لما وقع من الرماة.

ومنها: أن عادة الرسل أن تُبْتَلى، وتكون لها العاقبة.

ومنها: إظهار أهل النفاق، حتى عرف المسلمون: أن لهم عدواً بين أظهرهم.

ومنها: تأخير النصر هضماً للنفس، وكسراً لشماختها[1]».

ثم ذكر كلاماً يُشْتَمُّ منه رائحة الجبر، وهو ما لا نوافقه عليه، ولذلك أهملناه.

من مشاهد العودة إلى المدينة:

١ ـ وعاد النبي (ص) والمسلمون إلى المدينة، واستقبلته أم سعد بن معاذ تعدو، فجاءت حتى نظرت في وجهه، وقالت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، هانت عليَّ كل مصيبة إن سلمت.

فعزّاها رسول الله (ص) بولدها عمرو.

وفي رواية: إنه لما بشرها النبي (ص) بما للقتلى في الجنة، قالت: رضينا يا رسول الله، ومن يبكي عليهم بعد هذا؟![2].

٢ ـ مرّ رسول الله (ص) بامرأة من الأنصار، وقد أصيب زوجها، وأخوها، وأبوها مع الرسول (ص) في أحد؛ فلما نعوهم إليها قالت: ما فعل رسول الله؟

قالوا: خيراً يا أم فلان، هو بحمد الله كما تحبين.

قالت: أرونيه حتى أنظر إليه.

---

(١) وفاء الوفاء ج ١ ص ٢٩٥، وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٤٥.

(٢) راجع: السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٥٤، ومغازي الواقدي ج ١ ص ٣١٥/ ٣١٦، وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٤٤.

فأشير لها إليه، فلما رأته، قالت: كل مصيبة بعدك جلل. يعني هينة.

وفي رواية: أنها استقبلوها بجنائز: إبنها، وأخيها، وأبيها، وزوجها، أو دُلّت على مصارعهم؛ فلم تكترث. وسألت عن الرسول (ص) فدُلّت عليه؛ فذهبت حتى أخذت بناحية ثوبه. ثم جعلت تقول: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لا أبالي إذا سلمت من عطب[1].

ونقول: إن هؤلاء النسوة قد بلغن من المعرفة والوعي حدّاً صرن معه يعتبرن وجود النبي (ص) كل شيء بالنسبة إليهن. وكل مصيبة بعد النبي (ص) هينة، ولا يبالين إن سلم من عطب.

فالرسول الأعظم «صلى الله عليه وآله وسلّم» هو مصدر الطمأنينة، وعنوان الحياة، والوجود لهن. وبدونه لا طعم للحياة، ولا معنى للبقاء.

وقد بلغ من يقينهن بما يخبر به الرسول (ص): أنهن صرن كأنهن يرينه رأي العين، حتى لتقول أم سعد بن معاذ حينما أخبرها بما للشهيد في الجنة: ومن يبكي عليهم بعد هذا؟!.

ولا يمكن أن نُرجعَ ذلك كله لشخصية النبي (ص)، وقوة تأثيرها، وإنما يرجع ذلك ـ ولا شك ـ إلى فطرية تعاليم الإسلام ومبادئه، وإنسيابها مع المشاعر والعواطف، حتى لتمتزج بوجود الإنسان، وفي كل كيانه، وتسري فيه كما يسري الدم في العروق.

علي يناول فاطمة سيفه:

ويقولون: إنه (ص) قد ناول فاطمة سيفه، وقال: اغسلي عن هذا

---

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص٢٤٣ و٢٥١/ ٢٥٢ و٢٥٤، وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٤٤، وتاريخ الطبري ج ٢ ص ٢١٠، والكامل لإبن الأثير ج ٢ ص ١٦٣، والبحار ج ٢٠ ص٩٨، وإعلام الورى ص ٨٥، ومجمع الزوائد ج ٦ ص ١١٥، وحياة الصحابة ج ٢ ص٣٥٦ عنه، والبداية والنهاية ج ٤ ص٤٧.

دمه يا بنية، فوالله، لقد صدقني اليوم. فجاء علي فناولها سيفه، وقال مثل ذلك.

فقال (ص): لئن كنت صدقت القتال، لقد صدق معك سهل بن حنيف، وأبو دجانة[1].

ولكن ذلك غير صحيح، وذلك:

١ ـ لأن الذي قتل معظم المشركين، وقتل أصحاب الألوية، وثبت في أحد، ونادى جبرئيل بإسمه، وقتل أبناء سفيان بن عويف الأربعة إلى تمام العشرة، هو علي «عليه السلام» وليس أبا دجانة، ولا سهل بن حنيف، ولا غيرهما.

٢ ـ ثم إن هذه الرواية متناقضة النصوص؛ فعن ابن عقبة لما رأى رسول الله (ص) سيف علي (ع) مخضباً دماً قال: إن تكن أحسنت القتال، فقد أحسنه عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، والحرث بن الصمة، وسهل بن حنيف[2]. فإي الروايتين هو الصحيح.

٣ ـ لقد ردّ ابن تيمية قولهم بأنه (ص) قد أعطى فاطمة سيفه، بأنه (ص) لم يقاتل في أحد بسيف[3].

والصحيح في القضية هو ما ذكره المفيد رحمه الله: من أنه بعد أن

---

(١) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٤٤ عن ابن إسحاق، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٥٥، وراجع: الثقات لإبن حبان ج ١ ص ٢٣٥، ووفاء الوفاء ج ١ ص ٢٩٣ عن الطبراني، ورجاله رجال الصحيح، ومستدرك الحاكم ج ٣ ص ٢٤، وتلخيصه للذهبي بهامشه، وصححاه على شرط البخاري، وشرح النهج للمعتزلي ج ١٥ ص ٣٥.

(٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٥٥.

(٣) نفس المصدر.

ناول علي فاطمة سيفه وقال لها: خذي هذا السيف؛ فلقد صدقني اليوم، وأنشد:

أفاطم هاك السيف غير ذميم	فلستُ برعديد، ولا بلئيم
لعمري لقد أعذرت في نصر أحمد	وطاعة رب بالعباد عليم
أميطي دماء القوم عنه فإنه	سقى آل عبد الدار كأس حميم

قال(ص): «خذيه يا فاطمة؛ فقد أدّى بعلك ما عليه، وقد قتل الله بسيفه صناديد قريش»[1].

فهذه الرواية هي الأنسب والأوفق بمساق الأحداث، وبأخلاق وسجايا النبي الأكرم (ص).

شماتة المنافقين وسرورهم بنتائج أحد:

ولما عاد النبي (ص) إلى المدينة، وبكى المسلمون قتلاهم، سر بذلك المنافقون، واليهود، وأظهروا الشماتة، وصاروا يظهرون أقبح القول. ومنه قولهم: ما محمد، إلا طالب ملك، وماأصيب بمثل هذا نبي قط، أصيب في بدنه، وأصيب في أصحابه.

وعرف المسلمون عدوهم الذي في دارهم، وتحرزوا منه. وقالوا أيضاً: لو كان من قتل عندنا ما قتل. وجعلوا يخذّلون عن رسول الله (ص)، وأصحابه، ويأمرونهم بالتفرق عنه.

واستأذنه عمر في قتل هؤلاء القائلين من المنافقين واليهود؛ فقال (ص): أليس يظهرون شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله؟ قال عمر: بلى، ولكن تعوّذوا من السيف، وقد بان أمرهم، وأبدى الله تعالى أضغانهم.

---

(١) الإرشاد للشيخ المفيد ص ٥٤، والبحار ج ٢٠ ص ٨٨ عنه.

فقال (ص): نهيت عن قتل من أظهر ذلك. وأما اليهود؛ فلهم ذمة فلا أقتلهم[١].

ونحن نشير هنا إلى ما يلي:

ألف: التمحيص:

إن المحن التي أصابت المسلمين في حرب أحد قد ميزت الخبيث من الطيب منهم، وامتاز أدعياء الإيمان والمنافقون عن المؤمنين. كما وعُرفت درجات المؤمنين أنفسهم، ومدى ثبات قدم كل منهم في الإيمان. قال تعالى في مناسبة غزوة أحد:

﴿إن يمسسكم قرح؛ فقد مس القوم قرح مثله، وتلك الأيام نداولها بين الناس، وليعلم الله الذين آمنوا، ويتخذ منكم شهداء، والله لا يحب الظالمين﴾[٢].

وفي ذلك أيضاً تعريف للمؤمنين أنفسهم بقدراتهم الإيمانية، وملكاتهم النفسية تلك.

فلابد إذن، أن يسعى المقصرون لجبر ما فيهم من نقص، وتكميل يقينهم، وزيادة وعيهم الرسالي؛ قال تعالى في آيات نزلت بمناسبة أحد: **﴿وليمحص الله الذين آمنوا، ويمحق الكافرين﴾**[٣] ويقول: **﴿قل: لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم؛ وليبتلي الله ما في صدوركم، ويمحص ما في قلوبكم، والله عليم بذات**

---

(١) راجع: السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٥٤، ومغازي الواقدي ج ١ ص ٣١٧/ ٣١٨، وشرح النهج للمعتزلي ج ١٥ ص ٤٣.

(٢) آل عمران: ١٤٠.

(٣) آل عمران: ١٤١.

الصدور﴾[١].

وخلاصة الأمر: إن ما جرى في أحد قد عرّف المسلمين بحقيقة تركيبة مجتمعهم، وأن فيه المؤمن والمنافق، وعرّفهم أيضاً بطاقاتهم وقدراتهم، ودرجاتهم الإيمانية.

وهذا أمر مهم جداً بالنسبة لخططهم المستقبلية، ومهم أيضاً بالنسبة لتعاملهم على الصعيد الداخلي مع بعضهم البعض؛ لأن ذلك يجعلهم أكثر دقة، وأشد حيطة، حيث يحسبون لكل شيء حسابه، فلا يأتيهم ما لايتوقعون، ولا يواجهون المفاجآت المحيرة. الأمر الذي لابد أن يؤثر في نتائج مواقفهم، وجعلها لصالحهم بنحو أدق وأحكم.

ب: أجواء النفاق ودوافعه:

إن النفاق لا يستدعي دائماً: أن يكون المنافق يرغب في هدم هذا الدين الجديد، ويترصد الفرصة لذلك. بل ربما يكون ذلك خوفاً من هذه الدعوة حينما يكون لها قوة وطول.

أو طمعاً بنفع عاجل، مادي، أو معنوي.

أو عصبية وحمية لبلد، أو قبيلة.

أو طمعاً في أن تنجح الدعوة في التغلب على المصاعب التي تواجهها. ويكون لهذا الشخص المنافق شأن فيها.

أو التزاماً بتقليد اجتماعي، ذي طابع معين.

أو حفاظاً على مصالح لا يمكن الحفاظ عليها مع مناهضة الدعوة.

إلى غير ذلك مما لا مجال له هنا.

إذن، فيمكن أن يكون نفاق ابن أبي، وكثير من أصحابه، إنما كان

---

(١) آل عمران: ١٥٤.

من أجل الحصول على ما في الإسلام من مغانم؛ والإبتعاد عما يواجهونه من متاعب ومغارم. وقد يكون نفاقهم هذا يتخذ اتجاهاً لا ينسجم مع تسليط المشركين على المدينة، لأن ذلك ولا شك لسوف يُلحِق الضرر بأولئك المنافقين أنفسهم. ولسوف يلحق الضرر بالتزاماتهم القبلية والإجتماعية، وبمصالحهم بشكل عام.

كما أن تسليط المشركين على بلدهم لا ينسجم مع التقليد الإجتماعي القائم آنذاك، ولا مع غيرتهم وحميتهم، وعصبيتهم.

نعم، ربما تتغير هذه النظرة للمنافق، ويتجاوز كل هذه الموانع، إذا رأى: أن وجوده ومصالحه في خطر في المستقبل. وإذا رأى أنه لا يمكنه الحفاظ على الحد الأدنى من مصالحه إلا بالتعامل مع أعداء هذه الدعوة؛ فيندفع إلى القيام بأي عمل يحفظ له الحد الأدنى مما تطمح نفسه إليه، ويسعى من أجل الحصول عليه.

دعني أقتله يا رسول الله!!

ثم إننا نجد: أن عمر يستأذن النبي (ص) في قتل هؤلاء المنافقين؛ فلا يأذن له النبي (ص) (وقد تقدم حين الكلام عن وحشي، وفي موضع آخر بعض ما يرتبط بذلك).

ونجد مثل ذلك من عمر في خلال حياته مع النبي (ص) الشيء الكثير، وكأمثلة على ذلك نشير إلى:

١ قصته مع الحكم بن كيسان[1].

٢ ـ قصته مع أبي سفيان[2] حين فتح مكة.

---

(١) حياة الصحابة ج ١ ص ٤١، وطبقات ابن سعد ج ٤ ص ١٣٧.

(٢) حياة الصحابة ج ١ ص ١٥٤، ومجمع الزوائد ج ٦ ص ١٦٦ عن الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

٣ ـ ومع عبد الله بن أبي[1].

٤ ـ ومع ذي الخويصرة[2].

٥ ـ ومع حاطب بن أبي بلتعة[3].

٦ ـ ومع ذي الثدية[4] وقيل باتحاده مع ذي الخويصرة، وقيل: لا.

٧ ـ ومع شيبة بن عثمان[5].

٨ ـ ومع الأعرابي الذي من بني سلم[6].

٩ ـ ونجده يطلب في الحديبية أن يمكنه النبي (ص) من نزع ثنيتي سهيل بن عمرو، حتى يدلع لسانه. وفي كل ذلك يمنعه النبي (ص) ويردعه، ويخبره: بأنه لا يرغب في ذلك.

وبالنسبة للحادثة الأخيرة مع سهيل بن عمر قال له: فعسى أن يقوم

---

(١) المصنف لعبد الرزاق ج ٩ ص ٤٦٩، وحياة الصحابة ج ١ ص ٤٨٤ عن البخاري، ومسلم، وأحمد، والبيهقي، والبداية والنهاية ج ٤ ص ٣٧٠، وتفسير ابن كثير ج ٤ ص ٣٧٢ عن ابن أبي حاتم، وفي فتح الباري ج ٨ ص ٤٥٨: هو مرسل جيد وصحيح البخاري ط سنة ١٣٠٩ ج ٣ ص ١٣٢.

(٢) حياة الصحابة ج ٢ ص ٦٠١، والبداية والنهاية ج ٤ ص ٣٦٢ عن الصحيحين، ومناقب الخوارزمي ص ١٨٢.

(٣) مجمع الزوائد ج ٨ ص ٣٠٣ عن أحمد، وأبي يعلى والبزار، وحياة الصحابة ج ٢ ص ٤٦٣/ ٤٦٤، والبداية والنهاية ج ٤ ص ٢٨٤ عن أحمد، والبخاري، والترمذي، وبقية الجماعة ما عدا ابن ماجة، ومناقب الخوارزمي الحنفي ص ٧٤.

(٤) المصنف لعبد الرزاق ج ١٠ ص ١٥٥، ومجمع الزوائد ج ٦ ص ٢٢٦ عن أبي يعلى.. وقد روي هذا الحديث من وجوه كما في مجمع الزوائد.

(٥) الرياض النضرة المجلد الأول ج ٢ ص ٣٥٣.

(٦) المعجم الصغير ج ٢ ص ٦٤.

مقاماً تحمـده. فكان مقـامه هـو ما ستـأتي الإشارة إليـه[١]. فقد كـان له مـوقف جيد في مكـة حين وفـاة النبي (ص)، حيث منـع أهـل مكـة من الإرتداد وسكّنهم، وعظم الإسلام.

ولا نـدري كيف خفي على عمر خـطورة تصرف كهـذا؟! وأن ذلـك معنـاه: نقض الصـلح، وإعــطاء نــظرة سلبيــة عن الـنبـي (ص) وعن المسلمين، وفسح المجال للدعاية المغـرضة ضـدهم، وأنهم لا عهد لهم ولا ذمـار. فحتى مـع الـرسـل والمفــاوضين يفعلون ذلـك الأمــر المهين والمشين، الأمـر الذي يـرفضه حتى العـرف الجـاهلي، فضـلاً عن الخلق السامي والنبيل.

كما أننا لا ندري ـ لو أنـه فعل ذلـك بسهيل بن عمـرو ـ ماذا سـوف يكون شعور إبنه عبد الله بن سهيـل، الذي هـرب من أبيه إلى النبي (ص) في بدر، وكان يكتم أباه إسلامه؟!. ثم ماذا سوف يكون شعور إبنه الآخـر أبي جندل بن سهيل، الذي جاء يـرسف في الحديـد إلى رسول الله (ص) في الحـديبية؟!، أي في نفس الـوقت الذي يـريد فيـه عمر: أن يفعـل ما يفعل بأبيه سهيل. وقد كان سهيل يضرب أبا جندل بغصن شوك. ولكنه مع ذلك قد ضن بهذا الأب أن يصيبه سوء، كما ذكره مصعب الزبيري[٣].

نعم، إننا لا ندري لماذا يصرّ عمر على النبي (ص) في هذا الأمـر، الذي كرّر النبي (ص) له رأيه فيه مرات عديدة؟!، وأوضح له: أنه لا يريد أن يتحدث الناس: أن محمداً يقتل أصحابه. بل لقد قـال له في قصـة ابن

---

(١) الإصابة ج ٢ ص ٩٣، والإستيعاب (مطبوع بهامش الإصـابة) ج ٢ ص ١٠٩/ ١١٠، وتفصيل القضية فيه.

(٢) الإستيعاب (مطبوع بهامش الإصابة) ج ٢ ص ١١٠، وراجع سير أعلام النبلاء ج ١ ص ١٩٤.

(٣) نسب قريش لمصعب ص ٣١٩/ ٣٢٠.

أبي: لو قتلته يوم قلت لي لأرعدت له أُنُف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته[١].

وإذا كان عمر يغار على مصلحة الإسلام إلى هذا الحد، حتى إنه لينسى كلام النبي له في ذلك مرات عديدة، فلماذا فرّ في أحد قبل ذلك بقليل، وترك الإسلام والنبي (ص) في معرض الأخطار الجسام، والأهوال العظام؟! ولماذا فر في خيبر، وحنين إلخ؟!.

ولماذا لم يطع النبي (ص) حينما أمره بأن يقتل ذا الثدية؟![٢].

ولعل هذا هو سر قول النبي (ص) له في قصة ابن أبي: أو قاتله أنت إن أمرتك بقتله؟ مما يوحي بأنه (ص) كـا يشك في صحة عزمه على هذا الأمر كثيراً، وقد أثبت الواقع صحة شكه (ص) هذا.

ولماذا كان (ص) يسند هذه المهمة إلى غير عمر. إلا في قصة ذي الثدية، وكانت النتيجة فيها ما هو معلوم؟!.

ولماذا لا نجد غير عمر من سائر الصحابة يهتم بهذا الأمر بالخصوص؟!.

أسئلة تبقى حائرة، تنتظر الجواب المقنع والمفيد.

وأين؟!

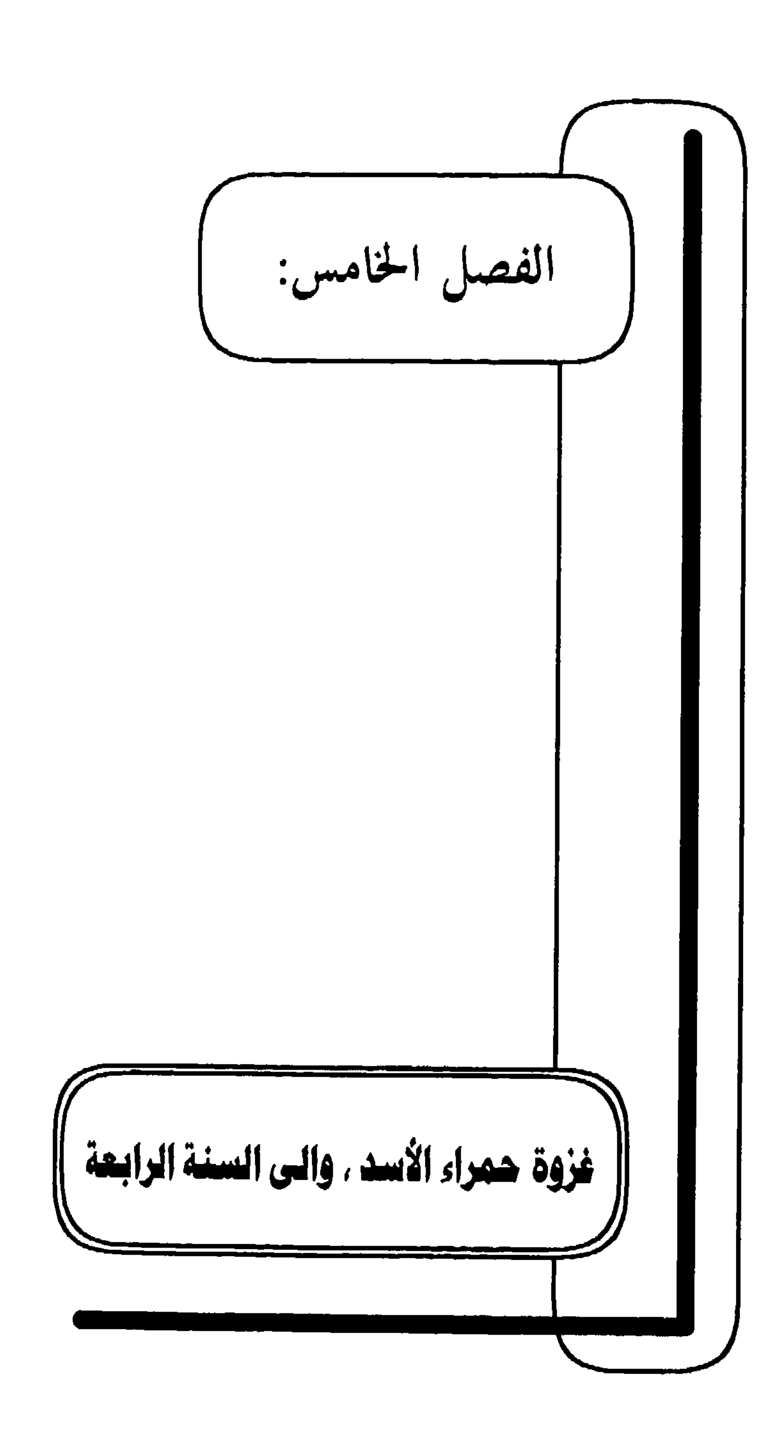
وأنى؟!

---

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ١٥٨.

(٢) راجع القضية في الإصابة ج ١ ص ٤٨٤/ ٤٨٥، وقال: إن لقصة ذي الثدية طرقاً كثيرة صحيحة.





الفصل الخامس:

غزوة حمراء الأسد ، والى السنة الرابعة



قريش تفكر في المدينة، ثم تعدل عنها :

لقد كان من الطبيعي: أن يفكر المشركون في المدينة ونهبها، وسلب نسائها، بعد انتهائهم من معركة أحد.

وكان من الطبيعي أيضاً أن يحسبوا: أن في المدينة خلقاً كثيراً من الأوس والخزرج لم يحضروا الحرب، وهم مسلمون.

وحتى اليهود، والمنافقون، مثل: ابن أبيّ وأصحابه، فإن لهم في المدينة أهلاً ونساءاً وعيالاً وأطفالاً. كما أن لهم بعيال، وأطفال، ونساء، وحتى رجال المسلمين علاقات نسبية، ومصالح مشتركة، لا يمكن التخلي عنها، أو تجاهلها بسهولة.

إذن، فقد كان من الطبيعي أن يجد المشركون مقاومة شديدة في داخل المدينة لو هاجموها.

وأما في خارجها.. فهم يعلمون: أن رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وأصحابه من ورائهم. فإنهم وإن تحملوا خسائر كبيرة: سبعين قتيلاً، وسبعين جريحاً، إلا أن من بقي منهم؛ وهم أكثر من خمسمائة مقاتل، إذا كانت القضية قضية شرف وعرض ومال، ومستقبل؛ فضلاً عن كونها قضية دين ـ فلسوف ـ يستميتون في الدفاع عنها.. ولم تنس قريش بعد: أنها قد هزمت في ابتداء المعركة، وطار بها الرعب في آخرها، من هؤلاء بالذات، مع أنها تزيدهم عدداً أضعافاً كثيرة. كما لا مجال لمقايسة

ما كان عندهم من السلاح والعدة بما كانت تملكه هي من عدة وسلاح.

ولم تنس بعد أيضاً: أنها لم تتغلب عليهم إلا بسبب تكتيك حربي، يعتمد على عنصر المفاجأة استطاعت أن تستفيد منه حينما خالف الرماة صريح أوامر قائدهم، مع اشتغال الباقين في الغنائم، الأمر الذي جعلهم آمنين مطمئنين إلى أنه لا عدوّ بعد يواجههم.

هذا كله، عدا عن أن قريشاً قد كلّت في هذه الحرب، وتعبت، وأصبحت قدراتها الآن أقل بكثير مما كانت عليه في بداية الحرب، حيث واجهت الهزيمة أيضاً.

كما أنها ترغب في الإحتفاظ بهذا الإنتصار الشكلي، ولا تريد أن تخاطر به، وتعرضه لاحتمالات الإنتكاس والفشل الفاضح؛ لأن هذا الإنتصار الشكلي يتيح لها: أن تبذل محاولات جديدة في تضعيف تأثير مواقف المسلمين الشجاعة السابقة على القبائل في المنطقة، وبالذات على مشركي مكة أنفسهم.

وأخيراً، فلم لا تفكر في أن تتّبع الخطة التي اتبعها المسلمون في بدر، حيث لم يتبعوا المشركين حينما هزموهم؛ فلعل ذلك كان لأهداف بعيدة، وحِكم غابت عنها، أدركها الآخرون، ولم تستطع هي أن تدركها.

غزوة حمراء الأسد :

وفي اليوم الثاني من أحد خرج رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلّم» بأمر من الوحي ـ كما في الرواية ـ إلى حمراء الأسد، موضع على ثمانية أو عشرة أميال من المدينة، حيث ندب أصحابه، قائلاً: «ألا عصابة تشد لأمر الله، تطلب عدوها؟ فإنها أنكأ للعدو، وأبعد للسمع»[1].

---

(١) مجمع البيان ج ٢ ص ٥٣٩، والبحار ج ٢٠ ص ٣٩.

فاشتد ذلك على المسلمين فأنزل الله: ﴿ولا تهنوا، ولا تحزنوا، وأنتم الأعلون﴾[١].

المجروحون فقط:

فخرج (ص) في ستين راكباً[٢]. أو سبعين[٣].

ويدل على أن عدتهم سبعون: أن عائشة قالت لعروة بن الزبير: كان أبوك الزبير، وأبو بكر لما أصاب نبي الله ما أصاب، وانصرف عنه المشركون، خاف أن يرجعوا فقال: من يرجع في أثرهم؟ فانتدب منهم سبعون رجلاً[٤].

ولكن الظاهر هو أن ذكر أبي بكر هنا قد جاء في غير محله، لأن الذين خرجوا في هذه الغزوة كانوا خصوص المجروحين، وكانوا سبعين رجلاً كما تقدم.

فقد روى القمي «رحمه الله»: أن جبرئيل «عليه السلام» نزل على النبي (ص)، فقال: يا محمد، إن الله يأمرك أن تخرج في أثر القوم، ولا يخرج معك إلا من به جراحة؛ فأمر (ص) مناديه أن ينادي بذلك[٥].

---

(١) راجع: مجمع البيان ج ٢ ص ٥٠٩، والبحار ج ٢٠ ص ٢٢.

(٢) البدء والتاريخ ج ٤ ص ٢٠٥.

(٣) مجمع البيان ج ٢ ص ٥٣٩.

(٤) البداية والنهاية ج ٤ ص ٥٠ و ٥١، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٥٧، والدر المنثور ج ٢ ص ١٠٢ عن سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وأحمد، والبخاري، ومسلم، وابن ماجة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، والبيهقي في الدلائل.

(٥) تفسير القمي ج ١ ص ١٢٥، والبحار ج ٢٠ ص ٦٤ عنه.

ويؤيد ـ أن هؤلاء السبعين هم المجروحون ـ: قوله تعالى في هذه المناسبة: ﴿الذين استجابوا لله والرسول من بعدما أصابهم القرح﴾[(١)].

وقد قلنا: إنه إذا كان الذين خرجوا هم المجروحون فقط، فلا معنى لذكر أبي بكر وعمر وغيرهم، ممن لم يكن به جراح في الخارجين إلى حمراء الأسد.

وعلى كل حال، فقد خرج رسول الله (ص) بالمجروحين من أصحابه، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، وكان حامل لوائه علي «عليه السلام»، وكانت قريش في الروحاء، على بعد خمسة وثلاثين او إثنين أو ثلاث وأربعين ميلاً من المدينة حيث تلاوموا هناك فيما بينهم، وقالوا: لا محمداً قتلتم، ولا الكواعب أردفتم. قتلتموهم حتى إذا لم يبق إلا الشريد تركتموهم، إرجعوا فاستأصلوهم قبل أن يجدوا شوكة.

فقال صفوان بن أمية:

لا تفعلوا، فإن القوم قد حربوا، وقد خشينا أن يكون لهم قتال غير الذي كان. أو قال لهم: إن محمداً وأصحابه الآن في حنق شديد مما أصابهم، فوالله ما أمنت إن رجعتم أن يجتمع جميع من كان قد تخلف عن أحد من الأوس والخزرج، ويطؤوكم ويغلبوا عليكم، والآن لكم الغلبة إلخ.

فبلغ ذلك النبي (ص)، فأراد أن يريهم من نفسه وأصحابه قوة، وأن يرعبهم.

ولكن من أين بلغه ذلك ومتى وصل إليه الخبر في خلال ليلة واحدة؛ عن بُعْدِ أكثر من أربعين ميلاً، إلا أن يكون ذلك عن طريق الوحي. وقد نصت رواية القمي المتقدمة على أن جبرئيل قد جاء بأمر من

---

(١) آل عمران: ١٧٢.

الله سبحانه إليه يأمره بالمسير إليهم.

وقدّم (ص) ثلاثة نفر مِن أسلم، فلحق إثنان منهم القوم بحمراء الأسد، وهم يأتمرون بالرجوع، فبصُروا بهما، فرجعوا إليهما فقتلوهما.

ومضى (ص) حتى نزل حمراء الأسد فدفن الرجلين، وأقام هناك ثلاثة أيام. وأوقد المسلمون ناراً عظيمة ـ خمسمائة نار ـ فذهب صيت عسكرهم ونارهم إلى كل جانب، فكبت عدوهم بذلك.

ومرّ معبد الخزاعي ـ وهو مشرك ـ بعسكر المسلمين، وهو في طريقه إلى مكة. وكانت خزاعة عيبة نصح لرسول الله، مسلمهم وكافرهم، فأظهر تألمه مما أصاب المسلمين في أحد.

فلما بلغ أبا سفيان وأصحابه أخبرهم: أن محمداً يطلبهم في جمع لم ير مثله، وأن هذا علي بن أبي طالب، قد أقبل على مقدمته في الناس[1]. وقد اجتمع معه من كان تخلف عنه، وقد ندموا على ما صنعوا، وأنهم يتحرقون عليهم. وأن نواصي الخيل قد تدركهم قبل أن يرتحلوا.

فدب الرعب في قلوب المشركين، وأسرعوا بالرحيل. والتقوا بركب من بني عبد القيس قاصداً المدينة، فوعدهم أبو سفيان أن يعطيهم ما يرضيهم إذا هم أبلغوا رسول الله أن قريشاً آتية لحربه.

وأرسل معبد يخبر رسول الله بحقيقة الأمر.

وبعد إقامة النبي (ص) ثلاثة أيام عاد إلى المدينة.

أسيران يقعان في أيدي المسلمين:

وأخذ النبي (ص) في طريقه ذاك رجلين من قريش، هما معاوية بن المغيرة بن أبي العاص، وأبو عزة الجمحي.

(١) البحار ج ٢٠ ص ٩٩، وإعلام الورى ص ٨٦.

أما أبو عزة فقد كان أسر في بدر، ثم منّ عليه (ص) لبناته الخمس، وأخذ عليه العهد أن لا يعود إلى حرب المسلمين، وأن لا يظاهر عليه أحداً. فنقض العهد، وألّب القبائل، وشارك في معركة أحد.

فلما عادت قريش، ونزلت في حمراء الأسد، ساروا وتركوه نائماً، فأدركه المسلمون هناك، وأخذوه إلى النبي (ص)، فطلب الإقالة، فرفض (ص) ذلك حتى لا يمسح عارضيه بمكة، ويقول: سخرت من محمد مرتين. ثم أمر (ص) علياً ـ وقيل غيره ـ أن يضرب عنقه، ففعل.

ولكن ابن جعدبة قال: ما أسر يوم أحد هو ولا غيره. ولقد كان المسلمون في شغل من الأسر. ولم ينكر قتله.

وقال ابن سلام: «قد قيل: أن النبي لم يقتل أحداً صبراً إلا عقبة بن أبي معيط يوم بدر»[1].

ولكن المشهور هو خلاف ذلك، فهو المعتمد حتى يثبت خلافه.

أما ما ذكره بعضهم من: أن أبا عزة قد أسر يوم أحد.

فالظاهر أن مقصوده منه نفس ما ذكرناه، لأن حمراء الأسد من تتمة معركة أحد. فلا مجال لإشكال المعتزلي بأن حال المسلمين في أحد لم يكن يساعد على أسر أحد[2].

وأما معاوية بن المغيرة بن أبي العاص، فإنه انهزم في أحد، ودخل المدينة، فأتى منزل عثمان بن عفان، ابن عمه. فقال عثمان له: أهلكتني وأهلكت نفسك. ثم خبأه في بيته، وذهب إلى النبي (ص) ليأخذ له أماناً.

وكان (ص) قد علم به من طريق الوحي، فأرسل علياً(ع) ليأتي به من دار عثمان، فأشارت أم كلثوم زوجة عثمان إلى الموضع الذي صيره

(١) طبقات الشعراء لإبن سلام ص ٦٤/ ٦٥.

(٢) شرح النهج للمعتزلي ج ١٥ ص ٤٦.

عثمان فيه، فاستخرجوه من تحت حمّارة لهم، وانطلقوا به إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم»، فشفع فيه عثمان، فقبل منه (ص)، وأجله ثلاثاً، وأقسم إن وجده بعدها في أرض المدينة وما حولها ليقتلنه، فجهزه عثمان، واشترى له بعيراً.

وسار(ص) إلى حمراء الأسد، وأقام معاوية إلى اليوم الثالث ليعرف أخبار النبي(ص)، ويأتي بها قريشاً، فلما كان في اليوم الرابع أخبرهم(ص): أن معاوية بات قريباً، وأرسل زيداً وعماراً، فقتلاه.

والصحيح علياً وعماراً، كما في رواية الكافي.

وقال البلاذري عن ابن الكلبي: «ويقال: إن علياً «عليه السلام» هو الذي قتل معاوية بن المغيرة»[1].

ويذكر هنا: أن عثمان قد انتقم من أم كلثوم، لدلالتها على ابن عمه.

بل يقال: إن ما فعله بها كان سبباً في موتها في اليوم الرابع، وبات ملتحفاً بجاريتها[2].

دوافع حمراء الأسد ونتائجها:

لقد اتضح مما تقدم بعض دوافع غزوة حمراء الأسد، ونتائجها، وللتذكير بذلك نعود فنقول:

---

(١) مغازي الواقدي ج ١ ص ٣٣٣، وشرح النهج للمعتزلي ج ١٥ ص ٤٦/ ٤٧ عن البلاذري، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٦١، وليراجع الكامل لإبن الأثير ج ٢ ص ١٦٥ ط صادر، وقاموس الرجال ج ١٠ ص ٤٠٧/ ٤٠٨، والبحار ج ٢٠ ص ١٤٥، عن الكامل والمعتزلي، وأشار إلى ذلك ابن هشام، وتاريخ الخميس، والسيرة النبوية لإبن كثير، والبداية والنهاية ج ٤ ص ٥١ وغير ذلك.

(٢) الكافي ج ٣ ص ٢٥١/ ٢٥٣.

لقد عرف الرسول الأعظم (ص): أن نتائج حرب أحد، لولا خروجه إلى حمراء الأسد سوف تكون:

١ ـ أن تستعيد قريش ثقتها بنفسها، ويزيد ذلك من إصرارها على حرب المسلمين، وتصلبها في موقفها تجاههم.

٢ ـ أن تستغل ذلك إعلامياً، بحيث تُضعِف من مكانة محمد (ص) في نفوس القبائل، ويزيدون جرأة على مناجزته ومقاومته؛ ويسهل عليهم الإستجابة لدعوة حربه.

٣ ـ أن يصبح سلطان النبي (ص) في المدينة في معرض التزلزل والضعف، بعد أن كان قد استقر وأدخل الرعب في نفوس كل مناوئيه في داخلها، سواء من المنافقين أو من اليهود. وقد دل على ذلك شماتة المنافقين، واليهود، وإظهارهم السرور بما جرى.

٤ ـ أن يوجب ذلك تزلزل إيمان ذوي النفوس الضعيفة، ويجعلهم عرضة لاصطياد الآخرين لهم.

٥ ـ توقف من كان مهيَّئاً نفسياً للدخول في الدين الجديد عن الدخول فيه، حتى تتضح له الأمور، وينجلي الموقف. ولا سيما إذا كان إسلامه صورياً من أجل ضمان مصالحه، أو للحصول على مكاسب من نوع ما، حيث لا يبقى ثمة ضمانات للحصول على ذلك، إن لم يكن أصبح يخشى العكس.

وعلى ضوء ما تقدم:

فقد جاءت حمراء الأسد ـ التي ربما تبدو للوهلة الأولى غير معقولة ـ فغيّرت الكثير من النتائج المتقدمة، وحولتها لصالح المسلمين، لأن خروج هؤلاء الجرحى في أثر قريش، وهم لا يزيدون على سبعين رجلاً على ما يظهر، في حين لم يكن في هذه الغزوة طمع في مال ولا في

غنائم، قد أوضح لكل أحد: أن هؤلاء مستميتون في الدفاع عن دينهم وعقيدتهم؛ وأن جراحهم تلك لم تحل دون إقدامهم على ملاحقة عدوهم؛ فهم يطلبون الموت ويسعون إليه، فالوقوف في وجه هؤلاء إنما يعني الوقوف أمام خيارين: إما موت هؤلاء، ولا يموتون إلا بعد أن يموت معهم كل من يقدرون عليه، وإما موت عدوهم.

وإذا كان جرحاهم على استعداد لمثل هذا، فما حال غيرهم ممن وراءهم، ممن سوف لن يسكتوا عن إمدادهم ومساعدتهم؟!

وإذن فخروج الجرحى كان هو الأصوب، لأن رهبة العدو تكون أعظم، وخوفه يكون أشد، لأنه يعلم أن وراءهم من لا يحب الحياة أكثر منهم.

ولسوف يدرك عدوهم: أن ما جرى في أحد ليس إلا نتيجة نزوة عارضة الّمت، ويصعب تكررها منهم، بعد الذي أصابهم بسببها.

كما وتصير حجة من يريد التشكيك بقدرتهم الطبيعية على المواجهة ـ من المنافقين أو اليهود ـ ضعيفة وواهية، يصعب تقبلها.

إذن، فمواجهة المسلمين وهم في قدرتهم الطبيعية، وحين لا يكون ثمة حالة إستثنائية ـ كما جرى في أحد ـ سوف يكون عملاً انتحارياً، لا مبرر له، ولا منطق يساعده.

ولا سيما بعد أن تعلم المسلمون هذا الدرس الصعب، الذي كلفهم غالياً، فإن احتمال حدوث حالة إستثنائية بعده يكاد يلحق بالممتنعات.

ولذلك فقد أوقد المسلمون خمسمائة نار، فكبت الله بذلك عدوهم، وأرجع كل القبائل المحيطة بالمدينة إلى صوابها، وأفهمها: أن عليها أن لا تغتر بما جرى في أحد.

كما أن عليها: أن تعرف: أنه لو كان ما جرى في أحد طبيعياً، لما

آثرت قريش الفرار من وجه سبعين من الجرحى. وهي التي ينبغي أن تكون أشد طغياناً وتجبراً، وأكثر إقداماً على المسلمين من ذي قبل. وكان ينبغي ـ لو كان يمكنها ـ أن تغتنمها فرصة للقضاء على هذه القلة القليلة، المنهكة، والمثخنة بالجراح. وتقتل مصدر متاعبها وآلامها، وأعني به رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلّم» ما دام أنه في جماعة لا تستطيع أن تدفع عنه، ولا عن نفسها شيئاً.

ففي حمراء الأسد هزيمة نفسية، وإعلامية لقريش، كما أن في ذلك إعطاء الفرصة لسائر القبائل لتقييم معركة أحد تقييماً صحيحاً وسليماً، بعيداً عن الغرور والتضليل.

وهي أيضاً إبطال لكيد المنافقين واليهود، وتأييد لسلطان المسلمين في المدينة، وربط على قلوبهم، ورفع لمعنوياتهم.

وهذا معنى قوله(ص): «فإنها إنكاء للعدو، وأبعد للسمع».

ويلاحظ أخيراً: أن معبد الخزاعي قد ذكر لقريش: أن علياً قد يدركهم قبل أن يرتحلوا، فدعاهم ذلك إلى التعجيل بالرحيل، قبل أن يدركهم أسد الله الغالب الإمام علي بن أبي طالب. وهذا يؤكد على دوره الفريد والمتميز في إلحاق الهزيمة النكراء بجيش المشركين في أحد؛ حتى صار يطلبه المشركون بثارات أحدية[1] أضيفت إلى ثاراتهم البدرية، كما ورد التصريح به في أكثر من مورد في تأريخ الصدام فيما بين الحق والباطل بعد ذلك.

قتل الأسيرين:

وقصة قتل الأسيرين، وملاحظة موقفه «صلى الله عليه وآله وسلّم»

---

(١) البحار ج ٣٦ ص ٥٤ و ٥٥ وج ٤٣ ص ١٥٦، والمناقب لابن شهرآشوب ج ٢ ص ٢٠٣، وفي ط أخرى ج ١ ص ٣٨١، والعوالم ص ٢٥٠.

منهما تعطينا: أنه (ص) كان يعامل كل أحد ـ بالدرجة الأولى ـ على أنه إنسان. ثم يقاوم فيه شركه وانحرافه بالأساليب الإنسانية أولاً أيضاً.

أي أنه يعتبره يحوي سائر الخصائص الإنسانية؛ فيتعامل معه على أساس الصدق، والوفاء، والأمانة وغير ذلك من خصائص إنسانية. وذلك من أجل تشجيع هذه الخصائص، وإعطائها الفرصة للنمو والتكامل، على أمل أن يكون ذلك موجباً لتسهيل مهمته التبليغية والإقناعية في المستقبل، ومن ثم لتلافي الكثير من المشكلات التي لا مبرر لها، وإنما تخلقها النزوات غير الإنسانية، في طريق الدعوة إلى الله تعالى، والإقناع بالحق والخير.

ولكنه حين يثبت له (ص): أن الطرف الآخر، لا ينطلق في مجمل مواقفه من خصائص إنسانية، وإنما من نزوات غير إنسانية، ومن شيطنة، ومكر؛ فإنه (ص) حينئذٍ يقف منه الموقف الحازم الذي لابد منه. وهو يحسن إليه وإلى مجتمعه حينما يقضي على تلك الروح البهيمية، والنزوات الشيطانية فيه؛ لأن الله قد خلقه ليكون إنساناً، لا ليكون حيواناً، يحمّل إنسانيته كل مشقات ومتاعب النزوات الحيوانية تلك.

كما أنه يكون قد أحسن لبناته اللواتي لن يكون في صالحهن: أن يكون المشرف على قضاياهن وشؤونهن مخلوقاً لا يحمل ـ أو فقل ـ: لا أثر في حياته للخصائص والمزايا الأولية للإنسان.

وعليه، فإذا قبل النبي (ص) أن يمنّ على أبي عزة الجمحي في بدر من أجل بناته، ثم رفض ذلك هنا؛ فإنه لا يكون بين كلا موقفيه أي تناقض أو اختلاف؛ بل هو مصيب في الحالتين، وهو قد أحسن لبناته أول مرة، وكان إحسانه لهن في هذه المرة أعم وأعظم.

هذا كله عدا عن أنه (ص) يكون قد أعطى المثل الأعلى للمؤمن الواعي واليقظ، الذي لا يخدع ولا يستغل فإنه: لا يلدغ المؤمن من جحر

مرتين. (راجع ما تقدم بعد بدر حول خصائص الشيعة).

وفاة أم كلثوم وملابساتها :

ويقولون: إن أم كلثوم بنت النبي، بل ربيبته قد توفيت في سنة تسع. ولكن ما يذكر في سبب وفاتها يؤكد: أنها قد توفيت في سنة ثلاث.

فقد جاء في نوادر جنائز الكافي خبر طويل، تقدم شطر منه قبل صفحات قليلة، ونعود فنلخصه هنا على النحو التالي:

إن عثمان قد آوى الذي جدع أنف حمزة [وهو معاوية بن المغيرة بن أبي العاص كما تقدم] وخبأه في مكان من داره، وأمر أم كلثوم: أن لا تخبر أباها فقالت: ما كنت لأكتم النبي(ص) عدوه.

وخرج عثمان إلى النبي(ص). وعرف النبي(ص) ذلك بواسطة الوحي؛ فأرسل علياً «عليه السلام» ليأتي به؛ فلم يجده؛ فجاء عثمان فأخذه، وطلب الأمان له بإلحاح، فقال له(ص): إن قدرت عليه بعد ثالثة قتلته؛ فأخذه عثمان، فجهزه، وانطلق.

وبعد ثلاث أرسل النبي (ص) علياً وعماراً، وثالثاً؛ ليقتلاه؛ لأنه بات قريب المدينة؛ فأتاه علي (ع) فقتله.

فضرب عثمان بنت النبي (ص)، وقال: أنت أخبرت أباك بمكانه، فبعثت إلى النبي (ص) ثلاث مرات تشكو ما لقيت والنبي (ص) لا يستجيب. وفي الرابعة أرسل علياً ليأتي بها؛ فإن حال بينه وبينها أحد؛ فليحطمه بالسيف، وأقبل النبي (ص) كالواله إلى دار عثمان، فأخرجها علي؛ فلما نظرت إلى النبي (ص) رفعت صوتها بالبكاء، وبكى النبي (ص)، وأخذها إلى منزله، وأرتهم ما بظهرها.

وبات عثمان ملتحفاً بجاريتها.

وماتت في اليوم الرابع.

فأمر (ص) فاطمة؛ فخرجت، ونساء المؤمنين معها، وخرج عثمان يشيع جنازتها؛ فلما نظر إليه (ص)، قال ثلاث مرات: من أطاف البارحة بأهله، أو بفتاته، فلا يتبعن جنازتها، فلم ينصرف. فلما كان في الرابعة، قال: لينصرفن أو لأسمين باسمه.

فأقبل عثمان متوكئاً على مولى له، فقال: إني أشتكي بطني. قال: انصرف إلخ[1].

ونفس هذه القضية ذكرها الواقدي، والبلاذري، وغيرهما، إلى أن انتهى إلى أنهم أصابوه قد أخطأ الطريق، فقتله عمار وزيد ـ وذكروا: أنهم لما جاؤا ليأخذوه من منزل عثمان، أشارت أم كلثوم إلى الموضع الذي صيره عثمان فيه؛ فاستخرجوه[2].

ولكنهم لا يذكرون القسم الأخير من القضية، لأسباب لا تخفى.

وجزم البلاذري بأن علياً «عليه السلام» هو الذي قتله[3].

ولعل عائشة تشير إلى هذه القضية بالذات، حينما قالت لعثمان عن رقية وأم كلثوم: «ولكن قد كان منك فيهما ما قد علمت».

---

(١) راجع: الكافي ج ٣ ص ٢٥١ ـ ٢٥٣، وقاموس الرجال ج ١٠ ص ٤٠٨ ـ ٤٠٩ عنه. وراجع: الإستيعاب (مطبوع بهامش الإصابة) ج ٤ ص ٣٠١، والإصابة ج ٤ ص ٣٠٤.

(٢) راجع: قاموس الرجال ج ١٠ ص ٤٠٧ ـ ٤٠٨، ومغازي الواقدي ج ١ ص ٣٣٣، وشرح النهج للمعتزلي ج ١٥ ص ٤٦ و ٤٧ عن البلاذري، وليراجع: الكامل لإبن الأثير ج ٢ ص ١٦٥ ط صادر، وبقية المصادر تقدمت قبل حوالي خمس صفحات.

(٣) أنساب الأشراف ج ٥ ص ١٦٤، وشرح النهج للمعتزلي ج ١٥ ص ٤٧ و ١٩٩ عن الجاحظ، و ٢٣٩.

فراجع ما ذكرناه في ما تقدم حينما تحدثنا حول وفاة رقية رحمها الله.

وإلى ذلك أيضاً يشير ما ورد في دعاء شهر رمضان: «اللهم صل على أم كلثوم بنت نبيك، والعن من آذى نبيك فيها»(١).

ويلاحظ هنا: أن التعبير بـ «بنت نبيك» لا يدل على البنوّة الحقيقية، إذ قد يكون المقصود بالبنت: الربيبة، فراجع ما ذكرناه في الرسالة الخاصة التي ألفناها حول هذا الموضوع، وهي بعنوان «بنات النبي(ص) أم ربائبه».

وبعد ما تقدم، فإن كل الأصابع لابد وأن تمتد لتشير إلى عثمان، ، حينما نقرأ رواية عبد الرزاق التي تقول: إن بعض بناته (ص) جاءت تشكو زوجها؛ فأمرها (ص) بالرجوع(٢)؛ لكن علياً «عليه السلام» ـ حسبما تقدم حين الكلام على تكنيته بأبي تراب ـ قد أقسم على أنه لم يغضب فاطمة الزهراء ولا أكرهها على أمر حتى قبضها الله تعالى. وهي أيضاً كذلك.

فكل القرائن تشير إذن إلى صحة رواية جنائز الكافي؛ وتقوّي من مضمونها، الأمر الذي يجعلنا نطمئن إلى أنها رضوان الله تعالى عليها قد توفيت بعد واقعة أحد، وبالذات في قضية الذي جدع أنف حمزة سيد الشهداء صلوات الله وسلامه عليه؛ وأنها لم تُقمْ مع عثمان إلا قليلاً.

ثم إننا لا نستبعد صحة ما نقله في قرب الإسناد عن الصادق (ع):

---

(١) رجال المامقاني ج ٣ ص ٧٤، وقاموس الرجال ج ٦ ص ٤٠٦ و٤٠٧ وقال: «أقول: أما الدعاء، فذكره الشيخان في المقنعة، والتهذيب، عقيب تسبيح شهر رمضان، ونسبه الأول إلى مجيء الآثار به، لكن ليس في نسخته الفقرة، نعم هي في الثاني».

(٢) المصنف للحافظ عبد الرزاق ج ١١ ص ٣٠٠، وهامش ص ٣٠١ عن سعيد بن منصور.

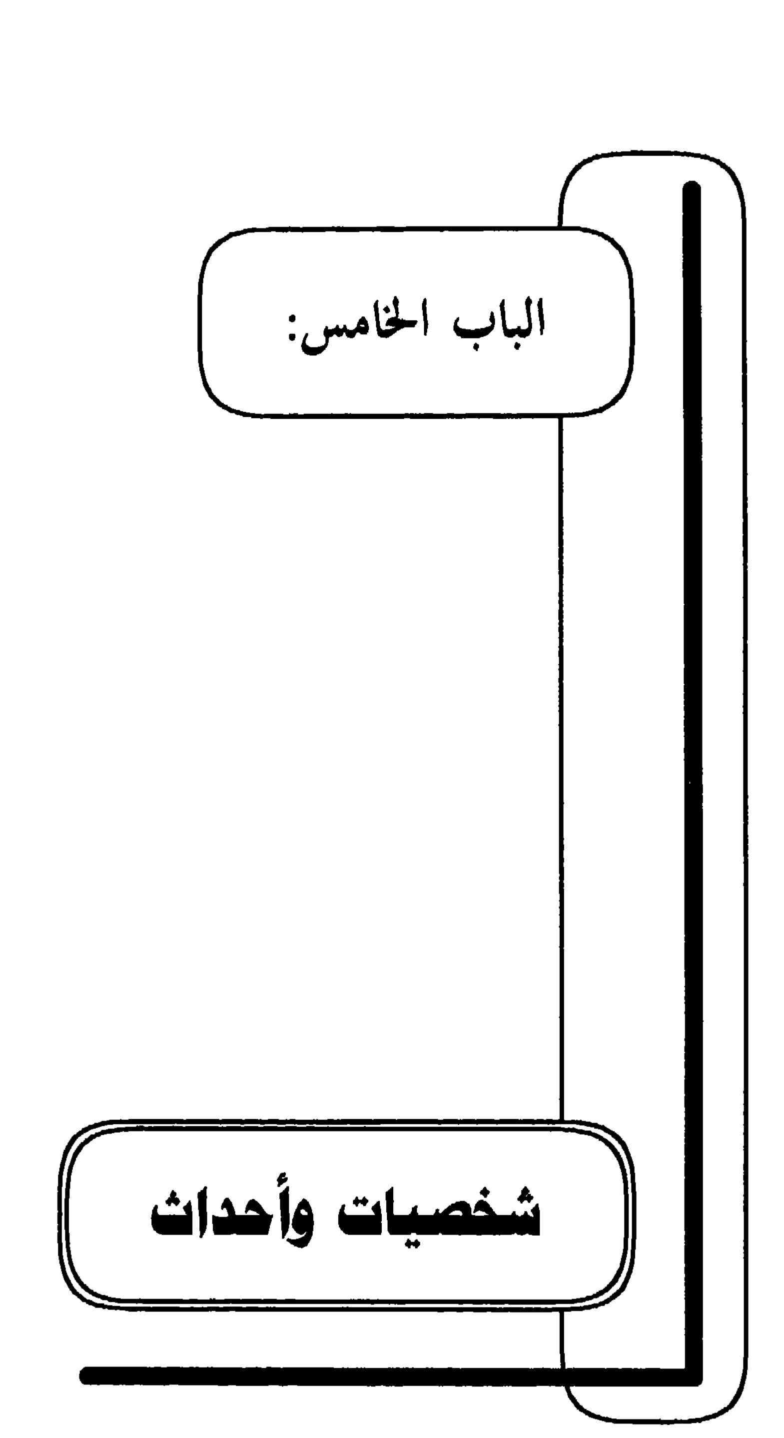
من أن عثمان لم يدخل بأم كلثوم[1]، ويكون ذلك قرينة على أنها لم تعش معه مدة طويلة، ويقرّب ذلك أنها ماتت بعد أحد حسبما تقدم. ولعلها قد تزوجته لأيام قليلة فقط.

وأما أن أسماء بنت عميس قد غسلتها، وهي قد عادت من الحبشة عام خيبر؛ أي في سنة سبع؛ فلعله اشتباه من الراوي. ويكون المراد أسماء بنت يزيد الأنصارية؛ لكن الراوي زاد كلمة بنت عميس من عند نفسه جرياً على ما استقر في نفسه، بسبب شهرة بنت عميس، وقد تقدم قبل وقعة أحد نظير ذلك في ولادة الإمام الحسن «عليه السلام»، فليراجعه من أراد.

---

(١) رجال المامقاني ج ٣ ص ٧٣/ ٧٤، وقاموس الرجال ج ١٠ ص ٤٠٦ و٤٠٧ عن قرب الإسناد والخصال.



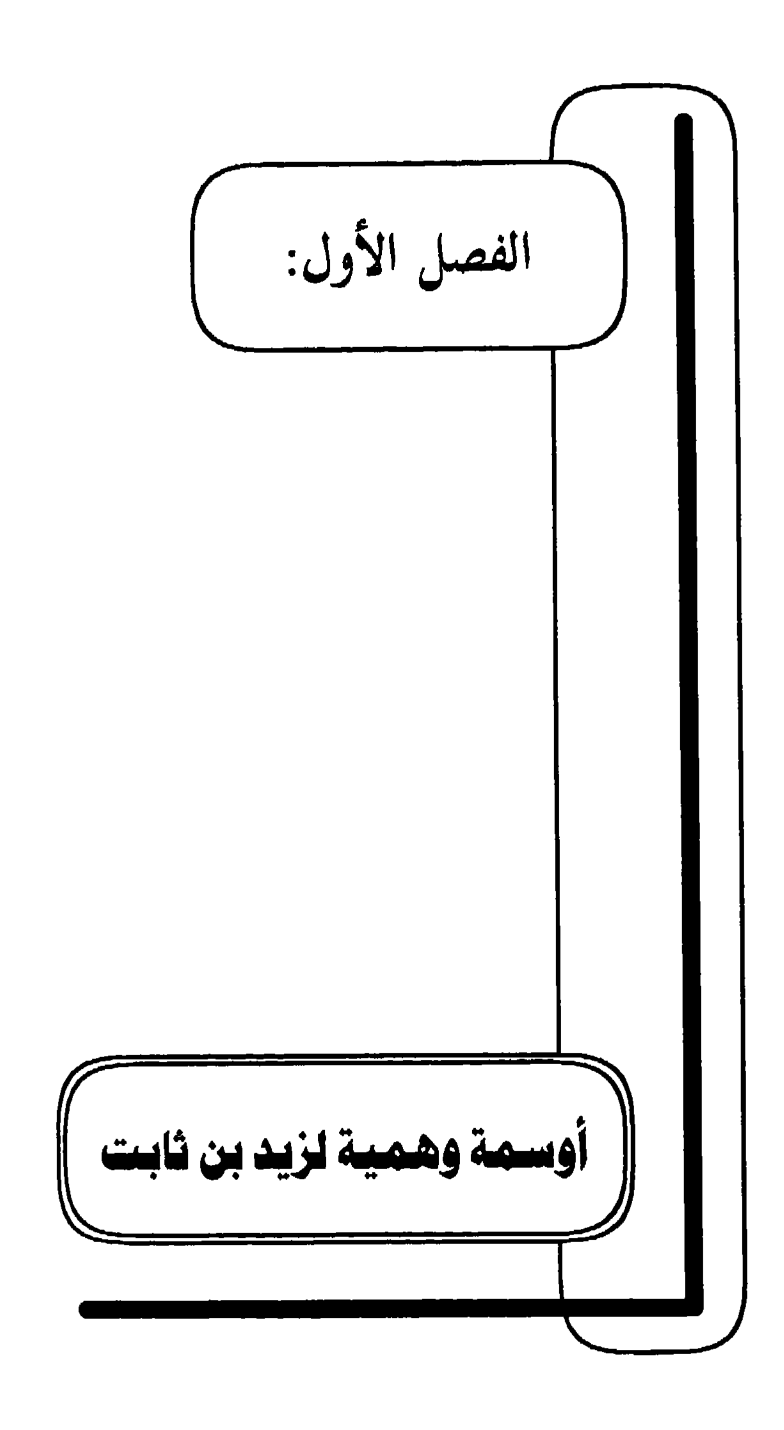


الباب الخامس:

شخصيات وأحداث



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



الفصل الأول:

أوسمة وهمية لزيد بن ثابت



بداية :

إننا حين نتحدث عن بعض الشخصيات، وما ينسب إليها من مواقف ويرتبط بها من أحداث. فإن سبب ذلك، إما أهمية ذلك الحدث بالذات. أو لأن مناسبة البحث قد اقتضت ذلك أحياناً، أو من أجل معرفة الدور الذي قامت به تلك الشخصية أو أريد لها: أن تنال شرف انتسابه إليها، لسبب سياسي، أو غيره.

وليس هدفنا من حديثنا ذاك مجرد مجاراة المؤرخين، ولا تكميل نقص لربما يجد البعض فيه مستمسكاً للتقليل من أهمية الكتاب بصورة عامة. ولا غير ذلك مما يدخل في نطاق الشكليات والهامشيات، التي تستند إلى بواعث غير مسؤولة، ولا هي ذات أهمية أو قيمة تذكر.

كما أن ذكرنا للحدث، قد يكون مرده بالإضافة إلى ذلك: إلى الرغبة في تسجيل تحفظ على ما أوردوه على أنه حقيقة وواقع، أو تصحيح خطأ، أو إبراز الجانب السياسي، الذي هيمن على ذلك الحدث، وأثر فيه. أو تسجيل عبرة نجدها جديرة بالتسجيل للإستفادة منها في الموقع المناسب.

هذا بالإضافة إلى أن جمع أطراف البحث، وملاحقة عناصر متفرقة ووضعها في مواضعها يساهم إلى حد كبير في تسهيل التعرف على ملامح الصورة التي تمس الحاجة للتعرف عليها، وتتشوق النفوس إليها.

هـذا إلى أمور أخـرى، لا تبتعد كثيـراً عن هذا المنحى في مسـارها العام.

وعلى هـذا الأساس: فـإننـا قـد أولينـا قسـطاً من الأهميـة لمتـابعـة الأحـداث، التي تـرتبط ببعض الشخصيـات، التي عـاشت في العصـر النبوي، وبعده وكان لها دور رئيس في صنع الأحداث، وفي تهيئـة الأجواء والظروف لها. على أمل أن نكون قد أسهمنا بدورنا في حصحصـة الحق، وكشف الزيف، وإزالة الشبهات.

ونبدأ هنا بالحديث عن أمر ذكر: أنـه يرتبط بـزيد بن ثـابت، فعسى أن نجد فيه، وفيما يأتي من فصول. ما ينفع ويجدي. فنقول.

الحدث المشكوك:

إن المطالع للتـأريخ الإسـلامي، ولكتب التراث بصـورة عامـة يجد الكثيـر من الأمور، التي أصبـح لها من الشيـوع والذيـوع، بحيث تبدو من الحقائق الثابتة التي لا تقبل الجدل، ولا يجوز أن تخضع للمناقشة.

وأصبح الكُتّاب والمؤلفون، يرسلونها إرسال المسلمـات ويوردونهـا مستدلين بها، على مـا يرونهـا قادرة على إثبـاته، أو الـدلالة عليـه. مع أن نفس هذه القضايـا لو أخضعهـا الباحثـون للبحث، وللتحقيق والتمحيص، لخرجوا بحقيقة: أنها من الأمور الزائفة والمجعولـة، التي صنعتها الأهـواء السياسية، والتعصبات المذهبية، أو العرقية، أو غيرها.

أو على الأقل لوجدوا الكثير مما يوجب الشك والريب فيها، ومن ثم ضعفها، ووهنها، أو لوقفوا على كثير من موارد التحريف والتلاعب فيها.

وقـد يجوز لنـا القول: إن مـا يـروى، من أن النبي «صلى الله عليـه وآله» قد أمر زيد بن ثابت بتعلم اللغة العبـرانية أو السـريانيـة، يصلح مثالاً

لهذا الأمر، ولأجل ذلك فقد رأينا من المناسب أن نشير إلى بعض ما تلزم الإشارة إليه في هذه القضية وغيرها تاركين الحكم في ذلك نفياً أو إثباتاً، إلى القارىء الكريم، الذي يملك كامل الحرية في أن يقبل، وفي أن يرد، إذا اقتضى الأمر أيّاً من الرد، أو القبول. فنقول:

روايات تعلم زيد العبرانية أو السريانية:

تؤرخ بعض المصادر: أنه في السنة الرابعة للهجرة أمر رسول الله «صلى الله عليه وآله» زيد بن ثابت بتعلم السريانية أو العبرانية، معللاً ذلك: بأنه لا يأمن اليهود على كتابه[1]؛ فقد روى الترمذي، عن زيد بن ثابت، قال: أمرني رسول الله «صلى الله عليه وآله» أن أتعلم كتاب يهود، قال: ما آمن يهود على كتاب. قال: فما مر بي نصف شهر، حتى تعلمته له.

قال: فلما تعلمته كان إذا كتب إلى يهود كتبت إليهم، وإذا كتبوا إليه قرأت له كتابهم.

قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح[2].

وفي نص آخر: لما قدم رسول الله «صلى الله عليه وآله» المدينة،

---

(١) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٦٤، والبداية والنهاية ج ٤ ص ٩١، والسيرة النبوية لإبن كثير ج ٣ ص ١٧٦، وراجع: الكامل لإبن الأثير ج ٢ ص ١٧٦، وراجع: بهجة المحافل ج ١ ص ٢٣٠.

(٢) الجامع الصحيح للترمذي ج ٥ ص ٦٧، ٦٨، ومشكل الآثار ج ٢ ص ٤٢١، والسنن الكبرى للبيهقي ج ٦ ص ٢١١، وفتوح البلدان للبلاذري ص ٥٨٣ والتراتيب الإدارية ج ١ ص ٢٠٣ و ٢٠٤، عن البخاري، وعن الطحاوي في مختصره ومسند احمد ج ٥ ص ١٨٦.

قال لي: تعلّم كتاب اليهود؛ فإني والله ما آمن اليهود على كتابي[١] ولم يذكر قوله: فلما تعلمته الخ.

قال الترمذي: وقد روي من غير هذا الوجه، عن زيد بن ثابت. قال: أمرني رسول الله «صلى الله عليه وآله» أن أتعلم السريانية[٢].

وفي نص آخر: عن زيد بن ثابت، قال: قال لي رسول الله «صلى الله عليه وآله» إنه يأتيني كتب من ناس، لا أحب أن يقرأها أحد؛ فهل تستطيع أن تتعلم كتاب العبرانية، أو قال: السريانية؟

فقلت: نعم.

قال: فتعلمتها في سبع عشرة ليلة[٣].

ومثله في نص آخر، عن زيد بن ثابت، لكنه جزم بأنه أمره بتعلم السريانية ولم يردد في ذلك[٤].

---

(١) طبقات ابن سعد ج ٢ قسم ٢: ١١٥، ومنتخب كنز العمال ـ بهامش مسند أحمد ج ٥ ص ١٨٥، وحياة الصحابة ج ٣ ص ٢١٦ عن أبي يعلى، وابن عساكر، وسنن أبي داود ج ٣ ص ٣١٨ ومستدرك الحاكم ج ١ ص ٧٥ وتلخيصه للذهبي بهامشه، وصحيح البخاري ج ٤ ص ١٥٦ وليس فيه ذكر لمدة تعلمه.

(٢) الجامع الصحيح للترمذي ج ٥ ص ٦٨.

(٣) طبقات ابن سعد ج ٢ قسم ٢ ص ١١٥، وكنز العمال ج ١٦ ص ٩ عن ابن عساكر، وابن أبي داود في المصاحف، وتذكرة الحفاظ ج ١ ص ٣١، وتهذيب تاريخ دمشق ج ٥ ص ٤٤٦ عن أحمد، وأبي يعلى؛ ومنتخب كنز العمال بهامش مسند أحمد ج ٥ ص ١٨٥ وحياة الصحابة ج ٣ ص ٢١٦، والتراتيب الإدارية ج ١ ص ١٢٠ و ٢٠٤ وراجع: مستدرك الحاكم ج ٣ ص ٤٢٢ وتهذيب الكمال ج ١٠ ص ٢٨.

(٤) راجع: كنز العمال ج ١٦ ص ٩ عن إبن عساكر وابن أبي داود، وغيرهما وتهذيب تاريخ دمشق ج ٥ ص ٤٤٦ و٤٤٧ عن أحمد، وأبي يعلى؛ ومسند أحمد ج ٥ ص ١٨٢ والإصابة ج ١ ص ٥٦١، ومشكل الآثار ج ٢ ص ٤٢١، ومستدرك الحاكم ج ٣ ص ٤٢٢، وتلخيصه للذهبي ـ بهامشه، والسنن الكبرى للبيهقي ج ٦ =

وفي رواية أخرى: عن زيد بن ثابت أيضاً، قال: أُتي بي النبي «صلى الله عليه وآله» مقدمه المدينة، فعجب بي، فقيل له: هذا الغلام من بني النجار، قد قرأ مما أُنزل عليك بضع عشرة سورة، فاستقرأني، فقرأت (ق) فقال لي: تعلّم كتاب يهود، فإني ما آمن يهود على كتابي: فتعلمته في نصف شهر[1]، إلى آخر ما تقدم في الرواية الأولى.

وعن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، قال: كان زيد بن ثابت يتعلم في مدارس ماسكة، فتعلم كتابهم في خمس عشرة ليلة، حتى كان يعلم ما حرّفوا وبدلوا[2].

وقال الكتاني: «قلت في بهجة المحافل لإبن عبد البر: أنه تعلمها

= ص ٢١١، ومنتخب كنز العمال ـ بهامش مسند أحمد ج ٥ ص ١٨٥، وحياة الصحابة ج ٣ ص ٣٥٠، والإستيعاب ـ بهامش الإصابة ج ١ ص ٥٥٢، والتراتيب الإدارية ج ١ ص ٢٠٣ و ٢٠٤ عن بعض من تقدم، عن ابن أبي داود في المصاحف، والأحكام الصغرى لأبي بكر ابن شيبة وسير أعلام النبلاء ج ٢ ص ٤٢٩ وبهجة المجالس ج ١ ص ٣٥٦.

(١) راجع تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٦٤، ٤٦٥، وقال: كذا رواه ابن أبي الزناد، واحمد، ويونس، عند أبي داود وداود بن عمرو الضبّي، وسعيد بن سليمان الواسطي، وسليمان بن داود الهاشمي، وعبد الله بن وهب، وعلي بن حجر، وحديثه عند الترمذي كذا ذكره السخاوي في الأصل الأصيل.

وكنز العمال ج ١٦ ص ٨ عن ابن عساكر، وغيره.، ومسند أحمد ج ٥ ص ١٨٦ والإصابة ج ١ ص ٥٦١ عن البخاري والبغوي وأبي يعلى؛ والتراتيب الإدارية ج ١ ص ٢٠٣، ٢٠٤، عن البخاري. وتذكرة الحفاظ ج ١ ص ٣١ وسير اعلام النبلاء ج ٢ ص ٤٢٨، ٤٢٩ وتهذيب الكمال ج ١٠ ص ٢٨ وراجع الثقات ج ١ ص ٢٤٦.

(٢) كنز العمال ج ١٦ ص ٨، ٩ عن ابن عساكر، وراجع: السيرة النبوية لإبن كثير ج ٣ ص ١٧٦، والتراتيب الإدارية ج ١ ص ٢٠٤ عن ابن عساكر. وتهذيب تاريخ دمشق ج ٥ ص ٤٤٦ عن ابن سعد والبداية والنهاية ج ٤ ص ٩١.

في ثمانية عشر يوماً»[١].

وقالوا عن زيد بن ثابت: «وكـان يكتب بالعـربية والعبـرانية»[٢]، أو «السريانية»[٣].

وقـال ابن الأثير الجـزري: «كانت تـرد على النبي «صلى الله عليـه وآله» كتب بالسريانية، فأمر زيداً، فتعلمها»[٤].

وقال الذهبي: «قـدم النبي «صلى الله عليه وآلـه»، وزيد صبي ذكي نجيب، عمـره إحدى عشـرة سنـة، فـأسلم، وأمـره النبي «صلى الله عليـه وآله»: أن يتعلـم خط اليهود؛ فجود الكتابة، إلى آخره».[٥].

المناقشة:

وبعـد، فإن لنـا على تلكم الروايـات ملاحـظات عـدة، تـوجب لنـا الشك والريب في سلامتها وصحتها، ونذكر من هذه الملاحظات ما يلي:

أ: إننا نجدها مختلفة فيما بينها، بصورة واضحة، الأمر الذي يشير إلى أنـه لا يمكن أن تصـح جميعهـا، فـواحـدة تقـول: إنـه أمـره بتعلم السريانية، وأخرى: العبرانية، بل لقد وقع الترديد بينهما حتى في الـرواية

(١) التراتيب الإدارية ج ١ ص ٢٠٣ وراجع: سير أعلام النبلاء ج ٢ ص ٤٢٩ وبهجة المجالس ج ١ ص ٣٥٦.

(٢) تهذيب تاريخ دمشق ج ٥ ص ٤٤٩، ومستدرك الحاكم ج ٣ ص ٤٢١، وتلخيصه للذهبي بهامش ص ٤٢٢ منه، وفتوح البلدان للبلاذري ص ٥٨٣ والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٨ ص ١٦٠.

(٣) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٨ ص ١٦٠.

(٤) أسد الغابة ج ٢ ص ٢٢٢، وعنه في قاموس الرجال ج ٤ ص ٢٣٩، وتنقيح المقال ج ١ ص ٤٦٢، ومكاتيب الرسول ج ١ ص ٢١ عنه أيضاً.

(٥) تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٣٠ وسير أعلام النبلاء ج ٢ ص ٤٢٧، ٤٢٨.

الواحدة.

ورواية تذكر: أنه قد تعلمها في أقل من نصف شهر، وأخرى: إنه تعلمها في خمسة عشر يوماً، وثالثة، في سبعة عشر يوماً، ورابعة: في ثمانية عشر يوماً.

ورواية تقول: إنه أمره بتعلمها لأنه لا يأمن يهود على كتابه، وأخرى تقول: إنه أمره بذلك، لأنه تأتيه كتب لا يحب أن يطلع عليها كل أحد.

ورواية تفيد: أنه قد أمره بذلك حين مقدمه المدينة. بينما تذكر أخرى: إنه إنما أمره بذلك في السنة الرابعة، وتعلمها حينئذ.

هذا كله مع أن الراوي لذلك كله رجل واحد، وهو المصدر الوحيد لما قاله ويقوله الكتاب والمؤرخون على الظاهر، في هذا المجال.

ب: إننا نلاحظ: أن الراوي لهذه القضية هو خصوص زيد بن ثابت بطل القصة نفسه، ولم نجدهم نقلوا ذلك عن غيره، رغم أهمية هذا الأمر وكونه ملفتاً للنظر، ورغم أننا نجدهم يسجلون لنا حتى أبسط الحركات التي تصدر عن النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله».

وواضح: أن هذه القضية ترمي إلى إثبات فضيلة لنفس ناقلها، فليلاحظ ذلك.

ج: إننا ـ رغم تفحصنا ـ لم نعثر ولو على نص واحد، لرسالة واحدة أرسلها النبي «صلى الله عليه وآله»، أو وصلت إليه من غيره تكون مكتوبة بغير العربية.

كما أننا لم نجد حتى ولو إشارة واحدة إلى أية رسالة وصلت إليه من أحد أو أرسلها إلى أحد قيل إنها ترجمت له «صلى الله عليه وآله» من أي لغة أخرى إلى اللغة العربية، أو بالعكس.

بل قد وجد عدد من الرسائل المنسوبة إليه «صلى الله عليه وآله» في

بعض المتاحف والمكتبات الخاصة؛ كان قد أرسلها إلى كسرى، وإلى النجاشي، وإلى المقوقس. ويميل العلماء والمحققون إلى الجزم بأنها هي بعينها، التي كان «صلى الله عليه وآله» قد أرسلها إليهم.

نعم، لقد وجدت هذه الرسائل وكانت كلها مكتوبة باللغة العربية خاصة، وبالخط العربي، فراجع مجموعة الوثائق السياسية للبروفيسور حميد الله لتطلع على صور هذه الرسائل، وراجع أيضاً مكاتيب الرسول للعلامة البحاثة الشيخ علي الأحمدي الميانجي. وغيرهما من الكتب والمصادر.

ومما يدل على ذلك: أن الرواية تنص على أن قيصر قد طلب ترجماناً ليقرأ له كتاب رسول الله «صلى الله عليه وآله»[١].

نعم، هناك رسالة واحدة مكتوبة باللغة العبرية، حكم العلماء والباحثون عليها بصورة قاطعة بالوضع والإختلاق، فراجع الكتابين آنفي الذكر.

فأين ذهبت تلكم الرسائل التي كتبها زيد بن ثابت باللغة العبرية أو السريانية، أو ترجمها منها إلى العربية! ولماذا لم يشر التاريخ، ولو إلى واحدة منها؟ إن ذلك لعجيب حقاً؟! وأي عجيب!!!

د : والأعجب من ذلك أن بعض المصادر تذكر: أن زيد بن ثابت كان من أكثر كتاب النبي «صلى الله عليه وآله» كتابة له[٢].

وعبارة إبن عبد البرّ: «كان كاتبه المواظب له في الرسائل والأجوبة»[٣] ويذكرون أيضاً: أنه كان مختصاً بالكتابة إلى الملوك[٤]، وأنه

---

(١) راجع: مكاتيب الرسول ج ١ ص ١٠٩.

(٢) تهذيب الأسماء ج ١ ص ٢٩، والرصف ج ١ ص ١٤٨.

(٣) بهجة المجالس ج ١ ص ٣٥٦.

(٤) راجع: التنبيه والإشراف ص ٢٤٦، والوزراء والكتاب ص ١٢، والعقد الفريد =

كان يكتب له «صلى الله عليه وآله» إذا كتب إلى اليهود، ويقرأ له كتبهم.

فإذا كان كذلك فما بالنا نجد إسم كثير من الكتّاب في أسفل الكتب التي كتبوها، فيقول في آخر الكتاب: وكتب فلان، أو: وكتب فلان وشهد، أو نحو ذلك ـ وهي طائفة كثيرة ـ ولا نجد إسماً لزيد بن ثابت في أي من الكتب التي وصلتنا، إلا على صفة الشاهد على بعض الكتب النادرة جداً؟!

نعم، إننا لم نجد له إسماً لا على الكتب إلى الملوك، ولا على الكتب إلى اليهود، مع وجود أسماء كثيرين من الكتاب الآخرين على طائفة كبيرة منها. بل، لقد وجدنا أسماء آخرين كانوا قد كتبوا إلى الملوك، وإلى اليهود أيضاً فليلاحظ: كتاب مفاداة سلمان من عثمان بن الأشهل اليهودي القرظي، فقد كتبه أمير المؤمنين علي «عليه السلام».

وكتابه «صلى الله عليه وآله» إلى جيفر، وعبد، إبني الجلندي، وهما من الملوك، وهو بخط أُبي بن كعب.

وكتابه إلى المنذر بن ساوى، وهو من ملوك البحرين، بخط أُبي.

ومعاهدة يهود مقنا، هي أيضاً بخط أمير المؤمنين علي عليه الصلاة والسلام.

وكتابه «صلى الله عليه وآله» ليهود بني عاديا من تيماء، كتبه خالد بن سعيد.

وكذا كتابه ليهود بني عريض، كتبه خالد بن سعيد أيضاً.

ويقال: إن معاوية أيضاً قد كتب إلى المهاجر بن أبي أمية، وربيعة

= ج ٤ ص ١٦١، والمفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٨ ص ١٣٤، والتراتيب الإدارية ج ١ ص ٢٠٢.

بن ذي الرحب من حضر موت[1].

كما أن كتابه «صلى الله عليه وآله» الذي أجاب به النجاشي الأول، قد كتبه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «عليه الصلاة السلام»[2].

ولعل المتتبع يجد أمثلة كثيرة سوى ما تقدم، فأين كان زيد بن ثابت عن ذلك، وعن سواه يا ترى؟!

هـ : إننا نجد أن بعض الروايات المتقدمة تقول: إن النبي «صلى الله عليه وآله» قد علل طلبه من زيد تعلم اللغة العبرانية، أو السريانية، بأنه تأتيه كتب، ولا يحب أن يطلع عليها كل أحد، فاحتاج إلى أن يأمر زيداً بذلك، مع أنه قد كان آخرون غير زيد بن ثابت يعرفون العبرانية أو السريانية، وفيهم من هو من فضلاء الصحابة وثقاتهم، ومن مثل سلمان الفارسي! الذي هو من أهل البيت، فإنه كان قد قرأ الكتابين[3]، فلماذا لا يعطيه النبي «صلى الله عليه وآله» كتبه التي لا يحب أن يطلع عليها كل أحد، ليقرأها له، فإنه لا ريب في أمانته ودينه، وكونه عبداً لذلك القرظي لا يمنعه من ذلك، كما لم يمنعه من حضور حرب بدر وأحد. (كما سيأتي).

مع أن مراسلاته «صلى الله عليه وآله» للملوك قد بدأت بعد ذلك كما هو معلوم من التاريخ.

أضف إلى ذلك: أنه قد تحرر قبل غزوة الخندق، وهي في الرابعة كما هو الظاهر أو في الخامسة على أبعد تقدير كما تحدثنا عن ذلك في

---

(١) راجع فيما تقدم: مجموعة الوثائق السياسية، ومكاتيب الرسول.

(٢) راجع مكاتيب الرسول ج ١ ص ٣١.

(٣) راجع ذكر أخبار أصبهان ج ١ ص ٤٨، وتاريخ بغداد ج ١ ص ١٦٤، والطبقات الكبرى لإبن سعد ج ٤ قسم ١ ص ٦١، وحلية الأولياء ج ١ ص ١٨٧، وقاموس الرجال ج ٤ ص ٤٢٤ و ٢٣٣ عن الجزري.

كتابنا «حديث الأفك». وستأتي الإشارة إلى ذلك في موضعه من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

وقد تقدم أن النبي «صلى الله عليه وآله» قد أمر زيداً بتعلم تلك اللغة في السنة الرابعة.

أضف إلى ذلك: أنهم يقولون: إن الحبر اليهودي عبد الله بن سلام قد أسلم في أول قدوم النبي «صلى الله عليه وآله» إلى المدينة، وقد ادّعوا نزول الآيات في تقريضه ومدحه، فلماذا لا يقرء للنبي «صلى الله عليه وآله» ما سوف يأتيه من رسائل؟!

كما أنهم يقولون: إن عبد الله بن عمرو بن العاص، كان يقرأ بالسريانية[1].

ويقول الدكتور جواد علي: «ومنهم مثل زيد بن ثابت من كتب له بالعربية، وبالعبرانية، أو السريانية، وذكر أن بعضهم كان مثل زيد بن ثابت يكتب بغير العربية أيضاً»[2].

فلماذا ذُكر إسم زيد بن ثابت ولم تُذكر أسماء أولئك؟.

و: قد ذكروا: أن حنظلة بن الربيع كان يقوم مقام جميع كتابه (ص) بما فيهم زيد بن ثابت، إذا غاب أحد منهم حتى سمّي حنظلة الكاتب[3]، الأمر الذي يشعر بأنه كان أيضاً يحسن الكتابة بغير العربية، كزيد. كما أنه يدل على أنه كان ينوب عن زيد في الكتابة إلى اليهود،

---

(١) طبقات ابن سعد ج ٤ قسم ٢ ص ١١.

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٨ ص ١٢٠.

(٣) راجع: التنبيه والإشراف ص ٢٤٥، والوزراء والكتاب ص ١٢ ـ ١٣، والعقد الفريد ج ٤ ص ١٦١، والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٨ ص ١٢٦ و ٣٠٩ و ١٣١.

وإلى الملوك. (راجع الهامش)[1].

فإذا كان كذلك، فلماذا لم يعتمد النبي «صلى الله عليه وآله» على حنظلة، أو على غيره ممن أشار إليهم الدكتور جواد علي، فإن الحاجة ترتفع بهم، ولا يبقى «صلى الله عليه وآله» بحاجة إلى اليهود (الذين كانوا غير مأمونين) لا في الترجمة، ولا في الكتابة.

ويلاحظ هنا: أنهم لم يبخلوا على زيد في هذا المجال، فقد أتخموه بالأوسمة، وأغرقوه بآيات الثناء، ويكفي أن نذكر: أنهم جعلوه عالماً، ليس فقط بالعربية قراءةً وكتابةً، وكذلك بالعبرانية، أو السريانية، وإنما أضافوا إلى ذلك: أنه كان يترجم للنبي «صلى الله عليه وآله» بالفارسية والرومية والقبطية والحبشية[2].

وأنه قد تعلم الفارسية من رسول كسرى، والرومية من حاجب النبي، والحبشية من خادم النبي «صلى الله عليه وآله» والقبطية من خادم النبي أو خادمته «صلى الله عليه وآله»[3].

ولا ندري لماذا لم يتعلم الفارسية من سلمان، والرومية من صهيب والحبشية من بلال، فإن كلا منهم كان يجيد هذه اللغات بما لا مزيد عليه؟!

---

(١) ولكنّنا لم نعثر حتى على رسالة واحدة، أو على أي شيء ذكر فيه إسم حنظلة هذا على أنه قد كتبه، وهذا أمر يثير العجب حقاً!! فلعلّ خصوم أهل البيت قد منحوه هذا الوسام لأنه اعتزل علياً «عليه السلام» ولم يشترك في حروبه.

(٢) راجع التنبيه والإشراف ص ٢٤٦، والتراتيب الإدارية ج ١ ص ٢٠٢ عن: «العمدة» للتلمساني، وعن ابن هشام في «البهجة» وعن كتاب: «التعريف برجال مختصر ابن الحاجب» لإبن عبد السلام، وعن «الأعلام بسيرة النبي «صلى الله عليه وآله»، والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٨ ص ١٣٣.

(٣) العقد الفريد ج ٤ ص ١٦١، والتراتيب الإدارية ج ١ ص ٢٠٢.

كما لا ندري لماذا لم نجد أية إشارة لكتاب مترجم من هـذه اللغات إلى العربية أو من العربية إليها، أو غير ذلك، مما يحتاج إلى الترجمة؟!

ز : لقـد روي عن أبي جعفر «عليـه السلام»: قـال: كان غـلام من اليهـود، يأتي النبي «صلى الله عليـه وآله» كثيـراً حتى استخفـه (استحقـه) وربمـا أرسله في حاجـة، وربما كتب لـه الكتاب إلى قـوم؛ فافتقـده أيامـاً فسأل عنه، فقال له قائل: تـركته في آخـر يوم من أيـام الدنيـا، فأتـاه النبي «صلى الله عليه وآله» الخ[1].

ح : وأخيراً، فلا نـدري ما حـاجة النبي «صلى الله عليـه وآله» إلى الترجمة، مع أن جمعاً من المحققين قـد أثبتوا: أن النبي «صلى الله عليه وآله» كان يعرف جميع اللغات، فلا يحتاج إلى مترجم ولا إلى غيـره، وقد كلم سلمان بالفارسية، وتكلم بغيرها من اللغات أيضاً الخ . .[2]

ط: وأما قوله في الرواية: إنه «صلى الله عليه وآله» أمره بذلك حين قـدومه المـدينة، ثم روايتهم: أنـه كـان يكتب في الجـاهليـة[3]، فينـافيـه قولهم: إنه تعلم الكتابة من أسرى بدر[4].

ملاحظتان:

الأولى: قال العلامة المحقق الشيخ علي الأحمدي الميانجي، بعد أن تكلم حول معرفته «صلى الله عليه وآله» باللغات، عربيّهـا، وعجميّها،

---

(١) الأمالي للصدوق ص ٣٥٦ والبحار ج ٧٨ ص ٢٣٤ وج ٦ ص ٢٦ .

(٢) راجع التراتيب الإدارية ج ١ ص ٢٠٩ ـ ٢٠٨، ولعل احسن من تكلم في هذا الموضوع: العلامة المحقق الشيخ علي الأحمدي في كتابه، مكاتيب الرسول ج ١ ص ١٥ ـ ١٦ فليراجع.

(٣) المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٨ ص ١٢٠.

(٤) المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٨ ص ١٣٣ و٢٩٢.

وأيّد ذلك بنقل المؤرخين والمحدثين أنه «صلى الله عليه وآلـه» كان يتكلم مع كل قوم بلسانهم، قـال حفظه الله: «ولكنـه «صلى الله عليه وآلـه» كتب إلى ملوك العجم كقيصـر، وكسـرى، والنجـاشي بلغـة العـرب، مـع أنّ الجـدير أن يكتب إلى كـل قوم بلسـانهـم؛ إظهاراً للمعجـزة، وإستحـداثـاً للألفة؛ فما الوجه في ذلك؟! وأيّ فائدة في الكتـابة بـالعربيـة؟ وأي وازع في الترقيم بالعجمية؟!

والذي يقضي به التدبر، وينتهي إليه الفكر: أن الفائدة في ذلـك هو حفظ شؤون الملة الإسلامية، وصوناً لجانب الإستقلال والعظمة، ألا ترى أن الأمم الراقية المتمدنة يسعون في إنتشار لسانهم في العالم، حتى تصير لغتهم لغة عالمية، إعمالاً للسيادة، وتثبيتاً للعظمة.

فكأنه «صلى الله عليـه وآله» يـلاحظ جانب الإسـلام، وأنه يعلو ولا يعلى عليـه، وأن لغة القـرآن لا بد وأن تنتشـر، وتعم العـالم، لأن القـرآن كتـاب للعالم؛ فعـظمة القـرآن، وعموم دعـوته، وعـظمة النبي الأقـدس، ورسالته العالمية، تقضي أن يكتب إليهم بلغة القرآن.

فعلى ملوك العـالم، والعالم البشـري أن يتعلموا لسـانه المقـدس. ولغته السامية، لغة القرآن المجيد، تثبيتاً لهذا المـرمى العظيم، والغـرض العالي»[١].

الثانية: وبعد، فإننا لا ننكر أن يكون زيد بن ثابت قد تعلم شيئـاً من العبرانية أو السريانية، قليلاً كان ذلك أو كثيـراً، ولكننا نشـك في أن يكون النبي (ص) هو الذي طلب منه ذلك، ونشك كذلك في ان يكون قـد كتب لـه «صلى الله عليه وآلـه» بهذه اللغـات، أو ترجم لـه شيئاً من الكتب التي أتته، فإن الروايات المتقدمة لا تكفي لإثبات ذلك على الإطـلاق بل قـدمنا مـا يوجب ضعفهـا ووهنها ولا بـد لإثبات ذلـك من اعتماد أدلـة وشـواهـد

---

(١) مكاتيب الرسول ج ١ ص ١٦ ـ ١٧.

أخرى، لا نراها متوفرة فيما بأيدينا، من نصوص ومصادر، بل إن ما بأيدينا يؤيد إن لم يكن يدل على خلاف ذلك، كما ألمحنا إليه.

والظاهر: أن الهدف هو إثبات فضيلة لزيد بن ثابت، وإن كانت كل الدلائل والشواهد تشير إلى خلافها، ما دام لا يخطر ببال أحد: أن يبحث حول ثبوت ذلك وصحته بنظرهم.

وسنتكلم عن سر تكرمهم بالفضائل لهذا الرجل في آخر هذا الفصل إن شاء الله تعالى.

ونذكر من الفضائل التي أضيفت إلى زيد بن ثابت أيضاً ما يلي:

علم زيد بالفرائض:

سيأتي أن عمر وعثمان ما كانا يقدّمان على زيد في الفرائض أحداً.

وقد خطب عمر الناس، فكان مما قال: «ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت»(١).

وادّعوا: أنه كان أعلم أصحاب رسول الله «صلى الله عليه وآله» بالفرائض «أي فرائض الإرث»(٢).

ولكننا نقول: إننا نجد في مقابل ذلك:

١ ـ أن مسروقاً ـ وإن كنا نعتقد أن ذلك لدوافع سياسية ـ يقول عن عائشة: أنه رأى: «أكابر أصحاب رسول الله «صلى الله عليه وآله» يسألونها

(١) راجع: مستدرك الحاكم ج ٣ ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣ وسنن البيهقي ج ٦ ص ٢١٠، وطبقات ابن سعد ج ٢ ص ١١٥، ومجمع الزوائد ج ١ ص ١٣٥، والغدير ج ٦ ص ١٩١ ـ ١٩٢، وراجع ج ٥ ص ٣٦١ وج ٨ ص ٦٤ ففيه مصادر أخرى.

(٢) تهذيب الأسماء ج ١ ص ٢٠١ وراجع المصادر المتقدمة، وترجمة زيد بن ثابت في مختلف المصادر.

عن الفرائض»[1].

٢ ـ إن أئمة أهل البيت «عليهم السلام» قد رفضوا دعوى أعلمية زيد بالفرائض، فقد روي عن الإمام الباقر «عليه السلام»، قال: الحكم حكمان: حكم الله، وحكم الجاهلية، وأشهد على زيد بن ثابت لقد حكم في الفرائض بحكم الجاهلية[2].

٣ ـ وقد ألف سعد بن عبد الله القمي كتاب: إحتجاج الشيعة على زيد بن ثابت في الفرائض[3].

وقد ذكر إبن شاذان في الإيضاح طائفة من مسائل الإرث لم يوفق زيد للصواب فيها، فليراجعه من أراده[4].

وقال: «... وأما فرائض زيد، فلم يبق أحد من الصحابة، إلا وقد اعترض عليه فيما فرض».

٤ ـ عن سعيد بن وهب، قال: قال عبد الله: أعلم أهل المدينة بالفرائض علي بن أبي طالب «عليه السلام»[5].

وهذا هو الحق الذي لا محيص عنه، فإنه «عليه السلام» باب مدينة العلم، ولكن قاتل الله السياسة وألاعيبها.

---

(١) الزهد والرقائق ص ٣٨٢.

(٢) التهذيب للشيخ الطوسي ج ٦ ص ٢١٨، والكافي ج ٧ ص ٤٠٧، والوسائل ج ١٨ ص ١١، وقاموس الرجال ج ٤ ص ٢٣٩. وتنقيح المقال ج ١ ص ٤٦١ وبحوث في تاريخ القرآن وعلومه ص ١١٨.

(٣) رجال النجاشي ص ١٧٨ وقاموس الرجال ج ٤ ص ٢٤٠.

(٤) الإيضاح ص ٣١٥ فما بعدها.

(٥) أنساب الأشراف بتحقيق المحمودي ج ٢ ص ١٠٥، وفي هامشه عن: الفضائل لأحمد بن حنبل حديث رقم ١١ من فضائل علي، وعن أخبار القضاة ج ١ ص ٨٩ بثلاثة طرق.

ملاحظة:

بالنسبة لشهادة الإمام الباقر «عليه السلام» بأن زيد بن ثابت قد حكم في الفرائض بحكم الجاهلية. لعله لأن زيد بن ثابت كان يفتي برأيه، حسب اعترافه فيما سيأتي، ولعل عامة ما كان يفتي به كان خطأً، على حد قوله نفسه، وكذلك وجود بعض الرواسب في نفسه وفي فكره وكون دين الله لا يصاب بالعقول ـ لعل كل ذلك ـ هو السبب في أن زيداً قد حكم في الفرائض بحكم الجاهلية.

وقد جرت بين زيد وبين أمير المؤمنين «عليه السلام» بعض المساجلات في مجال الفرائض لم يستطع زيد أن يقدم الجواب الكافي في مقابل ما بينه له أمير المؤمنين «عليه السلام» في تلك المسألة، فإن مكاتبة زنت، وقد عتق منها ثلاثة أرباعها، فقال «عليه السلام»: يجلد منه بحساب الحرية ويجلد منها بحساب الرق، وقال زيد بن ثابت: تجلد بحساب الرق، فاعترض عليه أمير المؤمنين «عليه السلام» بأنه هلاّ جلدها بحساب الحرية، فإنها فيها أكثر، فقال زيد: لو كان ذلك كذلك لوجب توريثها بحساب الحرية. فقال «عليه السلام»: أجل ذلك واجب، فأفحم زيد[1].

ولكن عثمان خالف علياً، وصار إلى قول زيد رغم ظهور الحجة عليه. ولعل هذه الإرهاصات في علم زيد بالفرائض قد أريد منها أن يعوض عن فشله ذاك بمنحه أوسمة الجدارة مضادة لعلي «عليه السلام» وتنكراً له.

أبو عمر والراية لزيد في تبوك:

قال أبو عمر: «... وكانت راية بني مالك بن النجار في تبوك مع

(١) راجع قاموس الرجال ج ٤ ص ٢٤٠ عن إرشاد المفيد.

عمارة بن حزم، فأخذها رسول الله «صلى الله عليه وآله» ودفعها إلى زيد بن ثابت.

فقال عمارة: يا رسول الله، أبلغك عني شيء؟!

قال: لا ولكن القرآن مقدم، وزيد أكثر منك أخذاً للقرآن.

وهذا عندي خبر لا يصح، والله اعلم(١).

ونزيد نحن هنا: أنه لو كان الأمر كذلك للزم ان يعطي الراية إلى أبي بن كعب، سيد القراء؛ فلماذا خص بها زيداً دونه. فإن كلاً منهما من أبناء مالك بن النجار، فهل كان زيد أقرأ من أبي؟! الذي وصفه رسول الله (ص) كما في بعض الروايات بأنه أقرأ الأمة(٢)، أم أن أبياً تخلف عن غزوة تبوك، فلماذا لم يعامل معاملة المتخلفين، مع أنهم يقولون: إنه شهد بدراً، والمشاهد كلها(٣).

ولماذا لا يجري النبي «صلى الله عليه وآله» هذه القاعدة في سائر الموارد، وذلك بالنسبة لإبن مسعود في المهاجرين، وكذا غيره ممن نص التاريخ على أنهم قد حفظوا القرآن، وجمعوه في عهد رسول الله «صلى الله عليه وآله»؟!.

زيد، وجمع القرآن:

وقد أشارت رواية أخذه الراية في تبوك، إلى كثرة أخذ زيد للقرآن،

---

(١) الإستيعاب بهامش الإصابة ج ١ ص ٥٥٢، والخبر في مستدرك الحاكم ج ٣ ص ٤٢١ ومغازي الواقدي ج ٣ ص ١٠٠٣ والإصابة ج ١ ص ٥٦١ وتهذيب تاريخ دمشق ج ٥ ص ٤٤٩ وتهذيب الأسماء ج ١ ص ٢٠١ وأسد الغابة ج ٢ ص ٢٢٢.

(٢) راجع كتابنا حقائق هامة حول القرآن فصل: ماذا عن جمع القرآن في عهد الخلفاء.

(٣) الإصابة ج ١ ص ١٩.

كما أنهم يذكرون لزيد مقاماً فريداً بالنسبة لجمع القرآن، في عهد رسول الله «صلى الله عليه وآله»؛ إذ يقال: «إن زيد بن ثابت شهد العرضة الأخيرة، التي بين فيها ما نسخ، وما بقي، وكتبها الرسول، وقرأها عليه، وكان يقرىء الناس بها حتى مات، ولذلك اعتمده أبو بكر وعمر، وجمعه، وولاه عثمان كتب المصاحف»[1].

وقال ابن قتيبة: «وكان آخر عرض رسول الله «صلى الله عليه وآله» القرآن على مصحفه»[2].

وصحح أبو عمر حديث أنس: أن زيد بن ثابت أحد الذين جمعوا القرآن على عهد رسول الله «صلى الله عليه وآله»[3].

ونقول: لقد تحدثنا عن دور زيد في جمع القرآن على عهد الخلفاء بعد رسول الله «صلى الله عليه وآله» في كتابنا «حقائق هامة حول القرآن» وقلنا هناك.

إن جمع القرآن قد حصل في زمن النبي «صلى الله عليه وآله» نفسه، وأثبتنا ذلك بالأدلة الكثيرة.

وقلنا أيضاً: إن محمد بن كعب القرظي لم يذكر زيد بن ثابت في عداد من جمع القرآن في عهد النبي «صلى الله عليه وآله». وقلنا كذلك:

إن رواية جمع زيد للقرآن في عهد أبي بكر تعاني من إشكالات أساسية لا مجال لتجاهلها، وأن الصحيح: هو أنه قد جمع مصحفاً

---

(١) الإتقان ج ١ ص ٥٠ عن البغوي في شرح السنة وراجع تاريخ القرآن للزنجاني ص ٣٩ ـ ٤٠.

(٢) المعارف ص ٢٦٠ وعنه في المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٨ ص ١٣٤ وراجع البرهان للزركشي ج ١ ص ٢٣٧.

(٣) الإستيعاب بهامش الإصابة ج ١ ص ٥٥٢.

شخصياً للخليفة، الذي لم يكن يملك مصحفاً تاماً.

وقال أبو عمر: عن حديث جمع زيد للقرآن في عهد الرسول «صلى الله عليه وآله»:

«... وقد عارضه قوم، بحديث ابن شهاب، عن عبيد بن السباق، عن زيد بن ثابت: أن أبا بكر أمره في حين مقتل القراء باليمامة، بجمع القرآن، قال: فجعلت أجمع القرآن من العسب، والرقاع، وصدور الرجال، حتى وجدت آخر آية من التوبة، مع رجل يقال له: خزيمة، أو أبو خزيمة.

قالوا: فلو كان زيد قد جمع القرآن على عهد رسول الله لأملاه من صدره، وما احتاج إلى ما ذكر.

قالوا: وأما خبر جمع عثمان للمصحف؛ فإنما جمعه من الصحف، التي كانت عند حفصة؛ من جمع أبي بكر..»[١] إنتهى كلام أبي عمر.

وأما بالنسبة لشهود زيد للعرضة الأخيرة؛ فإننا نجد في المقابل مصادر كثيرة تذكر: أن إبن مسعود هو الذي شهد العرضة الأخيرة[٢].

وعلى كل حال. فإن تفصيل الكلام في هذا الأمر موجود في كتابنا: الذي ألمحنا إليه آنفاً، فمن أراد المزيد فليرجع إليه.

---

(١) الإستيعاب بهامش الإصابة ج ١ ص ٥٥٢.

(٢) راجع طبقات ابن سعد ج ٢ قسم ٢ ص ١٠٤ وص ٤ وكنز العمال ج ٢ ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥ عن ابن عساكر، وكشف الأستار عن مسند البزار ج ٣ ص ٢٥١ ومجمع الزوائد ج ٩ ص ٢٨٨ عن أحمد، والبزار، ورجال أحمد رجال الصحيح، وفتح الباري ج ٩ ص ٤٠ و ٤١ والإستيعاب بهامش الإصابة ج ٢ ص ٣٢٢، ومشكل الآثار ج ١ ص ١١٥ وج ٤ ص ١٩٦.

الفضائل والسياسة :

وبعد، فإننا قد تعودنا من المخالفين لأهل البيت عليهم السلام، إبتداءً من الأمويين ثم العباسيين، محاولاتهم الدائبة للحطّ من علي «عليه السلام»، وأهل بيته صلوات الله وسلامه عليهم والتستر على فضائله ومزاياه، وإظهار العيب له. وقد قال المغيرة بن شعبة لصعصعة: «وإياك أن يبلغني عنك: أنك تظهر شيئاً من فضل علي، فأنا أعلم بذلك منك، ولكن هذا السلطان قد ظهر وقد أخذنا بإظهار عيبه للناس»[1].

والنصوص الدالة على هذه السياسة كثيرة جداً، بل هي فوق حد الإحصاء.

ومن جهة أخرى فإنهم يعملون على إظهار التعظيم الشديد، لكل من كان على رأيهم، ويذهب مذهبهم، ويصنعون لهم الفضائل، ويختلقون لهم الكرامات، وذلك أمر مشهود، وواضح وقد أشرنا إليه غير مرة.

والمراجع لحياة زيد بن ثابت، ولمواقفه السياسية يجد: أنه كان منحرفاً عن أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام.

كما ويجد أنه ممن تهتم السلطة برفع شأنهم، وتأكيد فضلهم ونسبة الكرامات إليهم.

الخط السياسي لزيد بن ثابت :

وبعد، فإن الذي يراجع حياة زيد بن ثابت ومواقفه، يجد: أنه كان عثمانياً، ومنحرفاً عن أمير المؤمنين علي «عليه السلام».

فعدا عن أنه كان له موقف في السقيفة، يؤيد فيه صرف الأمر عن

---

(١) راجع الكامل لإبن الأثير ج ٣ ص ٤٣٠ وتاريخ الأمم والملوك طبع الإستقامة ج ٤ ص ١٤٤.

الأنصار إلى المهاجرين، وقد أثنى عليه أبو بكر، ومدحه لأجله[1] فإنه:

كـان أحد الـذين لم يبايعـوا علياً أميـر المؤمنين عليـه آلاف التحيـة والسلام[2].

بل لقد كان زيد بن ثابت مع عمـر حينما ذهب لـلإتيان بعلي «عليـه السلام» من بيته لأجل البيعة[3].

و«كان زيد عثمانياً، ولم يشهد مع علي شيئاً من حروبه»[4].

وقد قطع أميـر المؤمنين «عليه السـلام» العطاء عمن لم يشهـد معه، وأقامهم مقام أعراب المسلمين[5].

وكـان زيد عثمـانياً، يحـرض الناس على سب أميـر المؤمنين «عليه السلام»[6].

و«كان عثمان يحب زيد بن ثابت»[7].

«والذين نصروا عثمان، كانوا أربعة، كان زيد بن ثـابت أحـدهـم،

---

(١) راجع سير أعلام النبلاء ج ٢ ص ٤٣٣ ومسند أحمد ج ٥ ص ١٨٦ وتهذيب تاريخ دمشق ج ٥ ص ٤٤٩ والتمهيد في علوم القرآن ج ١ ص ٢٤٤ عنه.

(٢) راجع تاريخ الأمم والملوك طبع دار المعارف ج ٤ ص ٤٣٠ و ٤٣١ والكامل في التاريخ ج ٣ ص ١٩١.

(٣) أنساب الأشراف ج ١ ص ٥٨٥. (قسم حياة النبي «صلى الله عليه وآله»).

(٤) أسد الغابة ج ٢ ص ٢٢٢ والاستيعاب بهامش الإصابة ج ١ ص ٥٥٤ وقاموس الرجال ج ٤ ص ٢٣٩ وتنقيح المقال ج ١ ص ٤٦٢ وراجع الكامل لإبن الأثير ج ٣ ص ١٩١.

(٥) دعائم الإسلام ج ١ ص ٣٩١ - ٣٩٢.

(٦) سفينة البحار ج ١ ص ٥٧٥.

(٧) الاستيعاب بهامش الإصابة ج ١ ص ٥٥٤.

ولم ينصره أحد من الصحابة غيرهم»[1].

وكان على قضاء عثمان[2]، وعلى بيت المال والديوان له[3].

وكان عثمان يستخلفه على المدينة[4].

وكان يذب عن عثمان حتى رجع لقوله جماعة من الأنصار[5].

وقد قال للأنصار: إنكم نصرتم رسول الله «صلى الله عليه وآله» فكنتم أنصار الله، فانصروا خليفته تكونوا أنصاراً لله مرتين؛ فقال الحجاج بن غزية: والله إن تدري هذه البقرة الصيحاء ما تقول، إلى آخره.

وفي نص آخر: أن سهل بن حنيف أجابه؛ فقال: يا زيد، أشبعك عثمان من عضدان المدينة؟! والعضيدة: نخلة قصيرة، ينال حملها[6].

وكان بنو عمرو بن عوف قد أجلبوا على عثمان، وكان زيد يذب عنه، فقال له قائل منهم:

---

(١) الكامل لإبن الأثير ج ٣ ص ١٥١ وراجع ص ١٦١، وأنساب الأشراف ج ٥: ص ٦٠، والغدير ج ٩ ص ١٥٩ و ١٦٠ عن المصادر التالية: تاريخ الطبري ج ٥ ص ٩٧ وتاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٣٩١ وتاريخ أبي الفداء ج ١ ص ١٦٨.

(٢) الكامل لإبن الأثير ج ٣ ص ١٨٧.

(٣) راجع الكامل لإبن الأثير ج ٣ ص ١٩١ وأسد الغابة ج ٢ ص ٢٢٢ وأنساب الأشراف ج ٥ ص ٥٨ و ٨٨ والاستيعاب بهامش الإصابة ج ١ ص ٥٥٣ و ٥٥٤ والتراتيب الإدارية ج ١ ص ١٢٠ وتهذيب الأسماء ج ١ ص ٢٠١ وتاريخ الأمم والملوك ج ٤ ص ٤٣٠ طبع دار المعارف.

(٤) راجع المصادر المتقدمة بإستثناء الأول منها. والبداية والنهاية ج ٧ ص ٣٤٧ وشذرات الذهب ج ١ ص ٥٤ وأسد الغابة ج ٢ ص ٢٢٢.

(٥) تهذيب تاريخ دمشق ج ٥ ص ٤٥١.

(٦) أنساب الأشراف ج ٥ ص ٩٠ و ٧٨، وراجع الكامل لإبن الأثير ج ٣ ص ١٩١، وتاريخ الأمم والملوك ج ٤ ص ٤٣٠ طبع دار المعارف.

وما يمنعك؟! ما أقل والله من الخزرج من له من عضدان العجوة مالك!

فقال زيد: إشتريت بمالي، وقطع لي إمامي عمر، وقطع لي إمامي عثمان.

فقال له ذلك الرجل: أعطاك عمر عشرين ألف دينار؟

قال: لا، ولكن كان عمر يستخلفني على المدينة، فوالله، ما رجع من مغيب قط إلا قطع لي حديقة من نخل[١].

وإستخلاف عمر له في أسفاره معروف ومشهور[٢].

هذا وقد أعطاه عثمان يوماً مائة ألف مرة واحدة[٣].

وقد بلغ من ثراء زيد أن خلّف من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس غير ما خلف من الأموال والضياع بقيمة مائة ألف دينار[٤].

وكان محل العناية التامة من قبل عمر، فعدا عن استخلافه له في كل سفر يسافره وإقطاعه الحدائق، فإنه كان كاتب عمر[٥]، وكان على قضائه

---

(١) تهذيب تاريخ دمشق ج ٥ ص ٤٥١ وراجع ص ٥٥٠ وراجع الإصابة ج ١ ص ٥٦٢، وراجع سير أعلام النبلاء ج ٢ ص ٤٣٤ واخبار القضاة ج ١ ص ١٠٨.

(٢) راجع في ذلك عدا عمّا تقدّم وسيأتي: تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٣١ والإصابة ج ١ ص ٥٦٢، والاستيعاب بهامشها ج ١ ص ٥٥٣ و٥٥٢ والبداية والنهاية ج ٧ ص ٣٤٧ وشذرات الذهب ج ١ ص ٥٤ وسير أعلام النبلاء ج ٢ ص ٤٢٧ و ٤٣٤ وتهذيب تاريخ دمشق ج ٥ ص ٤٥٠ وتهذيب الأسماء ج ١ ص ٢٠١ وأسد الغابة ج ٢ ص ٢٢٢.

(٣) أنساب الأشراف ج ٥ ص ٣٨ و٥٢، والغدير ج ٨ ص ٢٩٢ و ٢٨٦.

(٤) الغدير ج ٨ ص ٢٨٤ عن مروج الذهب ج ١ ص ٤٣٤.

(٥) تهذيب تاريخ دمشق ج ٥ ص ٤٤٨ وأشار الى كتابته في المعارف ص ٢٦٠.

وفرض له رزقاً[١].

ويكفي أن نذكر هنا عبارة ابن سعد، وابن عساكر، وهي:

«كان عمر ـ يستخلف زيداً في كل سفر، وقلّ سفر يسافره ولم يستخلفه، وكان يفرّق الناس في البلدان وينهاهم أن يفتوا برأيهم، ويحبس زيداً عنده ـ إلى أن قال: وكان عمر يقول: أهل البلد ـ يعني المدينة ـ محتاجون إليه، فيما يجدون إليه، وفيما يحدث لهم مما لا يجدونه عند غيره»[٢].

«وما كان عمر وعثمان يقدمان على زيد أحداً، في القضاء والفتوى، والفرائض والقراءة»[٣].

ثم كان زيد في زمن معاوية على ديوان المدينة، فقد قال ابن قتيبة، عن عبد الملك بن مروان، الذي ولد سنة أربع وعشرين هجرية: «كان معاوية جعله مكان زيد بن ثابت على ديوان المدينة، وهو إبن ست عشرة سنة»[٤].

ثم كان عبد الملك بن مروان من الذين يقولون بقول زيد[٥].

---

(١) طبقات ابن سعد ج ٢ قسم ٢ ص ١١٥ ـ ١١٦، وتهذيب تاريخ دمشق ج ٥ ص ٤٥١، وتذكرة الحفّاظ ج ١ ص ٣٢ وسير أعلام النبلاء ج ٢ ص ٤٣٥.

(٢) راجع تهذيب تاريخ دمشق ج ٥ ص ٤٥٠، وطبقات ابن سعد ج ٢ قسم ٢ ص ١١٦ و١١٧، وكنز العمال ج ١٦ ص ٧، وحياة الصحابة ج ٣ ص ٢١٨ وراجع: سير أعلام النبلاء ج ٢ ص ٤٣٤.

(٣) تهذيب تاريخ دمشق ج ٥ ص ٤٥٠، وطبقات ابن سعد ج ٢ قسم ٢ ص ١١٥، وراجع: تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٣٢، وكنز العمال ج ١٦ ص ٦ وسير أعلام النبلاء ج ٢ ص ٤٣٤.

(٤) المعارف ص ٣٥٥.

(٥) تهذيب تاريخ دمشق ج ٥ ص ٤٥٢.

أما أبوه مروان، فكان قد بلغ من اهتمامه بزيد: أن دعاه، وأجلس له قوماً خلف ستر، فأخذ يسأله، وهم يكتبون ففطن لهم زيد، فقال: يا مروان اعذر، إنما أقول برأيي(١).

وأتاه أناس يسألونه، وجعلوا يكتبون كل شيء قاله، فلما أطلعوه على ذلك قال لهم: «لعل كل الذي قلته لكم خطأ، إنما قلت لكم بجهد رأي»(٢).

ومع أنه يعترف بأنه إنما يفتي لهم برأيه، فقد بلغ من عمل الناس بفتواه المدعومة من قبل الحكام: أن سعيد بن المسيب يقول:

«لا أعلم له قولاً لا يعمل به، فهو مجمع عليه في المشرق والمغرب»(٣).

فانظر ماذا ترى!؟

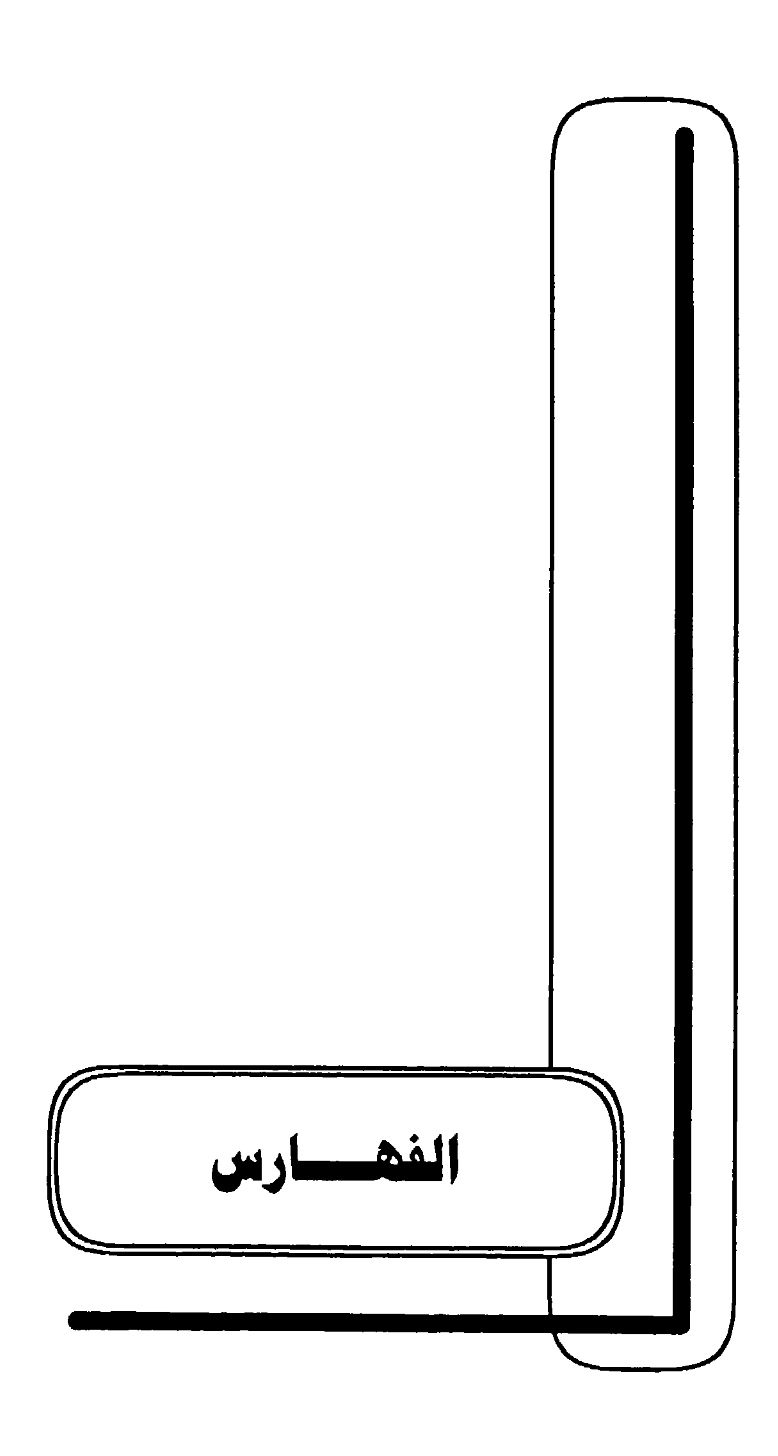
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(١) تهذيب تاريخ دمشق ج ٥ ص ٤٥٢، وطبقات ابن سعد ج ٢ قسم ٢ ض ١١٦ وسير أعلام النبلاء ج ٢ ص ٤٣٨ وفي هامشه عن الطبراني.

(٢) تهذيب تاريخ دمشق ج ٥ ص ٤٥٢.

(٣) تهذيب تاريخ دمشق ج ٥ ص ٤٥١، وطبقات ابن سعد ج ٢ قسم ٢ ص ١١٦.



الفهارس



١ ـ الدليل الاجمالي للكتاب



٢ ـ الدليل التفصيلي للكتاب









